حسن الذكرى

في شرح

الوصية الصغرى



لشيخ الإسلام ابن تيمية

- رحمه الله تعالى - (ت: ٧٢٨هـ

تأليف

د. عبد الله بن عبده العواضي

حسن الذكرى
في شرح الوصية الصغرى

لشيخ الإسلام:
ابن تيمية رحمه الله تعالى
ت ذو القعدة ٧٢٨هـ

تأليف:
د. عبد الله بن عبده العواضي

حُسْنُ الذِّكْرَى

فِي شَرْح

الوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

العنوان: حُسْنُ الذِّكْرَى فِيْ شَرْحِ الْوَصِيَّةِ الصُّغْرَى لابن تيمية.

تأليف: د. عَبْد اللهِ بن عَبْده العَوَاْضِيْ.

الصفحات: (244 صفحة).

الطّبْعة: الأولى، 1447هـ- 2026م.

قياس القطع: 17×24.

النّاشر: غافق للدراسات والنشر.

إخراج فني وإلكتروني: هشام بن حسين الأهدل.

النَّاشِر



غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

اليمن - صنعاء

gafeq.s.p@gmail.com

+967 71 71 72 770

GAFEQ.S.P



782 16 12 14

حُسْنُ الذِّكْرَى

فِي شَرْحِ الوَصِيَّةِ الصُّغرَى

لِشَيْخِ الإِسْلَامْ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

(ت: 728هـ)

تَأْلِيْفُ

د. عَبْد اللهِ بن عَبْده العَوَاضِي



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أحمد الله تعالى على تواتر نعمائه، **وأشكره** على واسع فضله وآلائه، **وأبتهل إليه** في المزيد من عطائه، والإعانةِ على دوام شكره حتى لقائه، **وأسأله سبحانه** أن يعصم الفهم من الزلل، والقلم من الخطل، وأن يسدد ما عَنَّ في الخاطر من التصورات، وأن يكسو بالهدى ما سُطِّر في هذه الكلمات.

وأُصلي وأسلم على هادي البشرية إلى طريق الرشاد، وأتقى الناس وأعلمهم بين العباد؛ نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، نجوم السارين، وقدوة المستهدين.

أما بعد:

فإن الله تعالى قد جعل العلماء بدِينه منارات هدى، ومناهل بيان للورى، ومصادر نصح ودلالة، ومذاهب ضلال وجهالة، يرِد إليهم الناس يستنصحونهم في أحوالهم، ويستنيرون بآرائهم في أعمالهم؛ لثقتهم بعلمهم وأمانتهم، وقد قال الله سبحانه: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[النحل:43] فـ"يفهم من قوله: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أن من جهل الحكم يجب عليه سؤال العلماء، والعلم بما أفتوه به"[1].

(1) أضواء البيان (3/ 332).

وليس السؤال إلا لذوي العلم "فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم، وتزكية لهم؛ حيث أمر بسؤالهم، وأنه بذلك يخرج الجاهل من التبعة"[1].

ورسولنا محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: (أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؛ فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ)[2].

وقد كان من أنفع ما نصح العلماء وأرشدوا: ما دوّنوه مع سؤال السائل في مؤلفات؛ حيث تعم النصيحة بذلك، ويخلد الإرشاد في الناس ما بقيت تلك المصنفات، ويدوم الأجر للعالم والسائل ما استمر الانتفاع بما اشتملت عليه تلك الكتب من العلم، وما دلت عليه من صالح العمل.

ولقد كان من أولئك العلماء الأعلام، الذين توافد إليهم الناس سائلين، وجاءوهم مسترشدين: شيخ الإسلام ابن تيمية، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي شهد له بسعة العلم الموافق والمفارق، وسارت بعلومه الركبان في المغارب والمشارق، وخضعت لمعارفه عقول الكبار، وذاع صيته في جميع الأمصار، الذي خلَّف

(1) تفسير السعدي (511).

(2) رواه أحمد(3056)، وأبو داود(336)، وابن ماجه(572)، والدارقطني في السنن(729)، والدارمي (779)، والبغوي في شرح السنة(313)، والضياء في المختارة (206)، وأبو يعلى (2420)، والقضاعي (1162)، وعبد الرزاق(867)، والبيهقي في المعرفة(1661) والصغرى (236) والكبرى(1074)، والطبراني في الكبير(11472)، والحاكم(630)،وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 318)، وصححه الألباني.

تراثًا معرفيًا متنوعًا يدل على سموق تلك القامة السامية التي حلَّقت في سماوات العلم والمعرفة، والاستقامة والهداية.

فكم ترك للأمة من عِلم غزير في جوابات سائليه، الذين جاءوه من بلدان شتى، وموضوعات متعددة، فمد إليهم يد عطائه العلمي الثجاج في رسائل كثيرة، كان من بينها هذه الرسالة التي شرحناها، والمسماة بـ**"الوصية الصغرى"**.

فإنها كانت من المقررات على طلابنا الأكارم قبل أشهر، حيث قمت بشرحها في مجالس عديدة، ولما انتهيت من شرحها، رأى بعض الطلاب الفضلاء أن يخرج الشرح مكتوبًا؛ حتى تعم المنفعة، ولا يذهب الجهد والوقت أدراج الرياح؛ فإن المسموع يُنسى، ولكن المكتوب يَبقى.

فاستحسنت الرأي، فقمت بإعادة النظر في الشرح؛ حذفًا وإضافة، واستقصاء وصياغة، فكان هذا الشرح اليسير بين يديك أيها القارئ الكريم، وقد سميت هذا الشرح بـ**"حُسْنُ الْذِّكْرَىْ فِيْ شَرْحِ الْوَصِيَّةِ الصُّغْرَى"**.

وأحب أن ألفت الانتباه في هذه المقدمة إلى أنني قد اعتنيت في هذا الشرح بالنقل عن شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم في توضيح عدد من جمل هذه الوصية، **لأمرين:**

الأول: كون الرسالة مختصرة، ولكن بعض مضامينها قد بسطه المصنف في مواضع أخرى من كتبه.

الثاني: أن بعض جمل هذه الوصية مسائل قد تناولها بالحديث المصنف وتلميذه بالاستدلال أو التوسع في بعض كتبهما، فكان من إتمام الفائدة ذكر بعض ذلك في بيان كلام المصنف.

وبعد هذا؛ فالشروح فتوح وعطايا؛ فقد تقصر العبارة، وقد تفي، وقد تحيط بالمعنى وتكشف مقصده وقد تعجز، وقد يفتح نور الذهن مغالق، ويصل إلى واحات من كرائم المعاني، وقد تتوارد عليه معان كواشف، وفوائد عواضد للمعنى، وقد تظلم ذهنَه دياجي غموم، وسيئات أحوال، ولكن على الله تعالى وحده الاعتماد، ومنه نستمد التوفيق والسداد، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتب: د. عبد الله بن عبده العواضي

الأربعاء: 15/ 9/ 1447هـ

الموافق: 4/ 3/ 2026م.



تمهيد

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعريف بالمصنف.

المطلب الثاني: التعريف بالوصية الصغرى.

المطلب الأول: التعريف بالمصنِّف

1 - اسمه ونسبه ومولده:

هو: الشيخ الإمام العلامة المفسر، المحدِّث المجتهد، الحافظ شيخ الإسلام، نادرة العصر، فريد الدهر: تقي الدين أبو العباس بن الشيخ شهاب الدين بن الإمام مجد الدين أبي البركات ابن تيمية.

ولد في عاشر ربيع الأول سنة: (661هـ)، وتحول به أبوه من حرَّان سنة (667هـ)، فسمع من ابن عبد الدائم، والقاسم الأربلي، والمسلم ابن علان، وابن أبي عمر والفخر في آخرين[1].

2 - صفته الخلقية:

كان أبيض، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنيه، وكأن عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت، فصيحًا، سريع القراءة، تعتريه حدَّة، لكنه يقهرها بالحلم[2].

---

(1) أعيان العصر وأعوان النصر (1/ 233)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (1/ 168).

(2) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (1/ 176).

3 - حفظه ومعارفه وصفاته:

لقد أثنى عليه علماء كثر في سعة علمه، وقوة حفظه، وجميل نعوته، **نكتفي من ذلك بقول تلميذه الصفدي، حيث قال:** تمذهب للإمام أحمد بن حنبل، فلم يكن أحد في مذهبه أنبه منه ولا أنبل، وجادل وجالد شجعان أقرانه، وجدّل خصومهُ في وسط ميدانه، وفرّج مضائق البحث بأداةٍ قاطعة، ونصر أقوالهُ في ظلمات الشكوك بالبراهين الساطعة، كأن السُّنة على رأس لسانه، وعلوم الأثر مساقة في حواصل جنانه، وأقوال العلماء مجلوةٌ نُصب عيانه، لم أر أنا ولا غيري مثل استحضاره، ولا مثل سبقه إلى الشواهد وسرعة إحضاره، ولا مثل عزوه الحديث إلى أصله الذي فيه نقطةُ مداره.

وأما علم الأصلين فقهًا وكلامًا، وفهمًا فكان عجبًا لمن يسمعه، ومُعجزاً لمن يُعد ما يأتي به أو يجمعه، يُنزل الفروع منازِلها من أصولها، ويرد القياسات إلى مآخذها من محصولها.

وأما الملل والنحل، ومقالات أرباب البدع الأُول، ومعرفةُ أرباب المذاهب، وما خصوا به من الفتوحات والمواهب؛ فكان بحراً يتموّج، وسهمًا ينفذ على السواء لا يتعوج.

وأما المذاهب الأربعة فإليه في ذاك الإشارة، وعلى ما ينقله الإحاطة والإدارة، **وأما** نقل مذاهب السَّلف، وما حدث بعدهم من الخلف، فذاك فنُّه،

وهو في وقت الحرب مجنُّه، قل أن قطعة خصُمه الذي تصدى له وانتصب، أو خلص منه مناظرهُ إلا وهو يشكو من الأين والنَّصب.

وكان ذا قلم يسابقُ البرق إذا لمع، والودق إذا همع، يُملي على المسألة الواحدة ما شاء من رأس القلم، ويكتب الكرَّاسين والثلاثة في قعدة، وجدٌّ ذهنه ما كلَّ ولا انثلم، قد تحلى بالمُحلى، وتولّى من تقليده ما تولى، فلو شاء أورده عن ظهر قلب.

وكان من صغره حريصاً على الطلب، مجدِّاً على التحصيل والدأب، لا يؤثرُ على الاشتغال لذة، ولا يرى أن تضيع لحظةٌ منه في البطالة فذّة، يذهلُ عن نفسه، ويغيب في لذّة العلم عن حسه، لا يطلب أكلاً إلا إذا أحضر لديه، ولا يرتاحُ إلى طعام ولا شراب في أبرديه.

لا جرم أنه كان في أرض العلوم حارثاً وهو همام، وعلومُه كما يقول الناس تدخل معه الحّمام.

هذا إلى كرم يضحك البرقُ منه على غمائمه، وجودٍ ما يصلحُ حاتمٌ أن يكون في فضِّ خاتمه، وشجاعة يفرّ منها قسورة، وإقدام يتأخر عنه عنترة؛ دخل على محمود غازان وكلمه كلاماً غليظاً بقوة، وأسمعه مقالاً لا تحملّه الأبوةُ من البنوّة[1].

---

(1) أعيان العصر وأعوان النصر (1/ 234).

4 - مصنفاته:

قال ابن عبد الهادي في مختصر طَبَقَاتِ عُلَمَاءِ الحَدِيث: "وعددُ أسماء مصنَّفاته يحتاج إِلى أوراق كثيرة، ولذكرها موضع آخر، وله من المؤلَّفات والفتاوى، والقواعد والأجوبة والرسائل والتَّعالِيق ما لا ينحصر ولا ينضبط، ولا أعلم أحدًا من المتقدِّمين ولا من المتَأخِّرين جَمَعَ مثل ما جمع، ولا صنَّف نحو ما صنَّف، ولا قريبًا من ذلك؛ مع أَنَّ تصانيفه كَانَ يكْتُبها من حِفْظه، وكتب كثيرًا منها في الحَبْس، وليس عنده ما يحتاج إليه، ويراجعه من الكتب"[(1)].

ونقل الحافظ أَبو عبد الله محمد بن أَحمد بن عثمان الذَّهبي الدِّمشقي أَنَّ مصنَّفاته تُنِيْفُ على خمس مئة مجلَّد[(2)].

وفي الدرر الكامنة أنها ربما تزيد على أربعة آلاف كراسة، **وفي فوات الوفيات** أنها تبلغ ثلاث مئة مجلد، منها: الفتاوى، والجمع بين النقل والعقل، ومنهاج السنة[(3)]، وغيرها.

---

(1) ينظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص: 257).

(2) ينظر: المرجع السابق (ص: 247).

(3) الأعلام للزركلي (1/ 144).

5- موته رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تمرض أيامًا بالقلعة بمرض جد إلى أن مات ليلة الإثنين، العشرين من ذي القعدة سنة: (728هـ)، وصلي عليه بجامع دمشق، وصار يضرب بكثرة من حضر جنازته المثل، وأقل ما قيل في عددهم أنهم خمسون ألفًا[1].

وقد وصف ابن كثير جنازته وصفًا عظيمًا[2].

وقد كتبتُ عنه قصيدة تبين عظمة علومه، **وهي قولي**[3]:

حدِّثْ عنِ البحرِ إنْ فاضتْ جوانبُهُ   وعن سَخَاْ الغيثِ إذْ جادتْ سحائبُهُ
وعنْ قرينِ العلا سامي الخِلالِ وعنْ   فَذٍّ تعالتْ على الجوزاْ مناقبُهُ
عن أحمدٍ مِن رُبى حَرَّانَ منبتُهُ   وفي جميعِ الدُّنا سارتْ كواكبُهُ
قدْ ماتَ قبلَ قرونٍ حيٌّ شاخصِهِ   وذِكْرُهُ في حياةِ الناسِ نائبُهُ
كأنّهُ قائمٌ تَزهو الحياةُ بهِ   ولمْ تزلْ في الورى تمشي مواكبُهُ
يا نَجلَ تيميةٍ يا نَشرَ معرفةٍ   يَشتمُّ من طِيبِهِ الفوَّاحِ طالبُهُ
تمثَّلتْ فيكَ أوصافٌ محبَّبةٌ   فمَنْ حوى بعضَها جلَّتْ مكاسبُهُ
نُورٌ مِن الفَهمِ إنْ حلّتْ أشعّتُهُ   لدى الدُّجى انجفلتْ عنهُ غياهبُهُ

---

(1) ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (1/ 177).

(2) ينظر: البداية والنهاية (18/ 297).

(3) كانت في يوم: 3/ 6/ 1446هـ/ 24/ 12/ 2024م.

متى يَخُضْ مُشكِلاً حلّتْ بصيرتُهُ صِعابَهُ فبدا للعقلِ عازبُهُ
كمْ زيَّنتْ أُفُقَ القاريْ معارفُهُ وأَبهرتْ عُلَماْ الدنيا عجائبُهُ
له اطّلاعٌ عجيبٌ في العلومِ فكمْ تكشَّفتْ لِحِجا الشَّاديْ غرائبُهُ
وكم وعَى صدرُه أسفارَ معرفةٍ ما شاءَ مِن وبْلِها ينصبُّ ساكبُهُ
بِيضٌ خلائقُهُ خُضرٌ طرائقُهُ عُليا منازلُهُ عُظمَى مواهبُهُ
قد جلَّلَ النَّفْسَ إيمانًا وألبسَها حَلْيَ التواضعِ والتقوى مراكبُهُ
ما كانَ همتُّهُ الدنيا وزُخرُفَها ولا تميلُ إلى دُونٍ مذاهبُهُ
كمْ شدَّ أزْرَ الرؤى الوضّاءَ مسلكُها وزَلزلتْ جحفلَ العاديْ كتائبُهُ
تزورُّ عن لُغةِ السَّفْسَافِ أحرفُهُ وعن غرورٍ بِها قد مالَ جانبُهُ
تجارِبٌ في رُدودٍ زانَها بِهُدى والمرءُ تصقلُهُ دومًا تجارِبُهُ
كمْ مُغلَقٍ فتحتْ قِدْمًا مفاتحُهُ وكم أنارتْ دُجى الساريْ كواكبُهُ
وبدعةٍ لم تزلْ تزهو بِصَولتِها وشرُّها لم يجدْ قِرْنًا يُغالبُهُ
حتى أتاها أبو العباسِ فانكسرتْ وهدَّ جانبَها المزهوَّ جانبُهُ
العَدلُ شيمتُهُ فيما يُدوِّنُهُ لا الجورُ خلّتُهُ معْ مَن يُحارِبُهُ
ولا رأينا الهَوى يُزجِيْ مطيَّتَهُ فيما نظنُّ وقصدُ الحقِّ صاحبُهُ
تَزينُهُ سعةٌ في الصدرِ جمّلَها حِلْمٌ تَسيرُ به دومًا ركائبُهُ
كمْ حاسدٍ ذمّهُ أو حاقدٍ نطقتْ حروفُه بأذى ساءتْ عواقبُهُ

مـا ضـرَّهُ حَنَـقٌ بـلْ فـاحَ مُنتـشِراً   عبيـــرُهُ وهـــوَى في الـــذمِّ عائبُـــهُ
لو أنصفوكَ - أبا العباسِ - ما كَتبوا   إلا الثنـــاءَ ونـــالَ الفـــضلَ كاتبُـــهُ
تراثُـــهُ مـــلأَ الـــدنيا فكـــانَ بـــهِ   نهـرٌ تـدفَّقَ لـم تنـضبْ مـشاربُهُ
ولا نقـولُ هـو المعـصومُ كـم زلـلٍ   لكـلِّ عبـدٍ وطبـعُ المـرءِ راكبُـهُ
سـبحانَ مانحِـهِ مِـن فـيضِ نعمتِـهِ   هـذي الهبـاتِ فجـلَّ اللهُ واهبُـهُ
ومـا حبـوتُ أبـا العبـاسِ منقبـةً   إلا ونافـتْ علـى مـدحي مناقبُـهُ
عليك صلّى مليكُ الخلقِ وانسكبتْ   بـالغَفْرِ في رَمْـسِكَ النـائي سـواكبُهُ
وقـدَّسَ اللهُ رُوحـًا أنـتَ حاملُهـا   ونـوَّرَ اللهُ قـبراً أنـتَ صـاحبُهُ



المطلب الثاني: التعريف بالوصية الصغرى

هذه الرسالة رسالة صغيرة في مبناها، كبيرة في معناها؛ فهي جامعة لمقاصد علمية وعملية كثيرة، وقد تميزت بعمق الرؤية، ودقة الاختيار، وقوة الاستحضار، وبراعة الاستدلال، وجمال العبارة، وحلاوة الإشارة، وسهولة الخطاب، على خلاف ما نعهده في كثير من مصنفات شيخ الإسلام.

والسبب أن هذه الوريقات موجهة لعموم الناس، وليست لنخبة المتعلمين فحسب، فاقتضى الأمر نزول المصنف إلى الخطاب الذي يفهمه الجميع.

وقد وصفت هذه الوصية بالصغرى؛ لأن للمصنف وصية أكبر منها يقال لها: الوصية الكبرى، وجهها المصنف لأتباع الأموي، "**أولها**: من أحمد ابن تيمية إلى من يصل إليه هذا الكتاب من المسلمين المنتسبين إلى السنة والجماعة؛ المنتمين إلى جماعة الشيخ العارف القدوة، أبي البركات عدي بن مسافر الأموي..." ، "**وآخرها**: فنسأل الله العظيم أن يجعلنا وإياكم من الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته والحمد لله وحده، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا"(1).

(1) وهي في مجموع الفتاوى (3/ 363 - 430).

وهناك ملحوظات يمكن أن نسجلها هنا عن السؤال والجواب، كالملخص لهما، والنافذة إلى محتواهما وما تميزا به.

أولاً: سؤال السائل:

1 –كان السؤال حصيفًا في اختيار ألفاظه وموضوعاته.

2 – قلة لفظه، مع كثرة مطلوبه.

3 – حسن أدب السائل، وحسن ظنه بالشيخ؛ لعلمه وأمانته.

4 – حرص السائل على صلاح دينه ودنياه.

5 – يبدو أن السائل كان ذا علم بدليل مرامي كلامه، وحرصه على الكتب والعلوم التي يريد أن ينتفع بها.

6 – اتسم السؤال بأن يكون طلب السائل الجواب مختصراً؛ حتى يعظم الانتفاع به.

7 – **كانت مطالب السؤال هي:**

1 –الوصية في صلاح الدين والدنيا.

2 – الإرشاد إلى كتاب يعتمد عليه في علم الحديث، وسائر العلوم الشرعية.

3 – الدلالة على أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات4 –الدلالة على أرجح المكاسب.

أما الجواب:

1 – فقد جاء الجواب من غير رجوع المصنف إلى كتاب، كما نبهنا على ذلك في مواضع من الشرح.

2 – عمل الشيخ بطلب السائل بأن يكون الجواب على وجه الإيماء والإيجاز.

3 – تميز الجواب بحسن الاختيار؛ حيث كان يختار للنصيحة أحسنها، وينظر المتفرق فيختار منه أجمع ما في الباب.

4 –عظم أمانة الشيخ، وصدق نصحه؛ حيث ظهر ذلك في اختيار أحسن ما يعرف في مقاصد السؤال.

5 – يلاحظ أن جواب المصنف لم يكن كله على ترتيب السؤال في جميع فقراته، بل في بعضها، فترتيب مطالب السؤال تقدم ذكرها، **وأما ترتيب الجواب فكان هكذا:**

1 –الوصية الجامعة لصلاح الدين والدنيا.

2 –أفضل الأعمال بعد الفرائض.

3 –أرجح المكاسب.

4 –ما يعتمد عليه من الكتب في العلوم ، ووصف الكتب والمصنفين.



الشَّرْحُ

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْوَصِيَّةُ الصُّغْرَى، سُؤالُ أبي الْقَاسِمِ المَغربي(1)):

(الْوَصِيَّة): الوصية: لغة:

يقال: وَصَى الشيءُ وَصْيًا: اتَّصَلَ، ووَصَيْتُ الشيءَ ووَصَلْته؛ سواءٌ، وتَواصَى القَوْمُ: أَوْصَى بعضُهم بَعْضًا، ويقال: أَوْصَاهُ ووَصَّاهُ، ووصى وأوصى لغتان، إلا أنهم قالوا: إن وصَّى المشدد يدل على المبالغة والتكثير.

والوصية: العهد، يقال: وصى بنيه: أي عهد إليهم، وتقدم إليهم بما يعمل به، مقترنًا بوعظ.

والوصية جمعها وصايا.

وَالْوَصِيَّةُ وَالْوَصَاةُ اسْمَانِ فِي مَعْنَى الْمَصْدَرِ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾[المائدة:106]، ثُمَّ سُمِّيَ الْمُوصَى بِهِ وَصِيَّةً وَمِنْهُ: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا﴾[النساء: 12].

اصطلاحًا: الوَصِيَّةُ: التّقدّمُ إلى الغير بما يعمل به، مقترنًا بوعظ(2).

---

(1) مجموع الفتاوى (10/ 653) وما بعدها.

(2) ينظر: تاج العروس (40/ 207)، المفردات في غريب القرآن (ص: 873)، البحر المحيط في التفسير (1/ 633)، المطلع على ألفاظ المقنع (ص: 356)، المعجم الوسيط (2/ 1038)، المغرب في ترتيب المعرب (ص: 487).

والوصية باعتبار الموصى به نوعان: الأول: وصية بالمال، وهي التي تدرس في الفقه الإسلامي في باب الفرائض، **ومنها: قوله تعالى:** ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:180].

وهذه الوصية يعرِّفونها بقولهم: "تمليك مضاف إلى ما بعد الموت"[1].

وتكون هذه الوصية من الإنسان لما يكون بعد موته فيما أوصى به.

وسميت هذه الوصيّةُ وصيةً؛ لاتصالها بأمر الميت، **وقيل:** لأنَّ الموصَى وصَلَها إلى الموصي إليه[2].

الثاني: وصية بخير يُعمل، أو شر يُترك، وهذا النوع أوسع من النوع السابق باعتبار الموصي، والموصى به.

فهذا النوع يأتي من الله تعالى؛ **كقوله سبحانه:** ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام:153]، **وكقوله:** ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾[النساء:131]، **وقوله:** ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾[العنكبوت:8].

---

(1) التعريفات (ص: 252).

(2) البحر المحيط في التفسير (1/ 633).

ومن الآباء للأولاد؛ كقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة:131-132].

ويكون من بعض المؤمنين لبعض؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾[البلد:17].

ويكون بين الناس العقلاء عمومًا، وإن لم يكونوا مسلمين؛ فقد "أوصى ملك من ملوك حمير أخاه، فقال: لا تتجاوز بالأمور حدودها، ولا يكن الإفراط من شأنك في نكال، ولا نوال؛ فإنه في النوال يجحف، ويكثر فيه عليك، وفي النكال ما يؤثمك ويحنق عليك ويبغضك. وإذا أنكرت نفسك فأمسك وغالب هواك؛ فإنه أضر ما اتبعت، واعمل بالحق؛ فإنه لا يضيق معه شيءٌ، ولا يتعب منه عاقل، ولا يتعقب منه تبعةٌ، وليكن خوف بطانتك منك أشد من أمنهم بك"(1).

(الصُّغْرَى): هذا الوصف يشير إلى وجود وصية كبرى، والأمر كذلك، فللشيخ الإمام رسالة بعنوان الوصية الكبرى، أرسلها إلى جماعة الشيخ أبي البركات عدي بن مسافر الأموي رَحِمَهُ اللَّهُ ومن نحا نحوهم(2)، توسع فيها بالحديث عن وسطية الإسلام، ومنهج أهل السنة والجماعة ووسطيتهم في أبواب العقائد، ودعاهم في هذه الوصية إلى البعد عن الغلو والانحراف في العقيدة والسلوك.

---

(1) لباب الآداب لأسامة بن منقذ (1/ 54).

(2) تنظر في: مجموع الفتاوى (3/ 363) وما بعدها.

(سُؤال) السُّؤَالُ هو: استدعاء معرفة، أو ما يؤدِّي إلى المعرفة[1].

والسؤال طريق من طرق العلم؛ إما لإفادة شيء جديد، وإما لتصحيح خطأ، وإما لكشف المبهم.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: "الْعِلْمُ خزَانَةٌ مِفْتَاحُهَا الْمَسْأَلَةُ"[2].

وَسُئِلَ الْأَصْمَعِيُّ: بِمَ نِلْتَ مَا نِلْتَ؟ قَالَ: "بِكَثْرَةِ سُؤَالِي، وَتَلَقُّفِي الْحِكْمَةَ الشَّرُودَ"[3].

وقال بعضهم:

إِذَا كُنْتَ فِي بَلَدٍ جَاهِلًا ... وَلِلْعِلْمِ مُلْتَمِسًا فَاسْأَلِ
فَإِنَّ السُّؤَالَ شِفَاءُ الْعَمَى ... كَمَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ الْأَوَّلِ[4]

وقد كان هذا السؤال من هذا السائل سببًا في ولادة هذه الرسالة العظيمة، وكم من مصنف نافع كان سببه سؤال سائل؛ إما أمير، وإما والد، وإما تلميذ، وإما غيرهم، ولعل السائل يكون له نصيب من أجر الانتفاع بذلك المؤلَّف الذي خرج للوجود بسبب سؤاله.

(أبي الْقَاسِمِ المغربيِّ) لا أعلم عن هذا السائل شيئًا.

---

(1) المفردات في غريب القرآن (ص: 437).

(2) جامع بيان العلم وفضله (1/ 374).

(3) المصدر السابق (1/ 382).

(4) المصدر السابق (1/ 376).

نص السؤال:

(يتفضلُ الشَّيْخُ، الإمامُ، بَقِيَّةُ السَّلفِ، وقدوةُ الْخلَف، أعلمُ من لقِيتُ بِبِلَادِ الْمشرق وَالْمغْرب، تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمدُ ابنُ تَيْمِيةَ؛ بِأَن يوصيَنِي بِمَا يكونُ فِيهِ صَلَاحُ ديني ودنياي، ويرشدَني إلى كتابٍ يكونُ عَلَيْهِ اعتمادي فِي علم الحَدِيث، وَكَذَلِكَ فِي غَيرِه من الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّة، ويُنبِّهَني على أفضلِ الْأَعْمَال الصَّالِحَةِ بعدَ الْوَاجِبَات، وَيُبيّنَ لي أرجحَ المكاسبِ. كلُّ ذَلِك على قصدِ الإيماءِ والاختصارِ. وَالله تَعَالَى يحفظُه. وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه).

قوله: (يتفضلُ) حذف المتفضل عليه، **والتقدير**: يتفضل علينا، أو عليَّ، أي: يحسن إلينا بجواب مسألتنا. **يقال**: "تفَضَّلَ عَلَيْهِ: إِذا تطَوَّلَ وأحسنَ وأنالَه من فَضْلِه، **قَالَ الشَّاعِر**:

مَتى زِدْتُ تَقْصِيراً تَزِدْني تفَضُّلاً ... كأَنِّيَ بالتَّقصيرِ أَسْتَوْجِبُ الفَضْلا

و" يقال: أفضل عليه: إذا أحسن إليه، وأناله من فضله"[2].

واستفتاح السؤال بهذا اللفظ من حسن أدب السائل رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنه ينبغي للسائل أن يسلك طريق الأدب في الخطاب مع من يسأله ويتعلم منه؛ **قال الله تعالى**: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[الكهف:66]،

---

(1) تاج العروس (30/ 173).

(2) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (8/ 5208).

فهذه من موسى للخضر عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ "مخاطبة فيها ملاطفة، وتواضع، وكذلك ينبغي أن يكون الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه"[1].

وفي آداب طالب العلم مع شيخه قال ابن جماعة: "أن يحسن خطابه مع الشيخ بقدر الإمكان..."[2].

(الشَّيْخُ): يقصد: الشيخ في العلم.

وهذا الوصف قد مر بتطورات في إطلاقه، **فهو في أصل اللغة:** "الَّذِي استبانت فِيهِ السنُّ، وَظهر عَلَيْهِ الشَّيب.

وَقيل: هُوَ شيخ من خمسين إِلَى آخر عمره. **وَقيل:** هُوَ إِحْدَى وَخمسين إِلَى آخر عمره.

وَقيل: هُوَ من الْخمسين إِلَى الثَّمَانِينَ. **وَالْجمع:** أشياخ، وشيخان، وشُيوخ، وشِيَخَة، وشِيْخَة، ومَشْيخة، ومَشِيخة" وغير ذلك[3].

ثم صار هذا الوصف يطلق على ذي "المكانة من علم، أَو فضل، أَو رياسة"[4].

---

(1) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (1/ 470).

(2) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص: 46).

(3) المحكم والمحيط الأعظم (5/ 243).

(4) المعجم الوسيط (1/ 502).

وقال الراغب: "يقال لمن طعن في السّنّ: الشَّيْخُ، وقد يعبّر به فيما بيننا عمّن يكثر علمه؛ لما كان من شأن الشَّيْخِ أن يكثر تجاربه ومعارفه"[1].

أما المحدِّثون فلهم إطلاقات أخرى لكلمة شيخ؛ فيريدون به أحيانًا: الراوي الذي له تلاميذ، وقد يقصدون بها مصطلحًا نقديًا؛ حيث يجعلون الشيخ في المرتبة الثالثة من مراتب التعديل، فيكتب عنه وينظر، وهو دون المرتبة الثانية[2] **قال السيوطي**:

"مَحَلُّهُ الصِّدْقَ" "رَوَوْا عَنْهُ" "وَسَطْ" "شَيْخٌ" مُكَرَّرَيْنِ أَوْ فَرْدًا فَقَطْ[3]

(الإمامُ): تطلق كلمة إمام على معان كثيرة[4]، **ويقصد السائل منها**: المتقدم على غيره ممن يقتدى به في الخير **(بَقِيَّةُ السّلفِ) الْبَقِيَّة**: مَا بَقِي من الشَّيْء[5]، والسلف: القوم المتقدمون، **ويراد بهم**: أصحاب القرون المفضلة، ومن سار على نهجهم قبل زمن السائل.

ويقصد بهذا الوصف: المذكِّر بالسلف، والسائر على نهجهم في علمه وسلوكه.

---

(1) المفردات في غريب القرآن (ص: 469).

(2) التقريب والتيسير للنووي (ص: 52).

(3) ألفية السيوطي في علم الحديث (ص: 58).

(4) ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص: 61)، المعجم الوسيط (1/ 27).

(5) المعجم الوسيط (1/ 66).

(وقدوةُ الْخلَف) **القدوة**: من يقتدي به غيره، ويسير على طريقه، **والخلف**: الحاضرون[1]، ومن يجيء من بعدُ؛ **قال لبيد:**

ذهب الذين يُعاش في أكنافهمْ   وبقيتُ في خَلَفٍ كجلد الأجربِ[2]

(أعلمُ من لقِيتُ بِبِلَادِ الْمشرق وَالْمغْرب) وهذا ثناء بعلو كعب شيخ الإسلام في العلم في العالم الإسلامي في ذلك الوقت؛ لمجيء هذا الثناء باسم التفضيل.

وتقييد السائل هذه الأعلمية المطلقة بمن لقي؛ هو من عدله وصدقه.

(تَقِيُّ الدِّين): هذا لقب له رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان يكرهه، كما سيأتي، كما كان النووي يكره من يلقبه بمحيي الدين؛ خوفًا من أن يدخل تحت **قوله تعالى**: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[النجم:32]، "**قال اللخمي**: وصح عنه أنه قال: لا أجعل في حلٍّ من لقّبني محيي الدين"[3].

وقد حصل خلاف بين أهل العلم في اللقب المضاف إلى الدين؛ كزين الدين، ومحي الدين، وفخر الدين، ونحوها.

قال الصنعاني: "ومن الألقاب القبيحة: ما قاله الزمخشري: إنه توسع الناس في زماننا حتى لقبوا السفلة بألقاب العلية، وهب أن العذر مبسوط فما أقول في

---

(1) إكمال الإعلام بتثليث الكلام (1/ 195).

(2) الإبانة في اللغة العربية (3/ 37).

(3) المنهل العذب الروي (ص: 2).

تلقيب من ليس من الدين في قبيل ولا دبير بفلان الدين، هي لعمري والله للغصة التي لا تساغ"[1].

وقال الشيخ بكر أبو زيد: "وتُكرهُ التَّسميةُ بكُلِّ اسمٍ مُضافٍ مِن اسمٍ أو مصدرٍ أو صفةٍ مُشبَّهة مضافةٍ إلى لفظِ (الدينِ) ولفظ (الإسلام)؛ مثل: نور الدين، ضياء الدين، سيف الإسلام، نور الإسلام .. وذلك لعظيمِ منزلةِ هذين اللفظين (الدين) و(الإسلام)، فالإضافةُ إليهما على وجْهِ التَّسميةِ فيها دعوى فجَّةٌ تُطِلُّ على الكذبِ؛ ولهذا نصَّ بعضُ العلماءِ على التَّحريمِ، والأكثرُ على الكراهةِ؛ لأنَّ منها ما يوهِمُ معاني غير صحيحةٍ ممَّا لا يجوزُ إطلاقُه، وكانت في أوَّلِ حدوثها ألقاباً زائدة عن الاسمِ، ثم استُعْمِلتْ أسماءً.

وقد يكونُ الاسمُ من هذه الأسماء منهيّاً عنهُ من جهتينِ؛ مثلُ شهابِ الدين؛ فإنَّ الشهابَ: الشُّعلةُ مِن النَّارِ، ثم إضافةُ ذلك إلى الدِّينِ، وقد بلغ الحالُ في إندونيسيا التسمية بنحوِ: ذهبِ الدِّينِ، ماسِ الدِّين!

وكان النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكرهُ تلقيبهُ بمُحيي الدِّين، وشيخُ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكْرهُ تلقيبهُ بتقيِّ الدِّين، ويقولُ: (لكنَّ أهْلي لقَّبوني بذلك فاشتهر)، وقد بيَّنْتُ ذلك في (تغريب الألقاب).

وأوَّلُ منْ لُقِّب في الإسلامِ بذلك هُو بهاءُ الدَّولةِ ابنُ بُويْه (رُكْن الدِّين) في

---

(1) سبل السلام (2/ 543).

القرن الرابع الهجري"[1].

ثم قال الشيخ بكر في موضع آخر: "المتحصل من كلام أهل العلم في التلقيب مضافًا إلى الدِّين، سواء للعلماء، أو السلاطين، أو خلافهم من المسلمين، أو غيرهم: **ما يلي :**

أولاً : أن هذا من محدثات القرون المتأخرة، من واردات الأعاجم على العرب المسلمين، فلا عهد للقرون المفضلة بذلك، لاسيما الصدر منها.

ثانيًا: حرمة تلقيب الكافر بذلك.

ثالثًا: ويلحق به تلقيب المبتدع، والفاسق والماجن.

رابعًا: وفيما عدا ذلك مختلف بين الحرمة والكراهة والجواز، والأكثر على كراهته، في بحث مُطوَّلٍ تجده في المراجع المثبتة في الحاشية، والله أعلم"[2].

(أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ ابنُ تَيْمِيةَ) تيمية: لقب لأحدى جداته؛ فقد حج أحد أجداده وكانت امرأته حاملاً، فلما كان بتيماء رأى جويرية خرجت من خباء، فلما رجع إلى حران وجد امرأته قد وضعت جارية، فلما رفعوها إليه قال: يا تيمية! يا تيمية! يعني: أنها تشبه التي رأى بتيماء، فسمي بها.

وتيماء: بليدة في بادية تبوك، **وتيمية:** منسوبة إلى هذه البليدة، وكان ينبغي

---

(1) معجم المناهي اللفظية (2/ 12).

(2) معجم المناهي اللفظية (1/ 72).

أن يكون تيماوية؛ لأن النسبة إلى تيماء تيماوية، لكنه هكذا قال، واشتهر كما قال.

وقيل: إن جده محمدًا، كانت أمه تسمى تيمية، وكانت واعظة، فنسب إليها، وعرف بها[1].

(بِأَن يوصيَنِي) الباء وما دخلت عليه متعلقة بالفعل المتقدم" يتفضل".

وطلب الوصية بالخير من ذوي الفضل طريقة معلومة في تاريخ العلم؛ فقد عبدها صحابة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين كانوا يأتون النبي ﷺ ويستوصونه، وهي وصايا كثيرة لمن نظر في السنة النبوية الشريفة؛ **فمنها**: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: (لاَ تَغْضَبْ) فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: (لاَ تَغْضَبْ)[2].

وكذلك سلك ذلك التابعون مع الصحابة؛ قال: قال رجل لابن مسعود: يا أبا عبد الرحمن، أوصني، قال: "ليسعك بيتك، وابك من ذكر خطيئتك، وكف لسانك"[3].

---

(1) ينظر: التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: 114)، تاريخ إربل (1/ 97) تاريخ الإسلام (13/ 723).

(2) رواه البخاري(6116).

(3) الزهد والرقائق لابن المبارك (1/ 42).

(بِمَا يكونُ فِيهِ صَلَاحُ ديني ودنياي) وهذا استيصاء جامع في موضوعه وجهته؛ لأنه لا صلاح للدين إلا بصلاح الدنيا، ولكنه بدأ بالدين لكونه الأهم.

وصلاح الدين يكون بالعلم النافع والعمل به، وصلاح الدنيا يكون بما يعين على كفاية الحاجة من الحلال غير الملهي عن طاعة الله تعالى.

قال المصنف: "وقد كان النبي ﷺ في الأدعية المأثورة عنه فعلاً وتعليمًا لأمته؛ يذكر صلاح الدين والدنيا"[1].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: (اللهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ)[2].

قال أبو صالح المزي: "المؤمن من يعاشرك بالمعروف، ويدلك على صلاح دينك ودنياك، والمنافق من يعاشرك بالمماذعة[3]، ويدلك على ما تشتهيه، والمعصوم من فرق بين الحالين"[4].

وفي الأدب الصغير قال: "وَلَسْنَا بِالْكَدِّ فِي طَلَبِ الْمَتَاعِ، الَّذِي يُلْتَمَسُ بِهِ دَفْعُ

---

(1) الرد على الشاذلي في حزبيه وما صنفه في آداب الطريق (ص: 56).

(2) رواه مسلم(2720).

(3) **المماذعة**: الكذب والادعاء.

(4) آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة (ص: 22).

الضَّرَرِ وَالْغَلَبَةُ؛ بِأَحَقَّ مِنَّا بِالْكَدِّ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، الَّذِي يُلْتَمَسُ بِهِ صَلاَحُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا"[1].

(ويرشدَني إلى كتابٍ يكونُ عَلَيْهِ اعتمادي فِي علم الحَدِيث) أي: يدلني على مصدر حديثي أرجع إليه في معرفة متون الحديث الشريف (وَكَذَلِكَ فِي غَيره من الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّة) أي: ومثل ذلك الكتاب أريد أن تدلني على كتب عُمَد في غير علم الحديث من سائر العلوم الشرعية المعتمدة على الكتاب والسنة (ويُنبِّهَني) ويطلعني (على أفضلِ الْأَعْمَال الصَّالِحَةِ بعد الْوَاجِبَات) وهذا من سمو النفس، وحرصها على الخير، والنفوس الشريفة تسأل عن الأعمال السامية؛ قَالَ مَعْدَانُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ الْيَعْمَرِيُّ: لَقِيتُ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ يُدْخِلُنِي اللهُ بِهِ الْجَنَّةَ؟ أَوْ قَالَ قُلْتُ: بِأَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ، فَسَكَتَ. ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَسَكَتَ. ثُمَّ سَأَلْتُهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: (عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ؛ فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً) قَالَ مَعْدَانُ: ثُمَّ لَقِيتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ لِي مِثْلَ مَا قَالَ لِي ثَوْبَانُ[2].

(وَيُبيّنَ لي أرجحَ المكاسبِ) أي: أفضلها (كلُّ ذَلِك) أي: كل المذكور السابق أريد إجابته (على قصدِ الإيماءِ والاختصارِ) أي: على طريق الإشارة،

---

(1) لأدب الصغير ت خلف (ص: 24).

(2) رواه مسلم(488).

وحذف الفضول من الكلام. **أراد** أن تكون الإجابات خميصة المبنى، بطينة المعنى، وهذا يدل على أن السائل ذو فهم ومعرفة، فالكلام يؤتى به موجزاً ليحفظ، ومبسوطًا ليفهم.

قال "**الخليل**: يختصر الكتاب ليُحفظ، ويُبسط ليُفهم. وقيل لأبى عمرو بن العلاء: هل كانت العرب تطيل؟ قال: نعم؛ كانت تطيل ليسمع منها، وتوجز ليحفظ عنها"[1].

(وَاللهُ تَعَالَى يحفظُه) يحرسه من كل مكروه، وقد جاء بالدعاء بقالب المضارع ليفيد التجدد والاستمرار **(وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه)** والخطاب بلفظ الغائب يدل على أنه أرسل إلى شيخ الإسلام هذا السؤال رسالة.

"والتَّسليمُ مشتَقّ من السلام اسم اللّه تعالى؛ لسلامَتِه من العَيب والنَّقْص. **وقيل**: معناهُ: أن اللّه مُطَّلع عليكم فلا تَغْفُلوا. **وقيل**: معناه: اسم السلامِ عليك: أي: اسم اللّه عليك إذا كان اسمُ اللّه يُذْكر على الأعْمال تَوقُّعًا لاجْتماع معاني الخيرات فيه، وانْتِفاء عَوارِض الفساد عنه، **وقيل**: معناه: سَلِمْتَ مني فاجْعَلْني أسلَمُ منك من السلامة بمعنى السلام"[2].

---

(1) الصناعتين: الكتابة والشعر (ص: 192).

(2) النهاية في غريب الحديث والأثر (2/ 393).

ومن أدب السائل: أنه وصف السلام بالكريم.

وقدم السلام على الجار والمجرور" عليه"؛ لأنه سلام على الحي؛ لأنه جاء في الحديث: **عَنْ** أَبِي تَمِيمَةَ الْهُجَيْمِيِّ، عَنْ أَبِي جُرَيٍّ الْهُجَيْمِيِّ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: (لَا تَقُلْ: عَلَيْكَ السَّلَامُ؛ فَإِنَّ (عَلَيْكَ السَّلَامُ) تَحِيَّةُ الْمَوْتَى)[1].

قال ابن الأثير: "هذا إشارةٌ إلى ما جَرت به عادَتُهم في المَراثي كانوا يُقَدّمون ضمير الميت على الدُّعاء له كقوله:

عَليكَ سلامٌ من أَمِيرٍ وبارَكَتْ ... يَدُ اللّهِ في ذَاك الأدِيمِ المُمَزَّقِ

وكقول الآخر:

عليك سلامُ اللّهِ قيسَ بنَ عاصمٍ ... ورحمتُهُ ما شاءَ أن يترَّحما

وإنما فَعَلُوا ذلك لأن المُسلِّم على القَوم يتوقَّعُ الجواب وأن يُقال له: عليكَ السلامُ، فلما كان الميتُ لا يُتَوقع منه جواب جَعَلوا السلامَ عليه كالجواب.

وقيل: أراد بالموتى كُفَّار الجاهلية، وهذا في الدُّعاء بالخَير والمَدْح، فأما في الشَّرِّ والذَّم فيُقدَّم الضميرُ **كقوله تعالى:** ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾[ص:78]، **وقوله:** ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾[الفتح:6].

---

(1) رواه أحمد(15955)، وأبو داود(5209)، والبيهقي في الشعب(7690)، وابن أبي شيبة(25708)، وصححه الألباني والأرناؤوط.

والسنة لا تَخْتلفُ في تَحِية الأمواتِ والأحياء، ويشهَدُ له الحديث الصحيحُ أنه كان إذا دَخل القبور قال: (سلامٌ عليكم دَار قَومٍ مؤمنين)"[1].

(1) النهاية في غريب الحديث والأثر (2/ 393).

جواب شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَأَجَابَ:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَمَّا الْوَصِيَّةُ فَمَا أَعْلَمُ وَصِيَّةً أَنْفَعَ مِنْ وَصِيَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ لِمَنْ عَقَلَهَا وَاتَّبَعَهَا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾[النساء:131]. وَوَصَّى النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذًا لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: (يَا مُعَاذُ، اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ). وَكَانَ مُعَاذٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ بِمَنْزِلَةٍ عَلِيَّةٍ؛ فَإِنَّهُ قَالَ لَهُ: (يَا مُعَاذُ، وَاَللهِ إِنِّي لَأُحِبّكَ)، وَكَانَ يُرْدِفُهُ وَرَاءَهُ، وَرُوِيَ فِيهِ: (أَنَّهُ أَعْلَمُ الْأُمَّةِ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ)، (وَأَنَّهُ يُحْشَرُ أَمَامَ الْعُلَمَاءِ بِرَتْوَةٍ -أَيْ: بِخُطْوَةٍ-). وَمِنْ فَضْلِهِ: أَنَّهُ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ مُبَلِّغًا عَنْهُ، دَاعِيًا، وَمُفَقِّهًا، وَمُفْتِيًا، وَحَاكِمًا إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ. وَكَانَ يُشَبِّهُهُ بِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وَإِبْرَاهِيمُ إمَامُ النَّاسِ. وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: "إِنَّ مُعَاذًا كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ"؛ تَشْبِيهًا لَهُ بِإِبْرَاهِيمَ. ثُمَّ إِنَّهُ ﷺ وَصَّاهُ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ، فَعُلِمَ أَنَّهَا جَامِعَةٌ. وَهِيَ كَذَلِكَ لِمَنْ عَقَلَهَا مَعَ أَنَّهَا تَفْسِيرُ الْوَصِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ).

قوله: (الْحَمدُ للهِ ربِّ الْعَالمينَ) ابتدأ الجواب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الجملة؛ اقتداء بكتاب الله تعالى الذي افتتح بها، وتأسيًا برسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي كان يفتتح خطبه بها.

وقد تكلمنا عن معنى هذه الجملة في مفتتح عدد من الشروح، فليرجع إليها من شاء.

ومن الجميل في هذا الافتتاح للجواب أنه جاء مختصراً؛ لأن السائل طلب الجواب على قصد الإيماء والاختصار، وسيأتي مثل الاختصار في الجواب من المصنف في عدة مواضع، وهذا يدل على فضل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إجلال السائلين، وصياغة الجواب على ما يحبون؛ إيجازاً أو بسطا.

أنفع وصية:

(أما الْوَصِيَّةُ فَمَا أعلمُ) أما: حَرْفٌ فيه مَعْنى الشَّرطِ والتَّوكيد دائمـًا، والتفصيل غالبًا، **يَدُلّ على الأوَّل:** لزومُ الفاءِ بعدها نحو: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾[البقرة:26]، وهي نَائِبَةٌ عَنْ أَدَاةِ الشَّرطِ وجُمْلَتِهِ، ولهذا تُؤَوَّلُ بـ"مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيء". **ويدل على الثاني:** أَنَّك إذا قصدْتَ توكيد "زيدٌ ذاهبٌ" قلتَ: "أَمَّا زيدٌ فَذَاهِبٌ" أيْ: لا محالة ذاهبٌ. ويَدُلُّ على التَّفْصِيلِ استقراءُ مواقعِها نحو: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ...﴾﴿وَأَمَّا الْغُلامُ﴾﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ...﴾[الكهف:79-82][1].

وقوله المصنف: (فَمَا أعلمُ): من تواضعه في العلم؛ حيث لم يلق الكلام على إطلاقه، بل جعل ذلك حسب علمه؛ إذ قد يعلم غيره أنفع من ذلك، ومع هذا كله فالأمر كما قال الشيخ، كما سيأتي.

---

(1) معجم القواعد العربية (1/ 102).

(**وَصِيَّةً أَنْفَعَ منْ وَصِيَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ لِمَن عقلَهَا واتَّبعَها**) أي: أدركها على حقيقتها، وعمل بمطالبها (﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[النساء:131]) "يقول: ولقد أمرْنا أهلَ الكتاب، وهم أهل التوراة والإنجيل ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾، يقول: وأمرناكم وقلنا لكم ولهم: ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يقول: احذروا الله أن تعصوه وتخالفوا أمره ونهيه"[(1)].

"**والمعنى**: أن الوصية بالتقوى هي سنة الله مع الأمم الماضية، فلستم مخصوصين بهذه الوصية"[(2)].

وجعل الأمر بالتقوى وصية: لأن الوصية قول فيه أمر بشيء نافع جامع لخير كثير؛ فلذلك كان الشأن في الوصية إيجاز القول؛ لأنها يقصد منها وعي السامع، واستحضاره كلمة الوصية في سائر أحواله. والتقوى تجمع الخيرات؛ لأنها امتثال الأوامر واجتناب المناهي؛ ولذلك قالوا: ما تكرر لفظ في القرآن ما تكرر لفظ التقوى، يعنون غير الأعلام، كاسم الجلالة"[(3)].

التقوى لغة: يقال: وَقَيْتُ الشَّيْءَ أَقِيه إِذَا صُنْتَه وسَتَرْتَه عَنِ الأَذى، وَوَقَاهُ اللَّهُ وِقاية- بِالْكَسْرِ- أَي: حَفِظَه، **والتَّوْقِيةُ**: الْكِلَاءَةُ والحِفْظُ، وَرَجُلٌ تَقِيٌّ مِنْ قَوْمٍ أَتْقِياء[(4)].

---

(1) تفسير الطبري (9/ 295).
(2) البحر المحيط في التفسير (4/ 90).
(3) التحرير والتنوير (5/ 220).
(4) لسان العرب (15/ 401).

شرعًا: عرفت التقوى تعريفات متعددة، منها: تعريف طلق بن حبيب:

عن عاصم الأحول قال: وقعت الفتنة، فقال طلق بن حبيب: اتقوا الفتنة بالتقوى، فقال بكر بن عبد الله: أجمل لنا التقوى في يسير، فقال: "التقوى العمل بطاعة الله، على نور من الله، رجاء رحمة الله، والتقوى ترك معاصي الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله"[1].

وقد ذكر شيخ الإسلام هذا التعريف لطلق في عدة مواضع من كتبه[2].

قال ابن القيم عن تعريف طلق: "وهذا أحسن ما قيل في حد التقوى"[3].

قال ابن رجب: "ويدخل في التقوى الكاملة: فعلُ الواجبات، وتركُ المحرمات والشبهات، وربما دَخَلَ فيها بعد ذلك فعلُ المندوبات، وتركُ المكروهات، وهي أعلى درجات التقوى ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[البقرة:1-4]"[4].

إننا حين ننظر في القرآن الكريم نجد أن الله تعالى قد أوصى بالتقوى أصنافًا من خلقه؛ فقد أوصى بها الأولين والآخرين كما في الآية التي ذكرها الشيخ،

---

(1) الزهد الكبير للبيهقي (ص: 351).

(2) مجموع الفتاوى (7/ 163) (20/ 132) (28/ 34)، منهاج السنة النبوية (4/ 529).

(3) الرسالة التبوكية = زاد المهاجر إلى ربه (ص: 13).

(4) جامع العلوم والحكم (2/ 470).

واختياره لها كان دقيقًا، فهي شاملة لجميع الأصناف.

كما أوصى تعالى بها الناس فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[الحج:1].

وأوصى بها المؤمنين فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[الأحزاب:70].

وأوصى بها رسوله الأمين عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[الأحزاب:1].

(**ووصَّى النَّبِيُّ ﷺ معاذًا لمَّا بَعثَه إلى الْيمنِ فَقَالَ: "يَا معَاذُ، اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كنتَ[1]، وَأتبعِ السَّيئَةَ الْحَسَنَةَ تَمحُها، وخَالقِ النَّاسَ بِخُلقٍ حَسَنٍ"[2]**).

والكلام عن هذا الحديث العظيم من جوانب:

الأول: جاء في أول هذا الحديث في مصادره أن معاذاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "أوصني". **وعند البيهقي** جاء بلفظ: "لَمَّا بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ مُعَاذٌ: فَإِذَا رَكْبُ ابْنِ صَفْوَانَ نَحْوَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْتُ:

(1) **حيثما**: ظرف مكان مبني على الضم في محل نصب، و"ما" زائدة، و"كنت": تامة، أي: رافِقْ تقوى الله في كل مكان توجد فيه.

(2) رواه أحمد(22059)، والبيهقي في شعب الإيمان(7662)، والبزار(4022)، والطبراني في الصغير(530) والأوسط(3779) والكبير(296)، وابن أبي شيبة(25324)، وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (4/ 376)، (5)، وحسنه الترمذي والألباني والأرناؤوط.

يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَرَى هَؤُلَاءِ إِلَّا سَائِلُوكَ عَنِّي، فَأَوْصِنِي وَاجْمَعْ".

وفي هذا الطلب من معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عند سفره فائدة وهي: حاجة المسافر للوصية بالتقوى، واستحباب وصيته والدعاء له بذلك، واستحباب طلبه الوصية بالخير ممن يظن به النصح.

وقد جاء عَنْ أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُرِيدُ سَفَرًا فَزَوِّدْنِي. قَالَ: (زَوَّدَكَ اللهُ التَّقْوَى)، قَالَ: زِدْنِي، قَالَ: (وَغَفَرَ ذَنْبَكَ) قَالَ: زِدْنِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، قَالَ: (وَيَسَّرَ لَكَ الخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ)[1].

الثاني: للحديث شاهد من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُرِيدُ سَفَرًا، فَأَوْصِنِي[2].

الثالث: أن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ كان من أجل وصاياه: الوصية بالتقوى، وجاء ذلك عنه في مناسبات عدة، فمن ذلك: عن عقيل بن مدرك، يرفعه إلى أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رجلاً أتاه، وقال: أوصني يا أبا سعيد، فقال له أبو سعيد:

(1) رواه الترمذي(3444)، والدارمي(2713)، وابن خزيمة (2532)، وابن السني في عمل اليوم والليلة(502)، والبزار(6933)، والخرائطي في مكارم الأخلاق(808)، والروياني في مسنده (1387)، والضياء في المختارة(1598)، والحاكم(2477)، والبيهقي في الدعوات الكبير (456)، والطبراني في الدعاء(817)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (1/ 669).

(2) رواه أحمد(21403)، والترمذي(1987)، والدارمي(2833)، والبيهقي في الشعب (7663)، والبزار(4022)، وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (4/ 378)، والحاكم (178)، **وقال:** "«هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» ووافقه الذهبي.

سألتَ عما سألتُ عنه من قبلك، قال: (أوصيك بتقوى الله؛ فإنها رأس كل شيء)[1].

الرابع: جاءت الوصية بالتقوى بكثرة عن أئمة السلف؛ فمن ذلك: عن عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، أنه كَتَبَ إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ: "أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ، وَلُزُومِ طَاعَتِهِ؛ فَإِنَّ بِتَقْوَى اللهِ نَجَا أَوْلِيَاءُ اللهِ مِنْ سَخَطِهِ، وَبِهَا تَحَقَّقَ لَهُمْ وِلَايتُهُ، وَبِهَا رَافَقُوا أَنْبِيَاءهُمْ، وَبِهَا نَضِرَتْ وُجُوهُهُمْ، وَبِهَا نَظَرُوا إِلَى خَالِقِهِمْ، وَهِيَ عِصْمَةٌ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْفِتَنِ، وَالْمَخْرَجُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَ"[2].

فضل معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

(وَكَانَ معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من النَّبِي ﷺ بِمَنْزِلَةٍ علِيَّةٍ؛ فَإِنَّهُ قَالَ لَهُ: (يَا معَاذ، وَاللهِ إني لَأحبك)[3] وَكَانَ يُردِفُه وَرَاءَه[4] أي: يركبه خلفه (ورُوي فِيهِ: (أَنه أعلمُ الْأُمةِ

---

(1) رواه الطبراني في الكبير(1651) ومكارم الأخلاق(1)، والشجري في ترتيب الأمالي(372)، وابن المبارك في الزهد(840)، **وقال الألباني**: صحيح لغيره. صحيح الترغيب والترهيب (2/ 536)

(2) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (5/ 278).

(3) رواه أحمد(22119)، والبخاري في الأدب المفرد(690)، وأبو داود(1522)، والنسائي (1304)، والبيهقي في الصغرى(18)، والطبراني في الكبير(110)، وابن حبان(2020)، وابن خزيمة (751)، والبزار(2661)، والحاكم(1010) **وقال**: "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ"، **وقال النووي**: "رَوَاهُ أَبُو دَاوُد، وَالنَّسَائِيّ بِإِسْنَاد صَحِيح"، خلاصة الأحكام (1/ 468).

(4) **عَنْ** مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَخِرَةُ الرَّحْلِ..." رواه البخاري(5967)، ومسلم(30).

بالحلالِ وَالْحرَامِ)[1] وَأَنه (يحْشر أَمَام الْعلمَاء بِرَتْوةٍ –أَي: بخُطوةٍ–[2]، وَمن فَضله:

(1) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللهُ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ)، رواه أحمد(12904)، والترمذي(3790)، والنسائي في الكبرى(8229)، وابن ماجه(154)، وابن حبان(7131)، وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 122)، والطبراني في الكبير(556)، والحاكم(5784)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار(810)، وسعيد بن منصور(4)، وأبو يعلى(5763)، وأبو داود الطيالسي (2210)، والبزار(6786)، والبيهقي في معرفة السنن(12515) والكبرى (12186)، والضياء في المختارة(2242)، وصححه الألباني، والأرناؤوط.

(2) عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ أَمَامَ الْعُلَمَاءِ بِرَتْوَةٍ) رواه الطبراني في الكبير(41)، وزاد: قَالَ ابْنُ بُكَيْرٍ: "وَالرَّتْوَةُ: الْمَنْزِلَةُ"، وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 228)، **قال الهيثمي:** "رواه الطبراني مرسلاً، وفيه محمد بن عبد الله بن أزهر الأنصاري ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح"، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (9/ 311)، وصححه الألباني عن محمد بن كعب مرسلاً، صحيح الجامع الصغير وزيادته (2/ 1023). وقد جاء عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: " فَإِنْ أَدْرَكَنِي أَجَلِي، وَقَدْ تُوُفِّيَ أَبُو عُبَيْدَةَ، اسْتَخْلَفْتُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، فَإِنْ سَأَلَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ: لِمَ اسْتَخْلَفْتَهُ؟ قُلْتُ: سَمِعْتُ رَسُولَكَ ﷺ يَقُولُ: (إِنَّهُ يُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ الْعُلَمَاءِ نَبْذَةً) رواه أحمد(108)، وحسنه الأرناؤوط.

وجاء في الطبقات الكبرى (3/ 443) بلفظ: "قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: لَوْ أَدْرَكْتُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ فَاسْتَخْلَفْتُهُ فَسَأَلَنِي رَبِّي عَنْهُ لَقُلْتُ: يَا رَبِّي، سَمِعْتُ نَبِيَّكَ يَقُولُ: (إِنَّ الْعُلَمَاءَ إِذَا اجْتَمَعُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَانَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ قَذْفَةَ حَجَرٍ). **قال الهروي:** "(برتوة) أي: بدرجة، ومنزلة، ويقال: بخطوة. الغريبين في القرآن والحديث (3/ 713).

وقال ابن الأثير: "(بِرَتْوَةٍ) أَيْ: برَمية سَهم، وَقِيلَ: بِمِيلٍ، وَقِيلَ: مَدَى الْبَصَرِ"، النهاية في غريب الحديث والأثر (2/ 195). وقوله: (نبذة) معناه: " أنه يتقدم العلماء مبلغ نبذة، أي: رمية بسهم أو نحوه، أو يتقدمهم وحده"، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (22/ 352).

أَنه بَعثه النَّبِي ص مُبلِّغًا عَنهُ دَاعيًا، ومفقِّهًا ومُفتيًا، وحاكمًا إلى أهل الْيمن[1]) قال ابن القيم: "وبعث أبا موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل إلى اليمن عند انصرافه من تبوك. وقيل: بل سنة عشر من ربيع الأول، داعيين إلى الإسلام"[2].

عَنْ عَاصِمِ بْنِ حُمَيْدٍ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ خَرَجَ مَعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُوصِيهِ، وَمُعَاذٌ رَاكِبٌ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْشِي تَحْتَ رَاحِلَتِهِ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: (يَا مُعَاذُ، إِنَّكَ عَسَى أَنْ لَا تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَذَا، وَلَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي هَذَا، وَقَبْرِي). فَبَكَى مُعَاذٌ جَشَعًا[3] لِفِرَاقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ[4].

(وَكَانَ يُشبِّهُهُ بِإِبراهيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ) لم أجد نصًا مرفوعًا -حسب علمي- أن رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يشبه معاذاً بإبراهيم، والله أعلم.

(وَإِبْرَاهِيمُ إمامُ النَّاسِ) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:120].

---

(1) صحيح البخاري(4341)، صحيح مسلم(1733).

(2) زاد المعاد في هدي خير العباد (1/ 119).

(3) **الجَشَعُ**: الجَزَعُ لِفِرَاق الإلْف. النهاية في غريب الحديث والأثر (1/ 274).

(4) رواه أحمد(22052)، وابن حبان(647)، والطبراني في الكبير(242)، والبيهقي في الكبرى (20151) وقال عقبه: السنن الكبرى للبيهقي (10/ 148)، **قال الهيثمي**: "رواه أحمد بإسنادين، **وقال في أحدهما**: عن عاصم بن حميد أن معاذاً، وقال وفيها: قال: " «لا تبك يا معاذ، البكاء - أو إن البكاء - من الشيطان» ". ورجال الإسنادين رجال الصحيح غير راشد بن سعد، وعاصم بن حميد، وهما ثقتان"، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (9/ 22). وصححه الأرناؤوط.

"عن قتادة، قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ قال: "كان إمام هُدًى، مطيعًا، تُتَّبع سُنَّته ومِلَّته"[1] (وَكَانَ ابْن مَسْعُود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يَقُول: "إن معَاذًا كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لله حَنِيفًا وَلم يَك من الْمُشْركين؛ تَشْبِيهًا لَهُ بإبراهيمَ) عَنْ بَيَانٍ عَنْ عَامِرٍ قَالَ: "قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ إِنَّ مُعَاذًا كان أُمَّةً قانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، نُسِّيتَهَا؟ قَالَ: لا، وَلَكِنَّا كُنَّا نُشَبِّهُهُ بِإِبْرَاهِيمَ. وَالأَمَةُ: الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ، وَالْقَانِتُ: الْمُطِيعُ"[2].

وعَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ نَاجِيَةَ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: "إِنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ كَانَ أُمَّةً لِلَّهِ قَانِتًا حَنِيفًا، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ رَجُلٌ: مَا نَرَاكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ تُحَدِّثُنَا بِشَيْءٍ مَا تَدْرِي مَا هُوَ، يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النحل: 120]، وَتَقُولُ أَنْتَ: إِنَّ مُعَاذًا! قَالَ: مَا يَزَالُونَ يَسْمَعُونَ مِنِّي حَقًّا فَيُنْكِرُونَهُ، إِنَّ الْقَانِتَ: الْمُطِيعُ لِلَّهِ، وَكَانَ مُعَاذٌ كَذَلِكَ"[3].

قال ابن حجر: "وقدم من اليمن في خلافة أبي بكر، وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة سبع عشرة أو التي بعدها، وهو قول الأكثر. وعاش أربعًا وثلاثين سنة. وقيل غير ذلك"[4].

---

(1) تفسير الطبري (17/ 318).

(2) الطبقات الكبرى (2/ 265).

(3) المعجم الكبير للطبراني (10/ 60).

(4) الإصابة في تمييز الصحابة (6/ 109).

عظمة هذه الوصية:

(ثمَّ إنَّه ﷺ وصَّاه هَذِه الْوَصِيَّةَ فَعُلِمَ أَنَّهَا جَامِعَةٌ) لخيري الدنيا والآخرة.

قال ابن رجب: "وهذه وصية جامعة لخصال البر كلها. ولأبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يريد المرء أن تؤتى مُناه ... ويأبى اللهُ إلا ما أرادا

يقول المرءُ فائدتي ومالي ... وتقوى اللهِ أفضلُ ما استفادا"[1]

وقال أيضًا: "فهذه الوصية وصيةٌ عظيمةٌ جامعة لحقوق الله، وحقوق عباده؛ فإنَّ حقَّ الله على عباده أنْ يتقوه حقَّ تقاته"[2].

وقال المصنف: " وليست كلمة أجمع لما أمر الله من كلمة التقوى"[3].

(وَهِي كَذَلِك لمن عقلَهَا) أي: أدركها على حقيقتها؛ لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جمع "بين تقوى الله وحسن الخلق؛ لأن تقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو إلى محبته"[4].

(مَعَ أَنَّهَا تَفْسِيرُ الْوَصِيَّةِ القرآنية) كما تقدم بيان ذلك.

---

(1) لطائف المعارف لابن رجب (ص: 235).

(2) جامع العلوم والحكم (2/ 468).

(3) المستدرك على مجموع الفتاوى (3/ 128).

(4) الفوائد لابن القيم (ص: 54).

جمع الوصية النبوية بين حق الله وحق عباده:

(أَمَا بَيَانُ جَمْعِهَا فَلِأَنَّ الْعَبْدَ عَلَيْهِ حَقَّانِ: حَقٌّ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَحَقٌّ لِعِبَادِهِ. ثُمَّ الْحَقُّ الَّذِي عَلَيْهِ لَا بُدَّ أَنْ يُخِلَّ بِبَعْضِهِ أَحْيَانًا: إِمَّا بِتَرْكِ مَأْمُورٍ بِهِ، أَوْ فِعْلِ مَنْهِيٍّ عَنْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْت). وَهَذِهِ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ، وَفِي قَوْلِهِ: (حَيْثُمَا كُنْت) تَحْقِيقٌ لِحَاجَتِهِ إِلَى التَّقْوَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ).

(أَمَّا بَيَانُ جمعِهَا: فَلِأَنَّ العَبْدَ عَلَيْهِ حقَّانِ: حقٌّ لله عَزَّوَجَلَّ) وهو عبادته وحده لا شريك له، عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، فَقَالَ: (يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟)، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...)[1] (وَحقٌّ لِعِبَادِهِ) وهو حقان: حق واجب وهو: أن يؤدي المرء ما وجب عليه نحوهم، وأن يكف أذاه عنهم، وحق مستحب وهو: أن يبذل لهم المعروف من خُلقه ويده، وما أنعم الله عليه به

شرح الجملة الأولى من الحديث:

(ثمَّ الْحقُّ الَّذِي عَلَيْهِ لَا بُدَّ أَن يُخِلَّ بِبَعْضِه أَحْيَانًا؛ إما بترك مَأْمُورٍ بِهِ، أَو فعلِ مَنْهِيٍّ عَنهُ، فَقَالَ النَّبِي ﷺ: (اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كنتَ) وَهَذِه كلمة جَامِعَةٌ. وَفِي قَوْله: (حَيْثُمَا كنتَ) تَحْقِيقٌ لِحَاجَتِهِ إلى التَّقْوَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَة) يعني: لما كان العبد -مهما لزم الحق- قد يحصل عنده ضعف أو قصور في مكان دون

---

(1) رواه البخاري(2856)، ومسلم(30).

آخر، أو حال دون أخرى؛ فقد أمره بلزوم تقوى الله على كل حال؛ فإن بعض الناس قد تستقيم حاله في الحضر دون السفر، وفي العلانية دون السر؛ فلذلك كان محتاجًا إلى هذه الوصية ليستقيم أمره في كل ظرف.

قال الصنعاني: "(اتق الله حيثما كنت) في أي مكان نزلت، وأي جهة حللت، فلا يخص بالتقوى مكانًا دون مكان؛ لأنك بمرأى منه تعالى، ولأن الأماكن بالنسبة إلى علمه بعملك سواء"(1).

كتب ابنُ السَّماك الواعظ إلى أخٍ له: "أما بعدُ، أُوصيكَ بتقوى الله الذي هو نَجِيُّكَ في سريرتك، ورقيبُك في علانيتك، فاجعلِ الله من بالك على كُلِّ حالك في ليلك ونهارك، وخفِ الله بقدر قُربه منك، وقُدرته عليك، واعلم أنَّك بعينه ليس تَخرُجُ من سلطانه إلى سلطان غيره ولا من ملكه إلى مُلك غيره، فليعظم منه حَذَرُك، وليكثر منه وَجَلُكَ والسلام"(2).

شرح الجملة الثانية من الحديث:

(ثُمَّ قَالَ: (وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا)؛ فَإِنَّ الطَّبِيبَ متى تَنَاوَلَ الْمَرِيضُ شَيْئًا مُضِرًّا أَمَرَهُ بِمَا يُصْلِحُهُ. وَالذَّنْبُ لِلْعَبْدِ كَأَنَّهُ أَمْرٌ حَتْمٌ. فَالْكَيِّسُ هُوَ الَّذِي لَا يَزَالُ يَأْتِي مِنْ الْحَسَنَاتِ بِمَا يَمْحُو السَّيِّئَاتِ. وَإِنَّمَا قَدَّمَ فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ" السَّيِّئَةَ" - وَإِنْ كَانَتْ مَفْعُولَةً - لِأَنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا مَحْوُهَا، لَا فِعْلُ الْحَسَنَةِ، فَصَارَ كَقَوْلِهِ فِي بَوْلِ الْأَعْرَابِيِّ: (صُبُّوا عَلَيْهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ).

---

(1) التنوير شرح الجامع الصغير (1/ 314).

(2) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 206).

(ثُمَّ قَالَ: وَأَتبعِ) وألحق (السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ) السيئة: المعصية، والحسنة: الطاعة، ويمكن أن تكون الكلمتان وصفين لموصوفين محذوفين، والتقدير: وألحق الفعلة السيئة الفعلة الحسنة، والحسنة منصوبة ب أتبع، وكذلك السيئة، ويمكن أيضًا أن تكون الحسنة منصوبة بنزع الخافض، والتقدير: وأتبع السيئة بالحسنة؛ كقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[المؤمنون:96]، وقوله تعالى:﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[القصص:54]، (تمْحُها) جواب الطلب مجزوم، أي: تذهِب أثرها؛ من كتب الإثم، والعقوبات المعجلة.

وقوله: (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) قيل: "يحتمل معنيين؛ أحدهما: أنه إذا فعل معصية يحدث توبة، أو طاعة، وإذا أساء إلى شخص أحسن إليه[1]، وفي المعنى الأول: قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[هود:114].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وَإِنِّي أَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّهَا، فَأَنَا هَذَا، فَاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ سَتَرَكَ اللهُ، لَوْ سَتَرْتَ نَفْسَكَ، قَالَ: فَلَمْ يَرُدَّ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا، فَقَامَ الرَّجُلُ فَانْطَلَقَ، فَأَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا دَعَاهُ، وَتَلَا عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ

(1) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (6/ 2416).

الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[هود: 114])، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا نَبِيَّ اللهِ، هَذَا لَهُ خَاصَّةً؟ قَالَ: (بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً)(1).

ولعل المراد بـ"السيئة" في الحديث، و"السيئات" في الآية: الصغيرة، والصغائر؛ لأنها هي التي تصلح لمحوها بالحسنة، وأما الكبيرة فمحوها بالتوبة. **قال المراغي:** "﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: إن الأعمال الحسنة تكفر السيئات، وتذهب المؤاخذة عنها؛ لما فيها من تزكية النفس وإصلاحها، فتمحو منها تأثير الأعمال السيئة في النفس وإفسادها لها، والمراد بالحسنات: ما يعم الأعمال الصالحة جميعًا، حتى ما كان منها تركًا لسيئة كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾[النساء:31].

وجاء في الحديث الشريف: (وأتبع السيئة الحسنة تمحها)، والمراد بالسيئات: الصغائر؛ لأن الكبائر لا يكفرها إلا التوبة؛ بدليل ما رواه مسلم: (الصلوات الخمس كفارة لما بينهما، ما اجتنبت الكبائر)"(2).

وقال المُناوي: "قال القاضي: صغار الذنوب مكفرات بما يتبعها من الحسنات. وكذا ما خفي من الكبائر؛ لعموم قوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، **وقوله** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) أما ما ظهر منها

---

(1) رواه مسلم(2763).

(2) تفسير المراغي (12/ 95).

وتحقق عند الحاكم فلا يسقط إلا بالتوبة. اهـ"[1].

(فَإِنَّ الطَّبِيب مَتى تناولَ الْمَرِيضُ شَيْئًا مُضِرًّاً أمرَه بِمَا يُصلِحُه) حتى يذهب مرضه، ويعيد له صحته؛ لأن منطق التخصص يأمر بذلك (والذنب للْعَبد كَأَنَّهُ أَمرٌ حتمٌ) أي: لازم وواجب، ولولا ذلك لكان مَلكًا، ومصداق وقوع الذنب من كل من بني آدم: ما جاء عَنْ أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)[2].

وحديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عن الله عَزَّوَجَلَّ وفيه: (...يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ)[3].

قال المغربي عند هذا الحديث: "الحديث فيه دلالة على أن بني آدم كل واحد لا يخلو عن خطيئة، وظاهره وفي حق الأنبياء عليهم السلام. وقد ذهب إلى هذا الجمهور من العلماء؛ فإنه يجوز وقوع الخطيئة من النبي، وتكون

---

(1) فيض القدير (1/ 406).

(2) رواه الترمذي(2499)، وابن ماجه(4251)، والدارمي(2769)، والبيهقي في الشعب (6725)، وأبو يعلى(2922)، والبزار(7236)، والروياني(1366)، وابن أبي شيبة (34216)، والحاكم(7617)، وقال ابن حجر: "وَسَنَدُهُ قَوِيٌّ"، بلوغ المرام من أدلة الأحكام (ص: 542).

(3) رواه مسلم(2577).

صغيرة في حقه مغفورة، ولا يجوز عليهم الكبائر، ولا صغائر الخسة"[1].

وقال المصنف في موضع آخر في المعنى نفسه: "وَلَيْسَ فِي الْمُؤمنِينَ إِلَّا من لَهُ ذَنْب؛ من ترك مَأْمُور، أَو فعل مَحْظُور؛ كَمَا قَالَ ﷺ: (كل بني آدم خطاء، وَخير الْخَطَّائِينَ التوابون"[2].

(فالكيِّسُ) الكَيْسُ: الخِفَّةُ والتَّوَقُّدُ، وَهُوَ خِلافُ الحُمْقِ، **والكَيْسُ**: العقْلُ والفِطْنَةُ والفِقْهُ، وَقد كاسَ كيساً فهُو كَيْسٌ وكَيِّسٌ[3] **(هُوَ الَّذِي لَا يزَالُ يَأْتِي من الْحَسَنَاتِ بِمَا يمحو السَّيِّئَاتِ) يعني**: العاقل حقًا يأمره عقله الحصيف بكثرة مباشرة الأعمال الصالحة التي تكفر الذنوب؛ حتى يسلم من عواقبها، وقد قيل: "الْعَاقِلُ مَنْ رَاقَبَ الْعَوَاقِبَ ، وَالْجَاهِلُ مَنْ مَضَى قُدُمًا وَلَمْ يُرَاقِبْ"[4] **(وَإِنَّمَا قدَّمَ فِي لفظِ الحَدِيثِ السَّيئَة وَإِن كَانَت مفعولةً)** وحق المفعول التأخير **(لِأَن الْمَقْصُود هُنَا محوها، لَا فعلُ الْحَسَنَةِ) لعل الشيخ يريد**: أن فعل الحسنة بعد السيئة كان لغرض تكفيرها، وليس لغرض فعل الحسنة لذاتها، ومثل على ذلك بمثال يقرب المسألة فقال: **(فَصَارَ كَقَوْلِه)** ﷺ **(فِي بَوْل الأعرابي: "صُبُّوا عَلَيْهِ ذَنُوبًا) الذَّنوب**: الدلو الملآن **(مِنْ مَاءٍ"[5])** يمحو أثر البول، وليس لصب ذلك

---

(1) البدر التمام شرح بلوغ المرام (10/ 253).

(2) جامع الرسائل لابن تيمية (1/ 258).

(3) تاج العروس (16/ 460).

(4) التبصرة لابن الجوزي (1/ 327).

(5) الحديث أصله في الصحيحين؛ ففي صحيح البخاري(6025) جاء بلفظ: (ثُمَّ دَعَا بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ =

الماء غرض آخر غير إزالة لون البول ورائحته، فكذلك هذه الحسنة الغرضُ من فعلها أن تكون مكفِّرة لذلك الذنب، ويحسن ذلك أن تكون من جنس تلك السيئة-كما سينبه الشيخ في آتي كلامه-، وكذلك البول لما كان سائلاً ناسب أن يكون ماحيه أيضًا سائلاً.

(وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْحَسَنَاتُ مِنْ جِنْسِ السَّيِّئَاتِ؛ فَإِنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْمَحْوِ. وَالذُّنُوبُ يَزُولُ مُوجِبُهَا بِأَشْيَاءَ: أَحَدُهَا: التَّوْبَةُ. وَالثَّانِي: الِاسْتِغْفَارُ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ يَغْفِرُ لَهُ إجَابَةً لِدُعَائِهِ وَإِنْ لَمْ يَتُبْ، فَإِذَا اجْتَمَعَتِ التَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ فَهُوَ الْكَمَالُ. الثَّالِثُ: الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الْمُكَفِّرَةُ: إِمَّا" الْكَفَّارَاتُ الْمُقَدَّرَةُ" كَمَا يُكَفِّرُ الْمُجَامِعُ فِي رَمَضَانَ، وَالْمُظَاهِرُ، وَالْمُرْتَكِبُ لِبَعْضِ مَحْظُورَاتِ الْحَجِّ، أَوْ تَارِكُ بَعْضِ وَاجِبَاتِهِ، أَوْ قَاتِلُ الصَّيْدِ؛ بِالْكَفَّارَاتِ الْمُقَدَّرَةِ، وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَجْنَاسٍ: هَدْيٌ، وَعِتْقٌ، وَصَدَقَةٌ، وَصِيَامٌ. وَإِمَّا"الْكَفَّارَاتُ الْمُطْلَقَةُ" كَمَا قَالَ حُذَيْفَةُ لِعُمَرَ: (فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ؛ يُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ).

وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْقُرْآنُ وَالْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ فِي التَّكْفِيرِ بِالصَّلَوَاتِ

= فَصُبَّ عَلَيْهِ) وفي(220) بلفظ:(دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ)، وغير ذلك. وفي صحيح مسلم(284) بلفظ: (فَلَمَّا فَرَغَ دَعَا بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَصَبَّهُ عَلَيْهِ)، وفي (285) بلفظ: (فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ).

وأما اللفظ الذي ذكره الشيخ فقد جاء بلفظ: (صُبُّوا عَلَيْهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ) عند البيهقي في السنن الكبرى(4240) وعند أبي داود(380).

الْخَمْسِ، وَالْجُمْعَةِ، وَالصِّيَامِ، وَالْحَجِّ، وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا: مَنْ قَالَ كَذَا، وَعَمِلَ كَذَا، غُفِرَ لَهُ، أَوْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ لِمَنْ تَلَقَّاهَا مِنَ السُّنَنِ، خُصُوصًا مَا صُنِّفَ فِي فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ).

الحرص على أن تكون الحسنات الماحيات من جنس السيئات:

قوله: (وَيَنْبَغِي) يأتي الفعل:" ينبغي" إذا لم يسبق بنفي بمعنى: يحسن، ويليق، ويجوز، وإذا نفي فبضد ذلك.

"**وقولهم:** يَنْبَغي مطاوع بغى، فإذا قيل: ينبغي أن يكون كذا، فيقال على وجهين: أحدهما: ما يكون مسخّرًا للفعل، نحو: النار ينبغي أن تحرق الثوب، والثاني: على معنى الاستئهال، نحو: فلان ينبغي أن يعطى لكرمه، **وقوله تعالى:** ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾[يس:69]، على الأول؛ فإنّ معناه: لا يتسخّر ولا يتسهّل له؛ ألا ترى أنّ لسانه لم يكن يجري به، **وقوله تعالى:** ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾[ص:35]"[1].

ومن ناحية صرفية: اختلف أهل العلم في الفعل" ينبغي" هل له ماض، مع كونهم لم يذكروا له أمراً:

قال ابن مالك: "فصل، منعت التصرف أفعال... وينبغي" و"يهيط" ..."[2].

---

(1) المفردات في غريب القرآن (ص: 137).

(2) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد (ص: 246).

لكن رُدَّ على ابن مالك هذا؛ بأن لهذا الفعل ماضيًا؛ قال السمين الحلبي: "و﴿يَنبَغِي﴾: مضارع انْبَغَى. وانْبَغَى مطاوعٌ لبَغَى، أي: طَلَبَ، و﴿أَن يَتَّخِذَ﴾ فاعلُه. وقد عَدَّ ابن مالك «يَنْبَغي» في الأفعالِ التي لا تَتَصَرَّف، وهو مردودٌ عليه؛ فإنه قد سُمِعَ فيه في الماضي قالوا: انْبَغَى"(1).

وقال ناظر الجيش: "والسابع: «ينبغي»: قال الشيخ [يقصد أبا حيان]: «ذكر المصنف ينبغي في ما لا يتصرف من الأفعال، وقد نقل أنه يقال: انبغى، ذكر ذلك ابن فارس في «المجمل»، وقال: هو من الأفعال المطاوعة، تقول: بغيته فانبغى، كما تقول: كسرته فانكسر» انتهى. ولا شك أن «انبغى» إن ثبت سماعه فهو في غاية الندور؛ فلهذا لم يعتد به المصنف"(2).

وقال الخليل: "وتقول: لا ينبغي لك أن تَفْعلَ كذا، وما انبغى لك، في الماضي، أي: ما ينبغي"(3).

وقال الحموي: "وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا مَعْنَاه: يُنْدَبُ نَدْبًا مُؤَكَّدًا لَا يَحْسُنُ تَرْكُهُ. وَاسْتِعْمَالُ مَاضِيه مَهْجُورٌ، وَقَدْ عَدُّوا يَنْبَغِي مِنْ الْأَفْعَالِ الَّتِي لَا تَتَصَرَّفُ، فَلَا يُقَالُ: انْبَغَى. وَقِيلَ فِي تَوْجِيهِهِ: إنَّ انْبَغَى مُطَاوِعُ بَغَى، وَلَا يُسْتَعْمَلُ انْفَعَلَ فِي الْمُطَاوَعَةِ إلَّا إذَا كَانَ فِيهِ عِلَاجٌ وَانْفِعَالٌ مِثْلُ: كَسَرْتُهُ فَانْكَسَرَ، وَكَمَا لَا يُقَالُ:

(1) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (7/ 650).

(2) تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد (9/ 4528).

(3) العين (4/ 453).

طَلَبْتُهُ فَانْطَلَبَ، وَقَصَدْتُهُ فَانْقَصَدَ، لَا يُقَالُ: بَغَيْتُهُ فَانْبَغَى؛ لِأَنَّهُ لَا عِلَاجَ فِيهِ، وَأَجَازَهُ بَعْضُهُمْ. وَحُكِيَ عَنْ الْكِسَائِيِّ أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ الْعَرَبِ: وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا أَيْ: مَا يَسْتَقِيمُ، أَوْ مَا يَحْسُنُ"(1).

(أَنْ تكونَ الْحَسَنَاتُ مِنْ جنسِ السَّيِّئَاتِ؛ فَإِنَّهُ أبلغُ فِي المحوِ) يعني: يحسن أن تكون تلك الحسنات الماحية للسيئات من نوع السيئات بمعنى من بابها وموضوعها؛ فإن ذلك أحسن أثراً في محو أثر السيئة.

وهذا الذي ذكره المصنف قد ذكره بعض العلماء قبله؛ كعبد القادر الجيلاني، وذكره كذلك معاصر المصنف: الطيبي.

قال الجيلاني: "ويطلب لكل معصية حسنة تناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات؛ أخذًا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114]، **ومن قول النبي ﷺ**: (اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها)؛ فتكفير كل سيئة بحسنة من جنسها بما تقارب أن تكون كفارة له دون غيره في التشبيه؛ فتكفير شرب الخمر بالتصدق بكل شراب حلال هو أحب إليه، وأطيب عنده، وسماع الملاهي بسماع القرآن، وأحاديث رسول الله ﷺ، وحكايات الصالحين، وتكفير القعود في المسجد جنبًا بالاعتكاف فيه من

(1) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (1/ 57). وينظر في المسألة أيضًا: مقاييس اللغة (1/ 271)، لسان العرب (14/ 77)، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (1/ 587)، تحرير ألفاظ التنبيه (ص: 126)، تاج العروس (37/ 181)، التحرير والتنوير (16/ 172).

الاشتغال بالعبادة، وتكفير مس المصحف محدثًا بإكرام المصحف، وكثرة قراءة القرآن منه، وكثرة تلقيه على الطهارة، والاعتبار بما فيه، والاتعاظ، واحترامه والعمل به، وبأن يكتب مصحفًا ويجعله وقفًا على المسلمين ليقرؤوا فيه.

وأما مظالم العباد، ففيها أيضًا معصية وجناية على حق الله تعالى؛ فإن الله تعالى نهى عن الظلم للعباد، كما نهى عن الزنا وشرب الخمر والربا، فما يتعلق من ذلك بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر، وترك مثله في ثاني الحال، والإتيان بالحسنات لتكفر عنه، فتكفير إيذائه للناس بالإحسان إليهم، والدعاء لهم، فإن كان المؤذى ميتًا فبالترحم عليه والإحسان إلى ولده وورثته إذا كانت الأذية باللسان أو الضرب، وتكفير غصب أموالهم في حق الله تعالى بالتصدق بما يملكه من الحلال، وإن كانت الأذية في الأعراض مثل إن اغتابهم، ومشى بينهم بالنميمة، وقدح فيهم، فتكفير ذلك بالثناء عليهم إن كانوا من أهل الدين والسنة، وإظهار ما يعرف فيهم من خصال الخير في أقرانه وأمثاله في المحافل والمجامع..."[1].

وقال الطيبي: "العبد لا يستغني في حال من الأحوال عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثار تلك السيئات؛ فسماع الملاهي يكفر بسماع القرآن، وبمجالس الذكر، وشرب الخمر يكفر بالتصدق بكل شراب حلال. وعلى هذا فقس؛ لأن المرض يعالج بضده، والمتضادات هي المتناسبات!

(1) الغنية لطالبي طريق الحق (1/ 241).

فلذلك ينبغي أن يمحو كل سيئة بحسنة من جنسها؛ لكي تضادها، فالبياض يزال بالسواد لا بغيره، وحب الدنيا أثر السرور بها في القلب، فلا جرم كفارته كل أذى يصيب المسلم من الهم والغم"[1].

وهكذا يقال في سائر المعاصي؛ فتكفير عصيان الله في الفروج يكفر بالإعانة على تزويج من يحتاجون العفة بالزواج من العزاب والعوانس والأرامل، وتكفير المعصية بالنظر إلى الحرام في الجوال بتسخير ذلك الجوال في نشر الخير، والدعوة إلى العفاف، وإغلاق صفحات الرذيلة، ونحو هذا.

أمور تزيل موجبات الذنوب:

(والذُنُوبُ يَزُولُ مُوجبهَا) لزومها **(بِأَشْيَاء: أَحدهَا: التَّوْبَةُ)** **التوبة** "هي: ترك الذنب؛ لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالأعمال بالإعادة[2].

وقال الجرجاني: التوبة: الرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب. والتوبة النصوح: هي توثيق بالعزم على ألا يعود لمثله، قال ابن عباس، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: التوبة النصوح: الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع بالبدن، والإضمار على ألا يعود. وقيل: التوبة النصوح: ألا يبقي على

---

(1) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (10/ 3235).

(2) المفردات في غريب القرآن (ص: 169).

عمله أثرًا من المعصية سرًّا وجهرًا، وقيل: هي التي تورث صاحبها الفلاح عاجلًا وآجلًا[1].

وقد دل على تكفير الذنوب بالتوبة كتاب الله تعالى، وسنة رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ **قال تعالى:** ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:17]، **وقال:** ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[المائدة:39]، وقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[طه:82].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ)[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ □ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ)[3].

وقد حث العلماء على تكفير الخطايا بالتوبة؛ قال عون بن عبد الله: "داووا

---

(1) التعريفات (ص: 70).

(2) رواه ابن ماجه(4250)، والبيهقي في الكبرى(20561)، والطبراني في الكبير(10281)، والقضاعي(108)، والشجري في ترتيب الأمالي(893)، وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (4/ 210)، وحسنه الألباني.

(3) رواه مسلم(2703).

الذنوب بالتوبة، ولرب تائب دعته توبته إلى الجنة حتى أوفدته عليها"[1].

غير أن التوبة لا تكون مقبولة إلا بشروط؛ **قال النووي**: "قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب؛ فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي **فلها ثلاثة شروط**:

أحدها: أن يقلع عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبدا.

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه، وإن كانت حد قذف ونحوه مكّنه منه، أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها.

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي"[2].

(وَالثَّانِي: الاسْتِغْفَارُ من غيرِ تَوْبَةٍ؛ فَإِنَّ الله تَعَالَى قد يغْفرُ لَهُ؛ إجابةً لدعائه وإن لم يتُبْ) **يقول**: ومن مكفرات المعصية: طلب المغفرة من الله تعالى، وإن

(1) التوبة لابن أبي الدنيا (ص: 136).

(2) رياض الصالحين (ص: 14).

لم يتم من العبد إقلاع عن الخطيئة، فقد يستغفر العبد ربه -ولاسيما في ساعة إجابة أو حال اضطرار- فيستجيب الله دعاءه فيغفر خطيئته.

والاسْتِغْفَارُ معناه: طلب غفران الذنب بالمقال والفعال[1]، **وقيل:** طلب المغفرة بعد رؤية قبح المعصية، والإعراض عنها[2].

وقد أمر الله تعالى عباده باستغفاره ليغفر لهم فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء:64].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ)[3].

ووعدهم الله تعالى بالمغفرة ما استغفروه؛ فقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[النساء:110].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (إِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ لِرَبِّهِ: بِعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتِ الْأَرْوَاحُ فِيهِمْ، فَقَالَ لَهُ اللهُ: فَبِعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَبْرَحُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي)[4].

(1) المفردات في غريب القرآن (ص: 609).

(2) التعريفات (ص: 18).

(3) رواه البخاري (1145)، ومسلم(758).

(4) رواه أحمد(11244)، وأبو يعلى(1399)، والطبراني في الأوسط(8788)، والحاكم (7672)، =

وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: (قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي)[1].

وهناك نصوص يدل ظاهرها على أن الله تعالى يغفر الذنوب بالاستغفار، ولم تذكر معه التوبة؛ **فعن** بِلَالِ بْنِ يَسَارِ بْنِ زَيْدٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: (مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيَّ القَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؛ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنْ الزَّحْفِ)[2].

وقد فهم ذلك بعض السلف؛ قال أبو يحيى: "شكوت إلى مجاهد الذنوب، فقال: أين أنت من المِمحاة؟ يعني: من الاستغفار"[3].

= **وقال:** "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي، **وقال الهيثمي:** "رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو يَعْلَى بِنَحْوِهِ، وَقَالَ: «لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ». وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَأَحَدُ إِسْنَادَيْ أَحْمَدَ رِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ، وَكَذَلِكَ أَحَدُ إِسْنَادَيْ أَبِي يَعْلَى"، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (10/ 207).

(1) رواه أحمد(21505)، والترمذي(3540)، والطبراني في الصغير(820) والأوسط(5483) والكبير (12346)، والدارمي(2830)، والبيهقي في الشعب(1011)، والبزار(6760)، **قال الهيثمي:** "رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الثَّلَاثَةِ، وَفِيهِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْحَاقَ الصِّينِيُّ، وَقَيْسُ بْنُ الرَّبِيعِ، وَكِلَاهُمَا مُخْتَلَفٌ فِيهِ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ رِجَالُ الصَّحِيحِ"، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (10/ 216)، وصححه الألباني.

(2) رواه أبو داود(1517)، والترمذي(3577)، والطبراني في الكبير(4670)، والحاكم(2550) **وقال:** "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ" ووافقه الذهبي، وصححه الألباني والأرناؤوط.

(3) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: 307).

(فإذا اجْتمعتِ التَّوْبَةُ) بالإقلاع عن الذنب، والندم على فعله، ورد الحق إلى أهله (وَالِاسْتِغْفَار) القولي باللسان (فَهُوَ الْكَمَالُ) حيث وافق القول الحال، وصدقت الفعال المقال.

وقد جمع الله تعالى بين التوبة والاستغفار فقال: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[المائدة:74]، وعن الربيع بن خثيم، أنه قال لأصحابه: ما الداء؟ وما الدواء؟ وما الشفاء؟ قالوا: لا نعلم. قال: الداء: الذنوب، والدواء: الاستغفار، والشفاء: أن تتوب فلا تعود"[1].

وقال ابن رجب: "فالاستغفار التام الموجب للمغفرة: هو ما قارن عدم الإصرار، كما مدح الله أهله، ووعدهم المغفرة.

قال بعض العارفين: من لم يكن ثمرة استغفاره تصحيح توبته، فهو كاذب في استغفاره، وكان بعضهم يقول: استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار كثير، وفي ذلك يقول بعضهم:

أستَغفِرُ اللهَ مِن أستَغفِرُ اللهَ ... مِن لَفظَةٍ بَدَرَتْ خالَفتُ مَعناها
وَكَيفَ أَرجُو إِجَابَاتِ الدُّعَاءِ وَقَد ... سَدَدتُ بِالذَّنبِ عِندَ اللهِ مجراها

فأفضل الاستغفار: ما اقترن به ترك الإصرار، وهو حينئذ توبة نصوح، وإن قال بلسانه: أستغفر الله، وهو غير مقلع بقلبه، فهو داع لله بالمغفرة، كما يقول:

---

(1) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: 274).

اللهم اغفر لي، وهو حسن، وقد يرجى له الإجابة، وأما من قال: هو توبة الكذابين، فمراده: أنه ليس بتوبة، كما يعتقده بعض الناس، وهذا حق؛ فإن التوبة لا تكون مع الإصرار"[1].

وقد فرق بعض أهل العلم بين التوبة والاستغفار، بفروق، منها:

1- **أن التوبة** ترك المرء الإثم والعزم على الترك مع الندامة على ما فعل، بخلاف الاستغفار؛ فإنه يكون من الشخص لنفسه ولغيره[2].

2- **التوبة هي**: الندم على ما فرط منه في الماضي، والعزم على الامتناع عنه في المستقبل.

والاستغفار: طلب المغفرة، وأصله: ستر العبد فلا ينفضح، ووقايته من شر الذنب فلا يُعاقب عليه، فمغفرة الله لعبده تتضمن أمرين: ستره فلا يفضحه، ووقايته أثر معصيته فلا يؤاخذ عليها، وبهذا يعلم أن بين الاستغفار والتوبة فرقًا، فقد يستغفر العبد ولم يتب كما هو حال كثير من الناس، لكن التوبة تتضمن الاستغفار[3].

---

(1) تفسير ابن رجب الحنبلي (1/ 152).

(2) العرف الشذي شرح سنن الترمذي (1/ 384)، فيض الباري على صحيح البخاري (6/ 218).

(3) فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب (4/ 93).

3 -وقال ابن القيم: "وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله مغفرته، فهذا ليس باستغفار مطلق؛ ولهذا لا يمنع العذاب، فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، **والتوبة:** الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فهاهنا ذنبان: ذنب قد مضى، **فالاستغفار منه:** طلب وقاية شره، وذنب يخاف وقوعه، **فالتوبة:** العزم على أن لا يفعله. **والرجوع إلى الله يتناول النوعين:** رجوع إليه ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

وأيضًا فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقًا تؤديه إلى هلاكه، ولا توصله إلى المقصود، فهو مأمور أن يوليها ظهره، ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته، والتي توصله إلى مقصوده، وفيها فلاحه.

فهاهنا أمران لا بد منهما: مفارقة شيء، والرجوع إلى غيره، فخصت التوبة بالرجوع، والاستغفار بالمفارقة، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين؛ ولهذا جاء -والله أعلم- الأمر بهما مرتبًا بقوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[هود: 3] فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

وأيضًا فالاستغفار من باب إزالة الضرر، والتوبة طلب جلب المنفعة، فالمغفرة أن يقيه شر الذنب، والتوبة أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده، والله أعلم"[1].

يقول شيخ الإسلام في فائدة الاستغفار: "الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب، ومن العمل الناقص إلى العمل التام، ويرفع العبد من المقام الأدنى إلى الأعلى منه والأكمل؛ فإن العابد لله والعارف بالله في كل يوم، بل في كل ساعة، بل في كل لحظة يزداد علماً بالله، وبصيرة في دينه وعبوديته بحيث يجد ذلك في طعامه وشرابه، ونومه ويقظته وقوله وفعله، ويرى تقصيره في حضور قلبه في المقامات العالية وإعطائها حقها، فهو يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار؛ بل هو مضطر إليه دائمًا في الأقوال والأحوال في الغوائب والمشاهد؛ لما فيه من المصالح وجلب الخيرات ودفع المضرات، وطلب الزيادة في القوة في الأعمال القلبية والبدنية اليقينية الإيمانية.

وقد ثبتت دائرة الاستغفار بين أهل التوحيد واقترانها بشهادة أن لا إله إلا الله من أولهم إلى آخرهم، ومن آخرهم إلى أولهم، ومن الأعلى إلى الأدنى. وشمول دائرة التوحيد والاستغفار للخلق كلهم وهم فيها درجات عند الله ولكل عامل مقام معلوم. فشهادة أن لا إله إلا الله بصدق ويقين تذهب الشرك كله دقه وجله، خطأه وعمده، أوله وآخره، سره وعلانيته، وتأتي على جميع صفاته

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (1/ 315).

وخفاياه ودقائقه، والاستغفار يمحو ما بقي من عثراته، ويمحو الذنب الذي هو من شعب الشرك؛ فإن الذنوب كلها من شعب الشرك.

فالتوحيد يذهب أصل الشرك، والاستغفار يمحو فروعه، فأبلغ الثناء **قول**: لا إله إلا الله، وأبلغ الدعاء: قول: أستغفر الله"[1].

الكفارات المقدرة:

(الثَّالِثُ: الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ المكفِّرة؛ إما الْكَفَّارَاتُ الْمقدَّرَةُ كَمَا يكفِّرُ المجامعُ فِي رَمَضَانَ، والمظاهِرُ، والمرتكِبُ لبَعضِ مَحْظُورَاتِ الْحَجِّ، أَو تَارِكُ بعضِ واجباتِه، أَو قَاتلُ الصَّيْدِ؛ بالكفاراتِ الْمقدَّرَةِ، وَهِي أَرْبَعَةُ أَجنَاسٍ: هَديٌ، وَعِتقٌ، وَصدقَةٌ، وَصِيَامٌ).

يعني: مما تمحى به السيئات: أعمال صالحة مكفرة، **وهي على قسمين:**

القسم الأول: الكفارات التي قدرها الشارع وحددها لارتكاب بعض المعاصي، أو ترك بعض الواجبات، وقد بين المصنف أنها أربعة مكفرات: تقديم الهدي، عتق الرقبة، الصدقة، الصيام، وبقي تقديم البديل من النعم لمن قتل صيد الحرم، كما سيأتي.

وستتكلم عن هذه الأنواع تحت كل ذنب من الذنوب التي ذكرها المصنف، **وهي خمسة ذنوب:**

---

(1) مجموع الفتاوى (11/ 696).

الأول: الجماع في نهار رمضان:

ويكون ذلك في حال الإقامة، والذكر من غير نسيان، والاختيار من غير إكراه.

والكفارة محددة في نص هذا الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: هَلَكْتُ، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: (وَمَا أَهْلَكَكَ؟) قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي فِي رَمَضَانَ، قَالَ: (هَلْ تَجِدُ مَا تُعْتِقُ رَقَبَةً؟) قَالَ: لَا، قَالَ: (فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟) قَالَ: لَا، قَالَ: (فَهَلْ تَجِدُ مَا تُطْعِمُ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟) قَالَ: لَا، قَالَ: ثُمَّ جَلَسَ، فَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهِ تَمْرٌ، فَقَالَ: «تَصَدَّقْ بِهَذَا» قَالَ: أَفْقَرَ مِنَّا؟ فَمَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَحْوَجُ إِلَيْهِ مِنَّا، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ، ثُمَّ قَالَ: (اذْهَبْ فَأَطْعِمْهُ أَهْلَكَ)[1].

الثاني: مظاهرة الرجل من زوجته:

اتفق الفقهاء على تعريف الظهار شرعًا بشكل عام، واختلفوا في بعض الجزئيات فيه:

فقال الحنفية: هو: "تشبيه المسلم زوجته أو ما يعبر به عنها أو جزءاً شائعًا

---

(1) رواه البخاري(1936)، ومسلم(1111). **وقد تكلمت عن أحكام هذا الحديث بالتفصيل في** كتاب " متعة الأذهان في شرح أحاديث رمضان".

منها؛ بمحرمة عليه تأبيداً"[1].

وقال المالكية: "تشبيه المسلم المكلف مَنْ تَحِلُّ أَوْ جُزْأَهَا بِظَهْرِ مُحَرَّمٍ أَوْ جزئه"[2].

وقال الشافعية: "الظهار: أن يشبه امرأته بظهر أمه أو بعضو من أعضائها"[3].

وقال الحنابلة: "هو أن يشبه امرأته أو عضواً منها بظهر من تحرم عليه على التأبيد بها أو بعضو من أعضائها"[4].

قال النووي: "واعلم أن الظهار كان طلاقاً في الجاهلية كالإيلاء، فغير الشرع حكمه إلى تحريم المظاهر منها بعد العود، ولزوم الكفارة، ففيه شبه باليمين من حيث لزوم الكفارة، وشبه بالطلاق من حيث ترتب التحريم عليه"[5].

وكفارته مذكورة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ

---

(1) اللباب في شرح الكتاب (ص: 281)، وينظر: الدر المختار وحاشية ابن عابدين(رد المحتار) (3/ 466).

(2) مختصر خليل (ص: 125) وينظر: الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (2/ 47).

(3) التنبيه في الفقه الشافعي (ص: 185).

(4) المبدع (8/ 30)، وينظر: الكافي في فقه ابن حنبل (3/ 255).

(5) إعانة الطالبين حاشية على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرة العين بمهمات الدين(4/ 36).

سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[المجادلة:3-4].

الثالث: ارتكاب محظور من محظورات الحج:

المحظورات على المحرم هي: ما يمتنع على المحرم فعله شرعًا حتى يحل.

وهذه المحظورات هي:

1- لبس المخيط، وهذا المحظور خاص بالرجال، أما المرأة فتلبس ما شاءت من الثياب إلا النقاب والقفازين.

2- استعمال الطيب في بدن المحرم أو ثيابه.

3- إزالة الشعر والظفر، ذكراً كان أو أنثى.

4- تغطية رأس الرجل بملاصق له.

5- عقد النكاح له ولغيره.

6- الوطء في الفرج، وهو مفسد للحج قبل التحلل الأول، ولو بعد الوقوف بعرفة.

7- المباشرة فيما دون الفرج، ولا تفسد النسك، وكذا القُبلة واللمس والنظر بشهوة.

8- قتل صيد البر واصطياده، ويجوز له قتل الفواسق التي أمر النبي ﷺ بقتلها في الحل والحرم.

9- لا يجوز للمحرم ولا غيره قطع شجر الحرم أو نباته الرطب غير المؤذي، ويجوز قطع الأوصال المؤذية في الطريق، ويستثنى من شجر الحرم الإذخر، وما أنبته الآدميون بالإجماع(1).

فمن ارتكب محظوراً من هذه المحظورات فعليه الكفارة، وهي على النحو الآتي:

أ- في حلق الشعر، أو تقليم الأظافر، أو لبس المخيط، أو استعمال الطيب، أو تغطية الرأس، أو الإمناء بنظرة، أو المباشرة بغير إنزال المني؛ فدية، **وهي على التخيير بين أصناف ثلاثة:**

1- صيام ثلاثة أيام.

2- أو إطعام ستة مساكين.

3- أو ذبح شاة.

لقوله ﷺ لكعب بن عجرة حين آذاه هوام رأسه: (احْلِقْ رَأْسَكَ، وَصُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، أَوْ انْسُكْ بِشَاةٍ)(2).

وقيست على هذا المحظور بقية الأفعال؛ لأنها محرمة بالإحرام، ولا تفسد الحج.

---

(1) ينظر: الفقه الميسر في ضوء الكتاب والسنة (1/ 179).

(2) رواه البخاري(1814)، ومسلم(1201).

ب- وأما قتل الصيد فسيأتي حكمه.

ج- وأما الوطء في الحج قبل التحلل الأول، وإنزال المني بمباشرة، أو استمناء، أو تقبيل، أو لمس بشهوة، أو تكرار نظر؛ فإنه يفسد الحج، حتى وإن كان المجامع ساهيًا أو جاهلاً أو مكرهـًا. ويجب في ذلك بدنة، وقضاء الحج، والتوبة.

وأما بعد التحلل الأول فإنه لا يفسد الحج، ويجب في ذلك شاة.

د- أما عقد النكاح، فلا يجب في ذلك فدية، وإنما يكون العقد فاسداً.

هـ- وأما قطع شجر الحرم ونباته الذي لم يزرعه الآدمي؛ فتضمن الشجرة الصغيرة عرفًا بشاة وما فوقها ببقرة، ويضمن النبات والورق بقيمته؛ لأنه متقوم.

هذا إذا كان مرتكب المحظور متعمداً، أما الجاهل والناسي فلا شيء عليهما[1].

وأما الهدي فيجب في نسكي التمتع والقران، فإن عدم الهدي، أو ثمنه، صام ثلاثة أيام في الحج- ويجوز صيامها في أيام التشريق- وسبعة إذا رجع إلى أهله؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾[البقرة: 196].

الرابع: ترك واجب من واجبات الحج:

والواجب في الحج هو: ما يطلب فعله، ويحرم تركه، ولا تتوقف صحة الحج عليه، ويأثم تاركه، إلا إذا كان الترك لعذر شرعي، ويجب عليه الفداء

(1) ينظر: الفقه الميسر في ضوء الكتاب والسنة (1/ 180).

بتركه؛ جبراً للنقص[1].

وهذه الواجبات هي:

1 – الإحرام من الميقات المعتبر له شرعـًا.

2 – الهدي للقارن والمتمتع

3 – المبيت بمزدلفة ليلة النحر إلى منتصف الليل، إن وافاها قبله.

4 – المبيت بمنى ليالي أيام التشريق.

5 – رمي الجمرات مرتبـًا.

6 – الحلق أو التقصير.

7 – طواف الوداع لغير الحائض والنفساء.

فمن ترك واجبـًا من هذه الواجبات عامداً أو ناسيـًا جبره بدم وصح حجه؛ لما ثبت عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال: (من نسي من نسكه شيئـًا، أو تركه فليرق دمـًا)[2][3].

أما الوقوف بعرفة فهو ركن من أركان الحج، فمن فاته فاته الحج، ولا يجبر بدم.

---

(1) الفقه الميسر (4/ 66).

(2) رواه الدارقطني (2/ 191) برقم (2512)، والبيهقي (5/ 152) وغيرهما، وهو ثابت عن ابن عباس من قوله، كما قال ابن عبد البر (الاستذكار 12/ 184)، والألباني (الإرواء 4/ 299).

(3) الفقه الميسر في ضوء الكتاب والسنة (1/ 177). بتصرف.

الخامس: قتل الصيد:

يحرم على من كان داخل حدود الحرم -من محل أو محرم- أن يصيد فيه.

ويحرم على المحرم خارج الحرم أن يصيد من الحيوان البري أيضًا؛ **قال تعالى**: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾[**المائدة:95**].

والكفارة: أن يخير قاتل الصيد بين ذبح المثل من النَّعم، أو تقويم المثل بمحل التلف، ويشتري بقيمته طعامًا يجزئ في الفطرة، فيطعم كل مسكين مدّ بُرٍّ، أو نصف صاع من غيره، كتمر أو شعير، أو يصوم عن إطعام كل مسكين يومًا؛ **لقوله تعالى**: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾[المائدة: 95].

وفي الكفارة لارتكاب محظور، أو ترك واجب من واجبات الحج قال الله تعالى:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[البقرة:196].

ومن الكفارات المقدرة التي لم يذكرها المصنف: كفارة قتل المسلم خطأ؛ قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء:92].

ومنها: كفارة الحنث في اليمين، قال تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[المائدة:89].

ومنها: كفارة البصاق في المسجد؛ فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (البُزَاقُ فِي المَسْجِدِ خَطِيئَةٌ، وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا)(1).

---

(1) رواه البخاري(415)، ومسلم(552).

الكفارات المطلقة:

(وَإِمَّا الْكَفَّارَاتُ الْمُطلقَةُ؛ كَمَا قَالَ حُذَيْفَةُ لعمرَ: "فتْنَةُ الرُّجلِ فِي أَهلِهِ وَمَالِه وَولدِه؛ يكفرُها: الصَّلَاةُ، وَالصِّيَامُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُّ عَن الْمُنكرِ")[1].

يقول: والأعمال الصالحة المكفرة للذنوب منها الكفارات المقدرة-وقد تقدمت-والكفارات المطلقة يعني: التي لم تقيد بذنب معين، بل هي صالحة لأنواع من الذنوب، وذكر منها ما في حديث حذيفة الذي أورده.

و"**أصل الفتنة في كلام العرب**: الابتلاء والامتحان والاختبار، ثم صارت في

---

(1) **رواه البخاري** (525) **بلفظ**: (فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ، وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ ...). **وبلفظ** (1435): (فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ، وَوَلَدِهِ، وَجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ، وَالصَّدَقَةُ وَالمَعْرُوفُ ...). **وبلفظ** (1895): (فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ ...). **وبلفظ** (3586): (فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ ...). **وبلفظ** (7096): (فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ وَالصَّدَقَةُ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ ...).

ورواه مسلم (144/ 231) **بلفظ**: (كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ، فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَجَارِهِ؟ قَالُوا: أَجَلْ، قَالَ: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ...). **وبلفظ** (144/ 26): (فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَنَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ، يُكَفِّرُهَا الصِّيَامُ، وَالصَّلَاةُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ...).

عرف الكلام لكل أمر كشفه الاختبارُ عن سوء"[1].

وفي هذه الأمور المتعاطفة في حديث حذيفة "قال بعض الشراح: يحتمل أن يكون كل واحدة من الصلاة وما معها مكفرة للمذكورات كلها، لا لكل واحدة منها، وأن يكون من باب اللف والنشر بأن الصلاة مثلاً مكفرة للفتنة في الأهل والصوم في الولد إلخ، **والمراد بالفتنة**: ما يعرض للإنسان مع من ذكر من البشر أو الالتهاء بهم، أو أن يأتي لأجلهم بما لا يحل له أو يخل بما يجب عليه"[2].

قال ابن هبيرة -بعد أن بين وجه الفتنة في كل ما ذكر في حديث حذيفة-: "إلا أن هذه الأشياء كلها أخبر حذيفة عن النبي ﷺ أنها يكفرها الصيام، والصلاة، والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأخبر أن المتخوف شره من كل هذه إذا وقع الإنسان فيه؛ فإنه يكفره الصيام والصلاة، والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن هذه حسنات أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنهن يذهبن السيئات"[3].

دلالة القرآن والسنة على تكفير الذنوب ببعض الأعمال الصالحة:

(وَقد دلَّ على ذَلِكَ الْقُرْآنُ، وَالْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ فِي التَّكْفِير بالصلواتِ الْخمسِ، وَالْجُمُعَةِ، وَالصِّيَامِ، وَالْحجِّ).

أي: قد دل القرآن، وصحيح السنة على محو الخطايا بالأعمال الصالحة

(1) إكمال المعلم بفوائد مسلم (1/ 451).

(2) فتح الباري لابن حجر (6/ 605).

(3) الإفصاح عن معاني الصحاح (2/ 204).

التي منها: الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة، والصيام: واجبه ومستحبه، والحج، **فمن تلك النصوص في ذلك:**

1-الصلوات الخمس:

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفِيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[هود:114].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وَإِنِّي أَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّهَا، فَأَنَا هَذَا، فَاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ سَتَرَكَ اللهُ، لَوْ سَتَرْتَ نَفْسَكَ، قَالَ: فَلَمْ يَرُدَّ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا، فَقَامَ الرَّجُلُ فَانْطَلَقَ، فَأَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا دَعَاهُ، وَتَلَا عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[هود: 114])، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا نَبِيَّ اللهِ، هَذَا لَهُ خَاصَّةً؟ قَالَ: (بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً)(1).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: (الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ)(2).

2-صلاة الجمعة مع استماع خطبتها والمحافظة على آدابها:

عَنْ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لاَ يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ

---

(1) رواه مسلم(2763).

(2) رواه مسلم(233).

الجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلاَ يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الإِمَامُ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ الأُخْرَى)[1].

3-الصيام: فرضه ونفله:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)[2].

وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ، وَصِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ)[3].

4-الحج إلى بيت الله الحرام، ومثله العمرة أيضًا:

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)[4].

وعَنْه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا

---

(1) رواه البخاري(883)، ومسلم(857).

(2) رواه البخاري(1901)، ومسلم(760).

(3) رواه مسلم(1162).

(4) رواه البخاري(1521)، ومسلم(1350).

بَيْنَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةُ[1].

وهناك أعمال صالحة أخرى دل القرآن على تكفير الذنوب بها؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[آل عمران:31].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الأنفال:29].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:70-71].

وقال: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[التغابن:17].

وأما في السنة فكثيرة جداً[2].

(وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ) أي: باقي الأعمال الأخرى غير ما تقدم (الَّتِي يُقَالُ فِيهَا: مَنْ قَالَ كَذَا، وَعمِلَ كَذَا غُفِرَ لَهُ، أَو غُفِرَ لَهُ مَا تقدَّمَ مِن ذَنبِه)، ومن أمثلة ذلك:

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ قَالَ حِينَ

(1) رواه البخاري(1773)، ومسلم(1349).

(2) وقد أوردت جملة صالحة منها في كتاب "روضة العابدين" (410).

يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ)[1].

وعَنْ حُمْرَانَ، مَوْلَى عُثْمَانَ، قَالَ: أَتَيْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ بِوَضُوءٍ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَالَ: (مَنْ تَوَضَّأَ هَكَذَا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَكَانَتْ صَلَاتُهُ وَمَشْيُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ نَافِلَةً)[2].

(وَهِيَ كَثِيرَةٌ لمن تلقَّاها مِن السُّنَنِ، خُصُوصًا مَا صُنِّفَ فِي فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ)، ومن أمثلة الكتب المصنفة في ذلك:

1- الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك، لابن شاهين (ت:385هـ).

2- نهاية الآمال في فضائل الأعمال، لأحمد بن علي بن يوسف البونى (ت626هـ).

3- فضائل الأعمال، لضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي (ت:643هـ).

4- المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح، لعبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن، الدمياطي (ت:705هـ).

---

(1) رواه مسلم(386).

(2) رواه مسلم(229).

أهمية العناية بهذا الباب:

(وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِنَايَةَ بِهَذَا مِنْ أَشَدِّ مَا بِالْإِنْسَانِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ حِينِ يَبْلُغُ، خُصُوصًا فِي هَذِهِ الْأَزْمِنَةِ وَنَحْوِهَا مِنْ أَزْمِنَةِ الْفَتَرَاتِ الَّتِي تُشْبِهُ الْجَاهِلِيَّةَ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَنْشَأُ بَيْنَ أَهْلِ عِلْمٍ وَدِينٍ قَدْ يَتَلَطَّخُ مِنْ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ بِعِدَّةِ أَشْيَاءَ، فَكَيْفَ بِغَيْرِ هَذَا!

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: (فَمَنْ؟). هَذَا خَبَرٌ تَصْدِيقُهُ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾[التوبة:69]، وَلِهَذَا شَوَاهِدُ فِي الصِّحَاحِ وَالْحِسَانِ.

وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ يَسْرِي فِي الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الدِّينِ مِنْ الْخَاصَّةِ كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ مِنْهُمْ ابْنُ عُيَيْنَةَ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ الْيَهُودِ قَدْ اُبْتُلِيَ بِهِ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْعِلْمِ، وَكَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ النَّصَارَى قَدْ اُبْتُلِيَ بِهِ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الدِّينِ، كَمَا يُبْصِرُ ذَلِكَ مَنْ فَهِمَ دِينَ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ، ثُمَّ نَزَّلَهُ عَلَى أَحْوَالِ النَّاسِ. وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ، وَكَانَ مَيتًا فَأَحْيَاهُ اللهُ، وَجَعَلَ لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ؛ لَا بُدَّ أَنْ يُلَاحِظَ أَحْوَالَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَطَرِيقَ الْأُمَّتَيْنِ: الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَالضَّالِّينَ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَيَرَى أَنْ قَدْ اُبْتُلِيَ بِبَعْضِ ذَلِكَ).

قوله: (**وَاعْلَمْ**) هذا الفعل يؤتى به للتنبيه على أهمية ما بعده، وهو وارد في القرآن والسنة، وكلام العرب في شعرهم ونثرهم، في الوصايا وغيرها (**أَنَّ الْعِنَايَةَ بِهَذَا**) **الموضوع**: موضوع إتباع السيئة بالحسنة، والحرص على ذلك أشد الحرص (**مِن أَشَدِّ مَا بالإنسان الْحَاجةُ إليه؛ فَإِنَّ الإنسانَ مِن حِين يَبلغُ**) وهو زمن ابتداء التكليف، وميل النفس الجامح نحو أعلى الشهوات، وإناطة الأعمال والوظائف بصاحبها، وهناك تكثر الخطايا (**خُصُوصًا فِي هَذِه الْأَزْمِنَةِ وَنَحْوِهَا**) تخصيص بعد تعميم، فإذا كانت هذه شكوى الشيخ في زمنه قبل سبعة قرون من زماننا، فماذا كان سيقول عن عصرنا لو عاش فيه؟! وقد اتقدت نيران الشهوات، وكثر الفساد في الأرض والمفسدون، وقل فيها الصلاح والمصلحون، وغابت كثير من شعائر الدين في واقع المسلمين.

قال الطبري: "حَدَّثَنِي أَبُو حُمَيْدٍ الْحِمْصِيُّ أَحْمَدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَاجِرٍ، حَدَّثَنِي الزُّبَيْدِيُّ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: يَا وَيْحَ لَبِيدٍ حَيْثُ يَقُولُ:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيتُ فِي خَلفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَكَيْفَ لَوْ أَدْرَكَ زَمَانَنَا هَذَا؟ قَالَ عُرْوَةُ: رَحِمَ اللهُ عَائِشَةَ، فَكَيْفَ لَوْ أَدْرَكَتْ زَمَانَنَا هَذَا؟ ثُمَّ قَالَ الزُّهْرِيُّ: رَحِمَ اللهُ عُرْوَةَ، فَكَيْفَ لَوْ أَدْرَكَ زَمَانَنَا هَذَا؟ ثُمَّ قَالَ الزُّبَيْدِيُّ: رَحِمَ اللهُ الزُّهْرِيَّ، فَكَيْفَ لَوْ أَدْرَكَ زَمَانَنَا هَذَا؟ قَالَ مُحَمَّدٌ: وَأَنَا أَقُولُ: رَحِمَ اللهُ الزُّبَيْدِيَّ، فَكَيْفَ لَوْ أَدْرَكَ زَمَانَنَا هَذَا؟ قَالَ أَبُو حُمَيْدٍ:

قَالَ عُثْمَانُ: وَنَحْنُ نَقُولُ: رَحِمَ اللهُ مُحَمَّدًا، فَكَيْفَ لَوْ أَدْرَكَ زَمَانَنَا هَذَا؟ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: قَالَ لَنَا أَبُو حُمَيْدٍ: رَحِمَ اللهُ عُثْمَانَ، فَكَيْفَ لَوْ أَدْرَكَ زَمَانَنَا هَذَا؟ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: رَحِمَ اللهُ أَحْمَدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ، فَكَيْفَ لَوْ أَدْرَكَ زَمَانَنَا هَذَا؟ قَالَ الشَّيْخُ: رَحِمَ اللهُ أَبَا جَعْفَرٍ، فَكَيْفَ لَوْ أَدْرَكَ زَمَانَنَا هَذَا؟"[1].

(مِن أزمنةِ الفتراتِ) **الفترات** -في الأصل-: جمع فترة، و"الفترة: سكون بعد حدة، ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة"[2]، والمصنف يقصد حصول هذا المعنى، ولكن في التمسك بالدين، فيريد بالفترات: الأزمنة التي يقل فيها عمل الناس بدين الإسلام، ويضعف فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد أشار المصنف إلى شيء من هذا في "الصفدية" عند قوله: "في أماكن الفترات التي تضعف فيها آثار النبوة إذا لم يكن هناك من يقوم بحقائقها"[3].

(الَّتِي تُشبهُ الْجَاهِلِيَّةَ مِن بعضِ الْوُجُوهِ) وليس جاهلية كلها، وإنما فيها أعمال تشبه ما كان فيها؛ كالجهل بالدين، وارتكاب بعض المحرمات التي كانت علمًا من أعلام الجاهلية، **والجاهلية**: "ما كان عليه العرب قبل الإسلام من الجهالة والضلالة"[4].

---

(1) تهذيب الآثار (1/ 124).

(2) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: 256).

(3) الصفدية (1/ 233).

(4) المعجم الوسيط (1/ 144).

ومن تلك الأعمال أيضًا: ما ورد في هذين الحديثين:

عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: مَرَرْنَا بِأَبِي ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ وَعَلَى غُلَامِهِ مِثْلُهُ، فَقُلْنَا: يَا أَبَا ذَرٍّ، لَوْ جَمَعْتَ بَيْنَهُمَا كَانَتْ حُلَّةً، فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنْ إِخْوَانِي كَلَامٌ، وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً، فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَشَكَانِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَقِيتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: (يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ)[1].

قال النووي: "أي: هذا التعيير من أخلاق الجاهلية. ففيك خلق من أخلاقهم، وينبغي للمسلم أن لا يكون فيه شيء من أخلاقهم، ففيه النهي عن التعيير، وتنقيص الآباء والأمهات، وأنه من أخلاق الجاهلية"[2].

وعن أبي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ)[3].

"(في أمتي من أمر الجاهلية)؛ أي: من أفعال أهلها. (لا يتركونهن): أراد أن الأمة بأسرها لا يتركونهن تركهم غيرها، بل إن تركها طائفة فعلها أُخرى"[4].

(1) رواه البخاري(6050)، ومسلم(1661).

(2) شرح النووي على مسلم (11/ 132).

(3) رواه مسلم(934).

(4) شرح المصابيح لابن الملك (2/ 379).

(فإِنَّ الإنسانَ الَّذِي ينشأُ بَينَ أهلِ علمٍ وَدِينٍ قد يتلطخُ مِن أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ بعدَّةِ أَشْيَاءَ، فَكيفَ بِغَيْرِ هَذَا!) **يقول الشيخ** -مؤيداً حصول بعض أخلاق الجاهلية في المجتمع المسلم-: إن الإنسان قد يتلوث أو يتدنس ببعض أخلاق الجاهلية -التي سيأتي ذكرها عن بعض العلماء، وبعض العباد-، فكيف تلوثُه بالذنوب الأخرى، من غير هذه الجهة!؛ إذ قد يذنب ذنوبًا أخرى لا علاقة لها بالجاهلية، ولا التشبه بغير المسلمين.

(وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَن النَّبِيِّ ص مِن حَدِيثِ أبي سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لتتبعُنَّ سَنَنَ مَن كَانَ قبلَكُمْ، حَذْوَ القُذَّةِ بالقذةِ، حَتَّى لَو دخلُوا جُحرَ ضَبٍّ لدخلتموه، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمن؟))[1].

---

(1) **رواه البخاري بلفظ**: (3456): (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ)، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: (فَمَنْ!)، وبلفظ(7320) كاللفظ السابق، ما عدا(لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ) جاءت بلفظ: (لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ).

ورواه مسلم (2669) بلفظ: (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ...).

وليس في حديث الصحيحين عن أبي سعيد جملة: (حَذْوَ القُذَّةِ بالقذةِ) بل جاءت خارج الصحيحين عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (لَيَحْمِلَنَّ شِرَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى سَنَنِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلِ الْكِتَابِ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ) رواه أحمد(17134)، والطبراني في الكبير(7140)، وأبو داود الطيالسي(1217)، وابن الجعد(3424)، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (7/ 913). وجاء في حديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ =

قال ابن حجر: "قوله: (لتتبعن سنن) بفتح السين للأكثر، وقال ابن التين: قرأناه بضمها، وقال المهلب: بالفتح أولى؛ لأنه الذي يستعمل فيه الذراع والشبر، وهو الطريق. قلت: وليس اللفظ الأخير ببعيد من ذلك. قوله: (شبرًا شبرًا، وذراعًا ذراعًا) في رواية الكشميهني: (شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع) عكس الذي قبله، قال عياض: الشبر والذراع والطريق ودخول الجحر تمثيل للاقتداء بهم في كل شيء مما نهى الشرع عنه وذمه... وقوله: (قال: فمن) هو استفهام إنكار، والتقدير فمن هم غير أولئك!"[1].

وقوله: (حَذْوَ القُذَّةِ بالقذةِ) قال ابن الأثير: القذذ: ريش السهم، **واحدتها:** قذة، **ومعنى قوله:** (لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة) **أي:** كما تقدر كل واحدة منهما على قدر صاحبتها وتقطع. يضرب مثلاً للشيئين يستويان ولا يتفاوتان[2].

وقوله: (حَتَّى لَو دخلُوا جُحرَ ضَبٍّ لدخلتموه): "**(الضب)**: حيوان من جنس الزواحف من رتبة العظاء، غليظ الجسم خشنه، وله ذنب عريض حرش

= عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتى عَلَى بني إسرائيل حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ) رواه الترمذي(2641)، وابن بطة في الإبانة(265)، والمروزي في السنة(59)، والآجري في الشريعة(24)، والحاكم(444)، والطبراني في الكبير(62)، وحسنه الألباني.

(1) فتح الباري لابن حجر (13/ 301).

(2) النهاية في غريب الحديث والأثر (4/ 28).

أعقد، يكثر في صحارى الأقطار العربية"[1]، "وخص جحره بالذكر؛ لشدة ضيقه. وهو كناية عن شدة الموافقة لهم في المعاصي، لا في الكفر، أي: أنهم لاقتفائهم آثارهم، واتباعهم طرائقهم؛ لو دخلوا في مثل هذا الضيق لوافقوهم"[2].

قال ابن بطال -في هذا الحديث-: "فأخبر ﷺ أن أمته قبل قيام الساعة يتبعون المحدثات من الأمور، والبدع والأهواء المضلة كما اتبعتها الأمم من فارس والروم، حتى يتغير الدين عند كثير من الناس، وقد أنذر ﷺ في كثير من حديثه أن الآخر شر، وأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، وأن الدين إنما يبقى قائمًا عند خاصة من المسلمين لا يخافون العداوات، ويحتسبون أنفسهم على الله في القول بالحق، والقيام بالمنهج القويم في دين الله"[3].

(هَذَا خبرٌ) نبوي **(تَصْدِيقهُ)** في القرآن **(فِي قَوْله تَعَالَى:** ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾[التوبة:69]**)** **يعني**: أن المتأخرين سلكوا طريق المتقدمين في الخطيئة.

قال ابن كثير: "يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ﴾ **قال الحسن البصري**: بدينهم ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ

(1) المعجم الوسيط (1/ 532).

(2) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (10/ 328).

(3) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (10/ 366).

وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ **أي**: في الكذب والباطل... قال ابن جريج عن عمر بن عطاء، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الآية، قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل، شبهنا بهم، لا أعلم إلا أنه قال: "والذي نفسي بيده، لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه"(1).

(وَلِهَذَا) النصِّ نصوصٌ **(شَوَاهِدُ فِي)** الأحاديث **(الصِّحَاحِ) (وَ)**الأحاديث **(الْحِسَانِ)** وقد تقدم من ذلك حديث أبي ذر، وأبي مالك، ومن ذلك أيضًا: عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (سُبْحَانَ اللهِ! هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[الأعراف: 138]، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)(2).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ القُرُونِ قَبْلَهَا، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ)، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَفَارِسَ

---

(1) تفسير ابن كثير (4/ 173).

(2) رواه أحمد(21897)، والترمذي(2180) **وقال**: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ"، والنسائي في الكبرى (11121)، وابن حبان(6702)، وأبو داود الطيالسي(1443)، والطبراني في الكبير (3290)، وابن أبي شيبة(37375)، وابن بطة في الإبانة (710)، وابن أبي عاصم في السنة (76)، والمروزي في السنة(37)، وصححه الألباني، والأرناؤوط.

وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: (وَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ!)[1].

"فأخبر أنه سيكون في أمته مضاهاة لليهود والنصارى، وهم أهل الكتاب، ومضاهاة لفارس والروم، وهم الأعاجم.

وقد كان ﷺ ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء، وليس هذا إخبارًا عن جميع الأمة، بل قد تواتر عنه: أنه قال: (لا تزال طائفة من أمته ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة، يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم فيه بطاعته).

فعلم بخبره الصدق أنه في أمته قوم متمسكون بهديه، الذي هو دين الإسلام محضًا، وقوم منحرفون إلى شعبة من شعب اليهود، أو إلى شعبة من شعب النصارى، وإن كان الرجل لا يكفر بكل انحراف، بل وقد لا يفسق أيضًا، بل قد يكون الانحراف كفرًا، وقد يكون فسقًا، وقد يكون معصية وقد يكون خطأ. وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع، ويزينه الشيطان؛ فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها، ولا نصرانية أصلًا"[2]، يعني في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾[الفاتحة:6-7].

(وَهَذَا أَمْرٌ) أي: أمر محاكاة الكفار في بعض أفعالهم وأخلاقهم **(قَدْ يَسْرِي)**

---

(1) رواه البخاري(7319).

(2) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 38).

يدب ويدخل (فِي الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الدِّينِ مِنْ الْخَاصَّةِ) يعني: من أهل العلم (كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ مِنْهُمْ ابْنُ عُيَيْنَةَ) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي أبو محمد الهلالي، الكوفي، ثم المكي، حافظ العصر، شيخ الإسلام، مولده: بالكوفة، في سنة سبع ومائة. محدّث الحرم المكيّ، من الموالي، ولد بالكوفة، وسكن مكة وتوفي بها. كان حافظًا ثقة، واسع العلم كبير القدر، قال الشافعيّ: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز. وكان أعور. وحج سبعين سنة. له الجامع في الحديث، وكتاب في التفسير. طلب الحديث وهو حدث، بل غلام، ولقي الكبار، وحمل عنهم علماً جماً، وأتقن، وجود، وجمع، وصنف، وعمر دهرًا، وازدحم الخلق عليه، وانتهى إليه علو الإسناد، ورحل إليه من البلاد، وألحق الأحفاد بالأجداد. توفي سنة (198هـ)[1].

(فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ الْيَهُودِ قَدْ ابْتُلِيَ بِهِ) الضمير في (به) يعود على (كثيراً) (بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْعِلْمِ) يقصد بهم حملة علم الشريعة، لا علوم الدنيا، ومن تلك الأحوال: الحرص على الدنيا ورئاساتها، وكتمان العلم، والحسد، والابتداع في الدين، وغيرها (وَكَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ النَّصَارَى قَدْ ابْتُلِيَ بِهِ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الدِّينِ) من العبَّاد والزهاد الذين ليسوا من ذوي العلم، ومن تلك الأحوال: عبادة الله بغير بصيرة، ومخالفة هدي النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وتعظيم البشر التعظيم المخالف لما جاء به سيد المرسلين (كَمَا يُبْصِرُ ذَلِكَ مَنْ فَهِمَ دِينَ

(1) ينظر: سير أعلام النبلاء (8/ 454)، الأعلام، للزركلي (3/ 105).

الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ) لأن من فهم دين الإسلام فهمًا صحيحًا عرف ما يخالفه من الانحراف العلمي، والانحراف العملي، أما من لم يكن كذلك فلن يميز الحق من الباطل (**ثُمَّ نَزَّلَهُ عَلَى أَحْوَالِ النَّاسِ**) فإذا كانت تلك المشابهة لغير المسلمين من أهل العلم والعبادة؛ فإن مشابهة غيرهم من عامة الناس أشد وأعظم، ولاسيما في عصرنا هذا الذي غُلب فيه المسلمون، وغدا مقود الحياة وتقدمها وحكمها إلى الغرب الكافر، فسارع عدد من المسلمين إلى محاكاة الكفار الغربيين في بعض أخلاقهم، وأعمالهم، وشؤون حياتهم، وهذا نتيجة الانهزام الحضاري الذي يرزح تحت وطأته المسلمون اليوم.

وقد قال ابن خلدون: "المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره، وزيه، ونحلته، وسائر أحواله، وعوائده.

والسبب في ذلك: أن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها، وانقادت إليه؛ إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب"(1).

ومن تلك الأمثلة في عامة الناس المشابهة لغير المسلمين: النظرة السيئة والمشوَّهة للتمسك بالدين، وأهله المستقيمين عليه، والانصراف الكبير إلى الحياة الدنيا ونسيان الآخرة، والحرص على المصلحة الشخصية وتقديمها على كل شيء، والانشغال بتوافه الأمور كالرياضة -خاصة كرة القدم-، وتغيير الهيئات الشخصية

---

(1) مقدمة ابن خلدون (1/ 196).

الخارجية لتوافق ما عليه غير المسلمين؛ في اللباس، وقصات الشعور، وتبرج النساء، وسفرهن بلا محارم، وضعف الغيرة، وغير ذلك من الأحوال السيئة.

وكما أن انحراف الأحوال جرى بين بعض العلماء والعباد -كما تقدم-، وليس في جميعهم، فكذلك هنا؛ فإن هذه الأحوال المقيتة هي في بعض عامة المسلمين، وليست فيهم كلهم.

وهذه الفقرة الموجزة التي ذكرها المصنف في مشابهة العلماء والعباد لليهود والنصارى؛ قد فصلها في بعض كتبه الأخرى، وسأذكر من ذلك ما ذكره في" الاقتضاء"، ولولا نفاسته لما نقلته كله؛ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولهذا كان السلف سفيان بن عيينة وغيره، يقولون: إن من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود! ومن فسد من عبَّادنا ففيه شبه من النصارى. وليس هذا موضع شرح ذلك.

وأنا أشير إلى بعض أمور أهل الكتاب والأعاجم، التي ابتليت بها هذه الأمة، ليجتنب المسلم الحنيف الانحراف عن الصراط المستقيم، إلى صراط المغضوب عليهم، أو الضالين؛ **قال الله سبحانه:** ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة:109].

فذم اليهود على ما حسدوا المؤمنين على الهدى والعلم.

وقد يبتلى بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوع من الحسد لمن هداه

الله بعلم نافع أو عمل صالح، وهو خلق مذموم مطلقًا، وهو في هذا الموضع من أخلاق المغضوب عليهم. **وقال الله سبحانه:** ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾[النساء:36-37].

فوصفهم بالبخل الذي هو البخل بالعلم، والبخل بالمال، وإن كان السياق يدل على أن البخل بالعلم هو المقصود الأكبر، وكذلك وصفهم بكتمان العلم في غير آية، **مثل قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾[آل عمران:187]، الآية، **وقوله:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[البقرة:159].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾[البقرة:174]الآية، **وقال تعالى:** ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة:76].

فوصف المغضوب عليهم بأنهم يكتمون العلم: تارة بخلاً به، وتارة اعتياضًا عن إظهاره بالدنيا، وتارة خوفًا في أن يُحتج عليهم بما أظهروه منه.

وهذا قد يبتلى به طوائف من المنتسبين إلى العلم؛ فإنهم تارة يكتمون العلم بخلاً به، وكراهة لأن ينال غيرهم من الفضل ما نالوه، وتارة اعتياضًا عنه برئاسة

أو مال، فيخاف من إظهاره انتقاص رئاسته، أو نقص ماله، وتارة يكون قد خالف غيره في مسألة، أو اعتزى إلى طائفة قد خولفت في مسألة، فيكتم من العلم ما فيه حجة لمخالفه، وإن لم يتيقن أن مخالفه مبطل؛ ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي وغيره: أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم.

وليس الغرض تفصيل ما يجب أو يحتسب في ذلك، بل الغرض التنبيه على مجامع يتفطن اللبيب بها لما ينفعه الله به.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾[البقرة:91]، بعد أن قال: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:89].

فوصف اليهود: بأنهم كانوا يعرفون الحق قبل ظهور الناطق به، والداعي إليه، فلما جاءهم الناطق به من غير طائفة يهوونها لم ينقادوا له، وأنهم لا يقبلون الحق إلا من الطائفة التي هم منتسبون إليها، مع أنهم لا يتبعون ما لزمهم في اعتقادهم.

وهذا يبتلى به كثير من المنتسبين إلى طائفة معينة في العلم، أو الدين، من المتفقهة، أو المتصوفة أو غيرهم ، أو إلى رئيس معظم عندهم في الدين - غير النبي ﷺ -؛ فإنهم لا يقبلون من الدين رأيًا، ورواية إلا ما جاءت به طائفتهم،

ثم إنهم لا يعلمون ما توجبه طائفتهم، مع أن دين الإسلام يوجب اتباع الحق مطلقًا: رواية ورأيًا من غير تعيين شخص أو طائفة - غير الرسول ﷺ -.

وقال تعالى في صفة المغضوب عليهم: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾[النساء:46]، **ووصفهم بأنهم:** ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾[آل عمران:78]. والتحريف قد فسر بتحريف التنزيل، وبتحريف التأويل.

فأما تحريف التأويل فكثير جدًا، وقد ابتليت به طوائف من هذه الأمة، وأما تحريف التنزيل فقد وقع في كثير من الناس، يحرفون ألفاظ الرسول، ويروون الحديث بروايات منكرة.

وإن كان الجهابذة يدفعون ذلك، وربما يطاول بعضهم إلى تحريف التنزيل، وإن لم يمكنه ذلك، كما قرأ بعضهم: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء:164](1).

وأمّا ليّ الألسنة بما يُظَن أنه من عند الله فكوضع الوضاعين الأحاديث على رسول الله ﷺ، أو إقامة ما يظن أنه حجة في الدين، وليس بحجة، وهذا

---

(1) **قال بعضهم** لأبي عمرو بن العلاء -أحد القراء السبعة-: أريد أن تقرأ: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ﴾، بنصب اسم الله؛ ليكون موسى هو المتكلم لا الله! فقال أبو عمرو: هب أني قرأت هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾[الأعراف: 143]! فبهت المعتزلي"، شرح الطحاوية، لابن أبي العز (1/ 176).

الضرب من أنواع أخلاق اليهود، وذمها كثير لمن تدبره في كتاب الله وسنة رسوله، ثم نظر بنور الإيمان إلى ما وقع في الأمة من الأحداث.

وقال سبحانه عن النصارى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾[النساء:171].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:17]، إلى غير ذلك من المواضع.

ثم إن الغلو في الأنبياء والصالحين قد وقع في طوائف من ضلّال المتعبدة والمتصوفة، حتى خالط كثيراً منهم من مذهب الحلول والاتحاد ما هو أقبح من قول النصارى أو مثله أو دونه.

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾[التوبة:31].

وفسره النبي ﷺ لعدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنهم: «أحلّوا الحرام فأطاعوهم، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم».

وكثير من أتباع المتعبدة يطيع بعض المعظمين عنده في كل ما يأمر به وإن تضمن تحليل حرام أو تحريم حلال، **وقال سبحانه عن الضالين:** ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ﴾[الحديد:27].

وقد ابتلي طوائف من المسلمين من الرهبانية المبتدعة بما الله به عليم.

وقال الله سبحانه: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف:21]. فكان الضالون - بل والمغضوب عليهم - يبنون المساجد على قبور الأنبياء والصالحين، **وقد نهى رسول الله** ﷺ أمته عن ذلك في غير موطن، حتى في وقت مفارقته الدنيا -بأبي هو وأمي- ثم إن هذا قد ابتلي به كثير من هذه الأمة.

ثم إن الضالين تجد عامة دينهم إنما يقوم بالأصوات المطربة، والصور الجميلة، فلا يهتمون بأمر دينهم بأكثر من تلحين الأصوات، ثم تجد قد ابتليت هذه الأمة من اتخاذ السماع المطرب، بسماع القصائد، وإصلاح القلوب والأحوال به ما فيه مضاهاة لبعض حال الضالين، **وقال سبحانه:** ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة:113]. فأخبر أن كل واحدة من الأمتين تجحد كل ما الأخرى عليه.

وأنت تجد كثيرًا من المتفقهة إذا رأى المتصوفة والمتعبدة لا يراهم شيئًا ولا يعدهم إلا جهالاً ضلالاً، ولا يعتقد في طريقهم من العلم والهدى شيئًا، وترى كثيرًا من المتصوفة والمتفقرة لا يرى الشريعة والعلم شيئًا، بل يرى أن المتمسك بها منقطعًا عن الله، وأنه ليس عند أهلها مما ينفع عند الله شيئًا.

وإنما الصواب أن ما جاء به الكتاب والسنة من هذا وهذا حق، وما خالف الكتاب والسنة من هذا وهذا باطل.

وأما مشابهة فارس والروم، فقد دخل في هذه الأمة من الآثار الرومية، قولاً

وعملاً، والآثار الفارسية، قولاً وعملاً، ما لا خفاء به على مؤمن عليم"[1].

وقال أيضًا: "وكان غير واحد من السلف يقول: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون. فمن عرف الحق ولم يعمل به أشبه اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة:44]، ومن عبد الله بغير علم، بل بالغلو، والشرك أشبه النصارى الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[المائدة:77]"[2].

وقال تلميذه ابن القيم: "كان السلف يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى، وهذا كما قالوا؛ فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود من تحريف الكلم عن مواضعه، وكتمان ما أنزل الله إذا كان فيه فوات غرضه، وحسد من آتاه الله من فضله، وطلب قتله، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، ويدعونهم إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم، إلى غير ذلك من الأخلاق التي ذم بها اليهود من الكفر، واللـيِّ، والكتمان، والتحريف، والتحيل على المحارم، وتلبيس الحق بالباطل؛ فهذا شبهه باليهود ظاهر.

(1) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 79) وما بعدها.

(2) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (1/ 82).

وأما من فسد من العباد فعبد الله بمقتضى هواه، لا بما بعث به رسوله ﷺ، وغلا في الشيوخ فأنزلهم منزلة الربوبية، وجاوز ذلك إلى نوع من الحلول أو الاتحاد فشبهه بالنصارى ظاهر.

"فعلى المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البعد، ومن تصور الشبهين والوصفين، وعلم أحوال الخلق؛ علم ضرورته وفاقته إلى هذا الدعاء الذي ليس للعبد دعاء أنفع منه، ولا أوجب منه عليه، وأن حاجته إليه أعظم من حاجته إلى الحياة والنفس؛ لأن غاية ما يقدر بفوتهما موته، وهذا يحصل له بفوته شقاوة الأبد"(1)، **وهذا الدعاء هو**: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾[الفاتحة:6-7].

(وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ) من وجود الابتلاء ببعض أمور الجاهلية، والتشبه بغير المسلمين في خاصة الأمة وعامتها **(فَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ، وَكَانَ مَيتًا فَأَحْيَاهُ اللهُ، وَجَعَلَ لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ)** **يعني**: من أنار الله عقله بالعلم النافع، وقلبه بالإيمان، وجوارحه بالعمل الصالح الموافق لهدي النبوة. وهذه الجمل تناص مع **قوله تعالى**: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[الزمر:22]، **وقوله تعالى**: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي

(1) بدائع الفوائد (2/ 32).

بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:122].

ومعنى الآية الأولى: "أفمن فسح الله قلبه لمعرفته، والإقرار بوحدانيته، والإذعان لربوبيته، والخضوع لطاعته ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ يقول: فهو على بصيرة مما هو عليه ويقين، بتنوير الحق في قلبه، فهو لذلك لأمر الله متبع، وعما نهاه عنه منته فيما يرضيه..."[1].

والتقدير في الآية: "أفمن شرح الله صدره فاهتدى، كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته"[2].

ومعنى الآية الثانية: "يقول تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ﴾ من قبل هداية الله له ﴿مَيْتًا﴾ في ظلمات الكفر، والجهل، والمعاصي، ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرًا في أموره، مهتديًا لسبيله، عارفًا للخير، مؤثرًا له، مجتهدًا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفًا بالشر، مبغضًا له، مجتهدًا في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره. أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات؛ ظلمات الجهل، والغي، والكفر، والمعاصي..."[3].

(1) تفسير الطبري (21/ 277).
(2) الهداية الى بلوغ النهاية (10/ 6324).
(3) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 272).

(؛ لَا بُدَّ أَنْ يُلَاحِظَ أَحْوَالَ الْجَاهِلِيَّةِ) تلك الأعمال والأخلاق الباقية في الأمة من أمور الجاهلية (وَطَرِيقَ الْأُمَّتَيْنِ: الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَالضَّالِّينَ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى) أي: سبيلهم في التدين المخالف لدين الله، وأعمالهم المباينة لما به أُمروا ونُهوا، عن طريق أنبيائهم (فَيَرَى) فيعلم (أَنْ) أنْ هنا: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، وجملة (قَدْ أُبْتُلِيَ) خبرها (قَدْ أُبْتُلِيَ بِبَعْضِ ذَلِكَ) أم لا؟ فإن كان قد ابتلي بذلك فليسارع إلى محو تلك السيئات بفعل الحسنات الماحيات.

وهذا من محاسبة النفس التي لا ينبغي للمسلم أن يغفل عنها.

أنفع ما للخاصة والعامة:

(فَأَنْفَعُ مَا لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ الْعِلْمُ بِمَا يُخَلِّصُ النُّفُوسَ مِنْ هَذِهِ الْوَرَطَاتِ، وَهُوَ: إتْبَاعُ السَّيِّئَاتِ الْحَسَنَاتِ. وَالْحَسَنَاتُ: مَا نَدَبَ اللهُ إلَيْهِ عَلَى لِسَانِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ مِنْ الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ.

وَمِمَّا يُزِيلُ مُوجِبَ الذُّنُوبِ: الْمَصَائِبُ الْمُكَفِّرَةُ، وَهِيَ كُلُّ مَا يُؤْلِمُ مِنْ هَمٍّ أَوْ حُزْنٍ، أَوْ أَذًى فِي مَالٍ أَوْ عِرْضٍ أَوْ جَسَدٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، لَكِنْ لَيْسَ هَذَا مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ).

قوله: (فَأَنْفَعُ مَا لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ) لحملة العلم، وأهل العبادة، وسائر الناس من غيرهم (الْعِلْمُ بِمَا يُخَلِّصُ النُّفُوسَ مِنْ هَذِهِ الْوَرَطَاتِ) أي: إدراك ما يخلص

النفوس الإنسانية من تبعات المعاصي المهلكة، **والورطات**: جمع ورطة، **والوَرْطَةُ**: بليّةٌ يَقَعُ فيها الإنسانُ، **وأصل الورطة**: الهوة العميقة في الأرض، ثم استعير للناس إذا وقعوا في بلية يعسر المخرج منها. وقيل: وأصل الورطة: أرض مطمئنة لا طريق فيها[1].

ثم سميت الذنوب الكبار ورطات؛ كما في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: (إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الأُمُورِ، الَّتِي لاَ مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا: سَفْكَ الدَّمِ الحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ)[2]. **وعلى ذلك جرى المصنف في تسمية الخطايا بالورطات** **(وَهُوَ: إِتْبَاعُ السَّيِّئَاتِ الْحَسَنَاتِ)** هذا هو مخلص النفوس من عواقب سيئاتها، وتقدم بيانه **(وَالْحَسَنَاتُ: مَا نَدَبَ اللهُ إِلَيْهِ عَلَى لِسَانِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ مِنْ الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ)** **أي**: والحسنات الماحيات للسيئات هي ما دعا الله إلى فعله عن طريق الرسل عليهم السلام من إعمال الإيمان، والأخلاق الحميدة اللازمة والمتعدية، والصفات الحسنة التي ينبغي التحلي بها.

المصائب المكفرة:

(وَمِمَّا يُزِيلُ مُوجِبَ الذُّنُوبِ) سوء عاقبتها، وقبح آثارها **(: الْمَصَائِبُ الْمُكَفِّرَةُ)** **المصائب**: جمع مصيبة، وهي: كل مكروه يحل بالإنسان، وقد فسرها

---

(1) ينظر: العين (7/ 446)، النهاية في غريب الحديث والأثر (5/ 174)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (31/ 296).

(2) رواه البخاري(6863).

المصنف بالمثال -كما سيأتي-، وقد قيدها بقوله:" المكفرة"؛ ليشير إلى أن هناك مصائب غير مكفرة، وهي مصيبة الكافر، والمصيبة التي لا يصبر المسلم عندها **(وَهِيَ كُلُّ مَا يُؤْلِمُ مِنْ هَمٍّ أَوْ حُزْنٍ، أَوْ أَذًى فِي مَالٍ)**؛ كسرقة ماله، أو خسارة في تجارة **(أَوْ عِرْضٍ)** **العرض**: "ما يمدح ويذم من الإنسان، سواء كان في نفسه، أو سلفه، أو من يلزمه أمره"[1]، **ومما يؤذي المسلم في عرضه** أن تسلط عليه ألسنة بـ: الغيبة، أو النميمة، أو الكذب والبهتان، أو الطعن، أو السب، والشتم، وغير ذلك **(أَوْ جَسَدٍ)** كحصول مرض حسي أو معنوي **(أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ)** كأن يبتلى بمكروه فيمن يحب **(لَكِنْ لَيْسَ هَذَا مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ)** **يعني**: ليس هذا من الحسنات التي يقوم بها العبد لتكفير سيئاته؛ كالصلاة، والصيام، والحج؛ كما تقدم، بل هذا حاصل بقدر الله تعالى، تفضل على عباده بتكفير خطاياهم به، إذا صبروا عنده واحتسبوا.

ومن النصوص الدالة على ذلك:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، **وَعَنْ** أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ)[2].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ

---

(1) المعجم الوسيط (2/ 594).

(2) رواه البخاري(5641).

يُوعَكُ، فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ) قَالَ: فَقُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَجَلْ) ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ، فَمَا سِوَاهُ إِلَّا حَطَّ اللهُ بِهِ سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا)[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَا يَزَالُ البَلاَءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)[2].

وعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ لَيْلَةَ العَقَبَةِ-: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ، وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: (بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ، وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلاَ تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَى اللهِ؛ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ) فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ[3].

---

(1) رواه البخاري(5648)، ومسلم(2571).

(2) رواه البخاري في الأدب المفرد(494)، والترمذي(2399)، وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (7/ 91)، وأبو يعلى(5912)، والبزار(7998)، والحاكم(7879) **وقال:** "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ"، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

(3) رواه البخاري(18)، ومسلم(1709).

وفي هذه الوصية المباركة الوجيزة اقتصر المصنف على بعض الأعمال المكفرة للسيئات، لكنه في بعض مؤلفاته الأخرى زاد عليها؛ فقال: "والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبته تندفع عنه بعشرة أسباب: أن يتوب فيتوب الله عليه؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، أو يستغفر فيغفر له، أو يعمل حسنات تمحوها؛ فإن الحسنات يذهبن السيئات، أو يدعو له إخوانه المؤمنون ويشفعون له حيًا وميتًا، أو يهدون له من ثواب أعمالهم؛ لينفعه الله به، أو يشفع فيه نبيه محمد ﷺ، أو يبتليه الله في الدنيا بمصائب تكفر عنه، أو يبتليه في البرزخ والصعقة، فيكفر بها عنه أو يبتليه في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه، أو يرحمه أرحم الراحمين، فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه"[(1)].

شرح الجملة الثالثة من الحديث:

(فَلَمَّا قَضَى بِهَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ حَقَّ اللهِ: مِنْ عَمَلِ الصَّالِحِ، وَإِصْلَاحِ الْفَاسِدِ؛ قَالَ: (وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) وَهُوَ حَقُّ النَّاسِ.

وَجِمَاعُ الْخُلُقِ الْحَسَنِ مَعَ النَّاسِ: أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَك بِالسَّلَامِ وَالْإِكْرَامِ، وَالدُّعَاءِ لَهُ، وَالِاسْتِغْفَارِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَالزِّيَارَةِ لَهُ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَك مِنْ التَّعْلِيمِ، وَالْمَنْفَعَةِ، وَالْمَالِ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَك فِي دَمٍ، أَوْ مَالٍ، أَوْ عِرْضٍ. وَبَعْضُ هَذَا وَاجِبٌ، وَبَعْضُهُ مُسْتَحَبٌّ).

---

(1) التحفة العراقية (ص: 57).

قولـه: (فَلَمَّـا قَـضَى) قـضى: أدَّى، والفاعـل: رسـول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ (بِهَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ) يعني: الجملتين، والكلمة: تطلق على القول المفرد، وعلى الجملة، و"الْكَلِمَة لُغَةً: تطلق على الْجمل المفيدة؛ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾[التوبة:40]، أَي: لَا إِلَه إِلَّا الله ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ﴾[آل عمران:64]، ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾[آل عمران:64]، إِشَارَة إِلَى قَوْله: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ وَمَا بعده، فِي حَدِيث الصَّحِيحَيْنِ: (الْكَلِمَة الطّيبَة صَدَقَة)، (وَأفضل كلمة قَالَهَا شَاعِر: كلمة لبيد: (أَلا كل شَيْء مَا خلا الله باطِلُ ...)"[1].

(حَقَّ اللهِ: مِنْ عَمَلِ الصَّالِحِ) وهو قوله: (اتق الله حيثما كنت) (وَإِصْلَاحِ الْفَاسِدِ) وهو قوله: (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) (؛ قَالَ: (وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ، وَهُوَ حَقُّ النَّاسِ).

قال ابن القيم: "جمع النبي ﷺ بين تقوى الله، وحسن الخلق؛ لأن تقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو إلى محبته"[2].

وقوله: (وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) قال ابن رجب في بيان هذه الجملة النبوية: "وقوله ﷺ: (وخالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسن) هذا من خصال التقوى، ولا

(1) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (1/ 22).

(2) الفوائد لابن القيم (ص: 54).

تَتِمُّ التقوى إلا به، وإنَّما أفرده بالذكر للحاجة إلى بيانه؛ فإنَّ كثيراً من النَّاس يظنُّ أنَّ التقوى هي القيامُ بحقِّ اللهِ دونَ حقوق عباده، فنصَّ له على الأمر بإحسان العشرة للناس؛ فإنَّه كان قد بعثه إلى اليمن معلماً لهم ومفقهاً وقاضياً، ومَنْ كان كذلك فإنَّه يحتاج إلى مخالقَةِ النَّاسِ بخلق حسن ما لا يحتاج إليه غيرُه ممن لا حاجةَ للنَّاس به ولا يُخالطهم.

وكثيراً ما يغلب على من يعتني بالقيام بحقوق الله، والانعكاف على محبته وخشيته وطاعته إهمالُ حقوق العباد بالكُلِّيَّة أو التقصير فيها، والجمعُ بَيْنَ القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيزٌ جداً، لا يَقوى عليه إلاَّ الكُمَّلُ مِنَ الأنبياءِ والصديقين.

وقال الحارث المحاسبي: ثلاثةُ أشياء عزيزة أو معدومة: حسنُ الوجه مع الصِّيانة، وحسن الخلق مع الدِّيانة، وحُسنُ الإخاء مع الأمانة، وقال بعضُ السَّلف: جلس داود عَلَيْهِ السَّلَامُ خالياً، فقال الله عز وجل: مالي أراك خالياً؟ قال: هجرتُ الناسَ فيك يا ربَّ العالمين، قال: يا داود، ألا أدلُّك على ما تستبقي به وجوه الناس، وتبلغ فيه رضاي؟ خالق النَّاسَ بأخلاقهم، واحتجز الإيمانَ بيني وبينك.

وقد عدَّ الله في كتابه مخالقة الناس بخلق حسن من خصال التقوى، بل بدأ بذلك في قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران:134].

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسناده عن سعيد المقبري قال: بلغنا أنَّ رجلاً جاء إلى عيسى بنِ مريمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقال: يا معلِّمَ الخير، كيف أكون تقياً للهِ عز وجل كما ينبغي له؟

قالَ: بيسيرٍ من الأمر: تُحِبُّ الله بقلبك كُلِّه، وتعمل بكدحك وقوَّتك ما استطعت، وترحمُ ابن جنسك كما ترحم نفسَك، قالَ: من ابنُ جنسي يا معلِّم الخير؟ قال: ولَدُ آدم كلهم، وما لا تُحب أنْ يؤتى إليك، فلا تأته لأحدٍ وأنت تقيٌّ للهِ عز وجل كما ينبغي له"[1].

(وَجِمَاعُ) ملخص وفحوى **(الْخُلُقِ الْحَسَنِ مَعَ النَّاسِ: أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَك بِالسَّلَامِ وَالْإِكْرَامِ، وَالدُّعَاءِ لَهُ، وَالِاسْتِغْفَارِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْه، وَالزِّيَارَةِ لَهُ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَك؛ مِنْ التَّعْلِيمِ، وَالْمَنْفَعَةِ، وَالْمَالِ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَك فِي دَمٍ، أَوْ مَالٍ، أَوْ عِرْضٍ. وَبَعْضُ هَذَا وَاجِبٌ، وَبَعْضُهُ مُسْتَحَبٌّ)**.

في هذه الفقرة عرف الشيخ الخلق الحسن مع الناس تعريفًا بالمثال؛ فذكر بعض الأخلاق الحسنة التي يعامل بها المرء غيره.

وقال الماوردي: "وحسن الخلق: أن يكون سهل العريكة، لين الجانب، طليق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة"[2].

(1) جامع العلوم والحكم (2/ 538).

(2) أدب الدنيا والدين (ص: 243).

وهذا تعريف بالثمرة أيضًا لا بالحد، وقد ساق الغزالي في "الإحياء" تعريفات أخرى عن بعض الصحابة والتابعين وهي كالمثال، وليست جامعة مانعة، وقبل ذكرها قال: "اعلم أن الناس قد تكلموا في حقيقة حسن الخلق، وأنه ما هو، وما تعرضوا لحقيقته، وإنما تعرضوا لثمرته، ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له، وما كان حاضراً في ذهنه، ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب..."[(1)].

وبعد ذلك شرع في الحديث عن التعريف بالحد الذي ارتضاه، لكنه ساقه في كلام طويل[(2)].

قوله: (**أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَك**) من الأقارب وغيرهم (**بِالسَّلَامِ**) وذلك عند الهجر والقطيعة

(**وَالْإِكْرَامِ**) بالهدية ونحوها، ومن الترغيب في هذا الخلق الكريم: قول الله تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾[الرعد:21]، **وعَنْ** عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لَيْسَ الوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنِ الوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قطعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا)[(3)].

---

(1) إحياء علوم الدين (3/ 52).

(2) إحياء علوم الدين (3/ 53).

(3) رواه البخاري(5991).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: (لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ)[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (تَهَادُوْا تَحَابُّوا)[2].

زاد أحمد وأبو داود الطيالسي: (فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَغَرَ الصَّدْرِ)، أي: "غيظه وشدة التهابه"[3].

وعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (لاَ يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ: فَيُعْرِضُ هَذَا، وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ)[4].

وقوله: (وَالدُّعَاءِ لَهُ) عمومًا بما يجلب له خيراً، أو يدفع عنه ضراً في العاجل والآجل، **ومن الدعاء:** الاستغفار **(وَالِاسْتِغْفَارِ)** طلب المغفرة لذنوبه، **وفي الترغيب بهذا الخلق:** ما ورد عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

(1) رواه مسلم(2558).

(2) رواه أحمد(9250)، والبخاري في الأدب المفرد(594)، والترمذي(2130)، وأبو يعلى(6148)، وأبو داود الطيالسي(2453)، والبيهقي في الشعب(8569)، وحسنه ابن حجر في بلوغ المرام من أدلة الأحكام (ص: 361)، وكذا والأرناؤوط، وصححه الألباني.

(3) مطالع الأنوار على صحاح الآثار (6/ 229).

(4) رواه البخاري (6077)، ومسلم(2560).

(مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ)[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَعَى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّجَاشِيَّ صَاحِبَ الحَبَشَةِ، يَوْمَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَقَالَ: (اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ)[2].

ومن امتثال هذا الخلق: ما جاء عن أحمد بن حنبل قال: "ما بت منذ أربعين سنة - أو قال ثلاثين سنة - إلا وأنا أدعو الله للشافعي، وأستغفر له"[3].

وقوله: (وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ) أي: مدحه بالحق، وذكره بالخير الذي هو فيه في مشهده ومغيبه. وفي العمل بهذا الخلق، **والترغيب به**:

جاء عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: (إِنَّ فِيكَ لَخُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ)، قُلْتُ: وَمَا هُمَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: (الْحِلْمُ وَالْحَيَاءُ)، قُلْتُ: قَدِيمًا كَانَ أَوْ حَدِيثًا؟ قَالَ: (قَدِيمًا)، قُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقَيْنِ أَحَبَّهُمَا اللهُ)[4].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْمُهَاجِرِينَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ الْأَنْصَارُ

---

(1) رواه مسلم(2732).

(2) رواه البخاري(1327)، ومسلم(951).

(3) مناقب الشافعي للبيهقي (2/ 254).

(4) رواه أحمد (17828)، والبخاري في الأدب المفرد(584)، وأبو داود (5225)، والنسائي في الكبرى(7699)، وابن حبان(4541)، والبيهقي في الشعب (8560)، وأبو يعلى(6848)، وابن أبي شيبة(25342)، والخرائطي في مكارم الأخلاق(29)، والطبراني في الكبير(5313) والأوسط(418)، وصححه ابن حبان، وحسنه الألباني.

بِالْأَجْرِ كُلِّهِ. قَالَ:(لَا، مَا دعوتُمُ الله لهم، وأَثْنَيْتُم عَلَيهِم بِه)[1].

وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا؛ فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ)[2].

وقوله: (وَالزِّيَارَةِ لَهُ) لتفقد أحواله، والجلوس معه، ولاسيما عند حصول مناسبة ترغب في الزيارة؛ كمرض، أو سفر، أو تهنئة، أو عزاء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ" أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ، عَلَى مَدْرَجَتِهِ، مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ"[3].

وعَنْ ثَوْبَانَ، مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ عَادَ مَرِيضًا، لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ)[4].

---

(1) رواه البخاري في الأدب المفرد(217)، وأبو داود(4812)، والترمذي(2487)، والبيهقي في الشعب(8685)، وصححه الألباني، والأرناؤوط.

(2) رواه الترمذي(2035)، والنسائي في الكبرى(9937)، والبيهقي في الدعوات الكبير(655)، والطبراني في الصغير(1183)، وابن حبان(3413)، وابن السني في عمل اليوم والليلة(275)، والبزار(2601)، وصححه الترمذي، وابن حبان، والألباني.

(3) رواه مسلم(2567).

(4) رواه مسلم(2568).

ومن امتثال هذا الخلق:

"**قال ابن الأهدل**: كان أحمد من خواص أصحاب الشافعي، وكان الشافعيّ يأتيه إلى منزله، **فعوتب في ذلك فأنشد:**

قــالوا يــزورُك أحمــدٌ وتــزورُه ... قلــتُ الفـضائلُ لا تُفـارِقُ مَنْزِلَـهْ

إن زارني فبفــــضْلِه أو زُرْتُـــــه ... فلفضلِه والفضلُ في الحاليْن لَـهْ"[1]

وقوله: (وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَك؛ مِنْ التَّعْلِيمِ) يعني: أن تعامل بالإحسان بالعطاء من أساء إليك بالمنع من هذه المصالح وغيرها؛ فمن منعك تعليمك أمراً لك فيه مصلحة فلا تقابل سيئته بمثلها متى جاء يستعلمك أو يستفتيك وعندك علم بما سأل؛ فإن أمانة العلم، وفضل العفو يقتضيان إجابته. **عَنْ** أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: قَالَ: (مَنْ كَتَمَ عِلْمًا يَعْلَمُهُ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَجَّمًا بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ)[2].

وعند ابن ماجه: (... مِمَّا يَنْفَعُ اللهُ بِهِ فِي أَمْرِ النَّاسِ، فِي الدِّينِ...)[3].

وجاء بلفظ: (مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ جِيءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ)[4].

---

(1) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (3/ 188).

(2) رواه أحمد(10597)، وابن ماجه(265)، وابن أبي شيبة(26454)، وابن حبان(95)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله(6)، والطبراني في الأوسط(7532)، وصححه الألباني.

(3) سنن ابن ماجه (1/ 97).

(4) رواه أحمد(7571)،وأبو داود(3658)، والترمذي(2649)، وابن ماجه(266)، والبغوي (140)، والبيهقي في الشعب(1612)، وابن حبان(95)، وتمام في فوائده(1557)، والبزار =

(وَالْمَنْفَعَةِ) كمشورة، وما فيه مصلحة وإعانة على دين أو دنيا، **فعن** عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ)[1].

(وَالْمَالِ) فمن بخل عليك فإن الخلق الكريم يأمر بعدم البخل عليه، ولا تجازِ السيئة بالسيئة.

وقوله: (وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ فِي دَمٍ) بقتل قريب، فيكون العفو لأولياء الدم عن القاتل ابتغاء مرضاة الله، إذا كان القاتل أهلاً للعفو، **قال تعالى:** ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى:40].

ومن العفو في الظلم في الدم: عفو الإنسان عمن جرحه، وفي فضله قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾[المائدة:45].

(أَوْ مَالٍ) كظلمه له بأخذه منه بغير حق؛ بسرقة، أو خيانة، أو غش، أو غيرها؛

= (9297)، والقضاعي(432)، وابن الأعرابي(73)، وابن المقرئ(228)، والخطيب في الكفاية في علم الرواية (ص: 37)، والطبراني في الأوسط(2290) والصغير(160)، والشجري في ترتيب الأمالي(216)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله(3)، والحاكم (344)، وصححه الألباني، والأرناؤوط.

(1) رواه البخاري(6951)، ومسلم(2580).

كما عفا صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ عن الذي سرق بُرده؛ **فعن** صفوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا سَرَقَ بُرْدَةً لَهُ فَرَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَ بِقَطْعِهِ فقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ تَجَاوَزْتُ عَنْهُ قَالَ: (أَبَا وَهْبٍ، أَفَلَا كَانَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِينَا بِهِ) فَقَطَعَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ[1].

(أَوْ عِرْضٍ) العرض: موضع ذم الإنسان ومدحه، ويدخل في شينه وعفو الإنسان عنه ابتغاء وجه الله: الغيبة، والنميمة، والسب، والقذف له أو لأهله، ونحو ذلك، كما عفا الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن مسطح؛ قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "... فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ بَرَاءَتِي[يعني: آيات سورة النور]، قَالَتْ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ؛ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللهِ لَا أُنْفِقُ عَلَيْهِ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ. **فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى﴾ **إِلَى قَوْلِهِ**: ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾[النور: 22]، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي. فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا"[2].

وما أجمل قول الشاعر المقنع الكندي -وهو يتمثل هذا الخلق الكريم بأبعاده الكثيرة، ويدعو إليه حين كان يجازي بالحسنة سيئة قومه- **حيث يقول:**

وإن الذي بَيْني وبينَ بني أبي   وبين بني عَمِّي لمُخْتَلِفٌ جِدًّا

(1) رواه أحمد(15305)، والنسائي في الكبرى(7323) والصغرى(4878)، والطبراني في الكبير (7337)، والضياء في المختارة(7)، وصححه الألباني، والأرناؤوط.

(2) رواه البخاري(4750)، ومسلم(2770).

أَراهُـمْ إِلـى نَـصري بِطـاءً وَإِنْ هُـمُ دَعَـوني إِلَــى نَـصرٍ أَتيــتُهُمُ شَــدَّا
فإِن أَكَلوُا لحميْ وَفَرْتُ لحُومَهمْ وإِن هَدَموا مجديْ بَنَيْتُ لهُمْ مجدا
وإِن ضَيَّعوا غَيْبي حَفِظْتُ غيوبهم وإِن هُمْ هَوَوا غَيِّي هويتُ لهم رُشْدا
وإِن زَجَروا طيراً بنَحْسٍ تَمُرُّ بي زَجَرْتُ لهم طيراً تَمُرُّ بهم سَعْدا
وإِن بادهوني بالعداوةِ لم أكنْ أُبادِهْهمْ إِلا بما يُثْبِتُ الرُّشْدا
ولا أحملُ الحقدَ القديمَ عليهمُ وليس رئيسُ القومِ من يحملُ الحِقْدا
لَهُمْ جُلُّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أُكَلِّفْهُمُ رِفْدَا
وَإِنْ أَجْمَعُوا صرْمِي مَعًا وَقَطِيْعَتِي جَمَعْتُ لَهُمْ مِنِّي مَعَ الصِّلَةِ الوُدَّا(1)

(وَبَعْضُ هَذَا وَاجِبٌ) كصلة الرحم ولو قَطعت، **قال تعالى**: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[محمد:23]، **ومن الواجب أيضًا**: إعطاء الأبوين عند حاجتهما، ولو حَرما هذا الولد، وأعطيا بقية إخوته أو أخواته **(وَبَعْضُهُ مُسْتَحَبٌّ)** كبقية الأخلاق.

(1) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (1/ 67)، الصداقة والصديق (ص: 222)، أمالي القالي (1/ 281).

خلق النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

(وَأَمَّا الْخُلُقُ الْعَظِيمُ الَّذِي وَصَفَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ فَهُوَ: الدِّينُ الْجَامِعُ لِجَمِيعِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مُطْلَقًا، هَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ، وَهُوَ تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ كَمَا (قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ). وَحَقِيقَتُهُ: الْمُبَادَرَةُ إِلَى امْتِثَالِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَى، بِطِيبِ نَفْسٍ، وَانْشِرَاحِ صَدْرٍ).

قوله: (وَأَمَّا الْخُلُقُ الْعَظِيمُ الَّذِي وَصَفَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:4]، (فَهُوَ: الدِّينُ الْجَامِعُ لِجَمِيعِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مُطْلَقًا، هَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ) قال الطبري: "عن أبن أبي نجيح، عن مجاهد، قوله: ﴿خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال: الدين"(1).

وقال ابن كثير: "قال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وهو الإسلام، وكذلك قال مجاهد، وأبو مالك، والسدي، والربيع بن أنس، وكذا قال الضحاك وابن زيد"(2).

(وَهُوَ تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ) أي: العمل به، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ"(3).

---

(1) تفسير الطبري (23/ 529).

(2) تفسير ابن كثير (8/ 206).

(3) رواه البخاري(817)، ومسلم(484).

قال النووي: " معنى يتأول القرآن: يعمل ما أُمر بـه"[1]، (كَمَا قَالَـتْ عَائِشَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ) عن سعد بن هشام بن عـامر، قـال: يـا أم المـؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: (ألستَ تقرأُ القرآنَ؟) قلتُ: بلى، قالت: (فإنَّ خلقَ نبي الله ﷺ كان القرآن)[2].

وفي روايـة: ".. أما تقـرأ القـرآن؟؛ قـول الله عـز وجـل: ﴿وَإِنَّـكَ لَعَلـى خُـلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:4]"[3].

(وَحَقِيقَتُهُ: الْمُبَادَرَةُ إِلَى امْتِثَالِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَى، بِطِيبِ نَفْسٍ، وَانْشِرَاحِ صَـدْرٍ)

يعني: أن الخلق العظيم معناه: المسارعة إلى العمل بالدين عن رضا وحب.

ومعنى كلام المصنف: أن الخلق العظيم هو الدين كله، كما قـال ابـن القيـم رَحِمَهُٱللَّهُ: "الدين كله خُلق، فمن زاد عليك في الخُلق: زاد عليك في الدين"[4].

وقال أيضًا –عند قول النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: (الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَـدْرِكَ)[5]–: "... وهـذا يـدل علـى أن حسن الخلـق: هـو الـدين كلـه، وهو: حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام؛ ولهذا قابله بالإثم"[6].

---

(1) شرح النووي على مسلم (4/ 201).

(2) رواه مسلم (746).

(3) مسند أحمد(24601)

(4) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (2/ 294).

(5) رواه مسلم (2553).

(6) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (2/ 292).

ولهذا جاء في الحديث المشهور عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ)[1]. **وفي رواية:** (مكارم الأخلاق)[2]. **وفي رواية:** (حَسَن الأخلاق)[3].

قال ابن جزي -عند قوله تعالى-: "﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:4]: هذا ثناء على خلق رسول الله ﷺ، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (كان خلق رسول الله ﷺ القرآن)، تعني: التأدب بآدابه، وامتثال أوامره. وعبر ابن عباس عن الخلق بالدين والشرع وذلك رأس الخلق، وتفصيل ذلك: أن رسول الله ﷺ جمع كل فضيلة، وحاز كل خصلة جميلة، فمن ذلك: شرف النسب، ووفور العقل، وصحة الفهم، وكثرة العلم، وشدّة الحياء، وكثرة العبادة والسخاء والصدق والشجاعة والصبر والشكر والمروءة، والتودد والاقتصاد والزهد، والتواضع والشفقة والعدل، والعفو وكظم الغيظ وصلة الرحم وحسن المعاشرة، وحسن التدبير وفصاحة اللسان، وقوة الحواس، وحسن الصورة وغير ذلك، حسبما ورد في أخباره وسيره ﷺ"[4].

---

(1) رواه أحمد(8952)، والبخاري في الأدب المفرد(273)، والبيهقي في الآداب(153)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (1)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار(4432)، وابن أبي شيبة (31773)، والحاكم (4221) **وقال:** "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ" ووافقه الذهبي، وصححه ابن عبد البر. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (24/ 334).

(2) رواه البيهقي في الكبرى(20782)، والبزار(8949).

(3) رواه مالك في الموطأ(686).

(4) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (2/ 398).

وقال ابن كثير-بعد ذكر الحديث السابق-: ومعنى هذا: أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صار امتثال القرآن أمرًا ونهيًا سجية له، وخلقًا تطبعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم، والشجاعة والصفح والحلم، وكل خلق جميل؛ كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقًا، ولا مسست خزًا ولا حريرًا، ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ. وعن البراء قال: (كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأحسن الناس خلقًا، ليس بالطويل ولا بالقصير) والأحاديث في هذا كثيرة، ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب الشمائل.

عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له قط، ولا ضرب امرأة، ولا ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيِّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله فيكون هو ينتقم لله عَزَّوَجَلَّ(1).

(1) تفسير ابن كثير (8/ 208).

(وَأَمَّا بَيَانُ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ فِي وَصِيَّةِ اللهِ فَهُوَ: أَنَّ اسْمَ تَقْوَى اللهِ يَجْمَعُ فِعْلَ كُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ إِيجَابًا وَاسْتِحْبَابًا، وَمَا نَهَى عَنْهُ تَحْرِيمًا وَتَنْزِيهًا، وَهَذَا يَجْمَعُ حُقُوقَ اللهِ، وَحُقُوقَ الْعِبَادِ.

لَكِنْ لَمَّا كَانَ تَارَةً يَعْنِي بِالتَّقْوَى خَشْيَةَ الْعَذَابِ الْمُقْتَضِيَةَ لِلِانْكِفَافِ عَنْ الْمَحَارِمِ؛ جَاءَ مُفَسَّرًا فِي حَدِيثِ مُعَاذٍ، وَكَذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ: (قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: (تَقْوَى اللهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ)، قِيلَ: وَمَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ قَالَ: (الْأَجْوَفَانِ: الْفَمُ وَالْفَرْجُ)، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا)، فَجَعَلَ كَمَالَ الْإِيمَانِ فِي كَمَالِ حُسْنِ الْخُلُقِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِيمَانَ كُلَّهُ تَقْوَى اللهِ.

وَتَفْصِيلُ أُصُولِ التَّقْوَى وَفُرُوعِهَا لَا يَحْتَمِلُهُ هَذَا الْمَوْضِعُ؛ فَإِنَّهَا الدِّينُ كُلُّهُ؛ لَكِنَّ يَنْبُوعَ الْخَيْرِ وَأَصْلَهُ: إِخْلَاصُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ عِبَادَةً وَاسْتِعَانَةً كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:5]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:123]. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[الشورى:10]. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾[العنكبوت:17]. بِحَيْثُ يَقْطَعُ الْعَبْدُ تَعَلُّقَ قَلْبِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ انْتِفَاعًا بِهِمْ، أَوْ عَمَلًا لِأَجْلِهِمْ، وَيَجْعَلُ هِمَّتَهُ رَبَّهُ تَعَالَى، وَذَلِكَ بِمُلَازَمَةِ الدُّعَاءِ لَهُ فِي كُلِّ مَطْلُوبٍ، مِنْ فَاقَةٍ وَحَاجَةٍ وَمَخَافَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالْعَمَلِ لَهُ بِكُلِّ مَحْبُوبٍ. وَمَنْ أَحكَمَ هَذَا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُوصَفَ مَا يُعْقِبُهُ ذَلِك).

مدخل حسن الخلق في التقوى:

قوله: (وَأَمَّا بَيَانُ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ) يعني: ما يتعلق بحسن الخلق (فِي وَصِيَّةِ اللهِ) وهي الوصية بالتقوى في آيات كثيرة، وقد تقدم بعضها (فَهُوَ: أَنَّ اسْمَ تَقْوَى اللهِ يَجْمَعُ فِعْلَ كُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ إِيجَابًا) كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:3]، فقد فسر التقوى في الآية الثانية بالإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، والإنفاق الذي يشمل: الزكاة والصدقة (وَاسْتِحْبَابًا) كقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران:134]. فقد فسر التقوى في الآية الثانية بالإنفاق في السراء والضراء وهذا يشمل الزكاة والصدقة، وهو هنا إلى الصدقة أقرب، وبكظم الغيظ، والعفو عن الناس، وهذان الخلقان من الأمور المستحبة (وَمَا نَهَى عَنْهُ تَحْرِيمًا وَتَنْزِيهًا) كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:130]، فاجتناب الربا من تقوى الله تعالى، وكذلك ترك المكروهات ابتغاء وجه الله من تقوى الله؛ لأن تركها يعين على ترك الحرام (وَهَذَا يَجْمَعُ حُقُوقَ اللهِ، وَحُقُوقَ الْعِبَادِ) يعني: القيام بواجبات الشرع ومستحباته، وترك محرماته ومكروهاته؛ منها ما يكون من حقوق الله تعالى؛ فالواجبات كالصلاة، والمستحبات كنوافلها، والمحرمات كالربا، والمكروهات

كتغميض العينين في الصلاة، ومن حقوق العباد؛ فالواجبات كبر الوالدين، والمستحبات؛ كالابتسامة في وجه المسلم، والمحرمات كالغيبة، والمكروهات كترك السؤال عن الجار متى غاب.

(لَكِنْ لَمَّا كَانَ) أي: الخلق الحسن (تَارَةً) **التارة**: المدة والحين (يَعْنِي بِالتَّقْوَى خَشْيَةَ الْعَذَابِ الْمُقْتَضِيَةَ لِلانْكِفَافِ عَنْ الْمَحَارِمِ) **كقوله تعالى**: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[البقرة:278]، **قال ابن كثير**: "﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ أي: خافوه وراقبوه فيما تفعلون"[1]، **وكقول رسول الله** عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (اتَّقُوا اللهَ، وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ)[2] (جَاءَ) **أي**: حسن الخلق (مُفَسَّرًا) **أي**: مذكوراً على سبيل الخصوص مع دخوله في العموم (فِي حَدِيثِ مُعَاذٍ) المتقدم (وَكَذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ: (قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: (تَقْوَى اللهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، قِيلَ: وَمَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ قَالَ: (الْأَجْوَفَانِ[3]: الْفَمُ وَالْفَرْجُ)[4]. **ففي هذا النص الشريف** ذكر حسن الخلق منفرداً، مع كونه داخلاً في

---

(1) تفسير ابن كثير (1/ 553).

(2) رواه مسلم(1623).

(3) **قال الزبيدي**: "**والاجْوَفَانِ**: الْبَطْنُ، والْفَرْجُ، نَقَلَهُ الجَوْهَرِيُّ، **وَمِنْه الحديثُ**: (وإِن أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيكُم الأَجْوَفَانِ)، وإِنَّمَا سمِّيا لاِتِّسَاعِهِمَا. **والجَوَفُ**- مُحَرَّكَةً-: السَّعَةُ، يُقَال: شَيْءٌ أَجْوفُ بَيِّنُ الْجَوَفِ: أَي: وَاسِعٌ"، تاج العروس (23/ 108).

(4) رواه أحمد(9096)، والبخاري في الأدب المفرد(289)، والترمذي (2004)، وابن حبان (476)، والبيهقي(4570)، وأبو داود الطيالسي(2596)، والبزار(9658)، والخرائطي في =

تقوى الله تعالى (وَفِي الصَّحِيحِ) إن كان يقصد في الحديث الصحيح فلا إشكال، وإن كان يقصد في الصحيحين أو أحدهما فإني لم أجد الحديث في أحد منهما، بل رواه غيرهما، كما سيأتي (عَـنْ عَبْـدِ اللهِ بْـنِ عُمَـرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) والذي وجدته في المصادر التي أثبتُّها الحاشية أن الحديث من مسند أبي هريرة، وليس من مسند ابن عمر، فالله أعلم، وقد جاء من مسند ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في هذا الباب: قول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:(إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقًا)[1] (قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا)[2]، فَجَعَلَ كَمَالَ الْإِيمَانِ فِي كَمَالِ حُسْنِ الْخُلُقِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِيمَانَ كُلَّهُ تَقْوَى اللهِ) وإنما جعل حسن الخلق من الإيمان؛ " لأن كمال الإيمان يوجب حسن الخلق، والإحسان إلى كافة الإنسان"[3]؛ ولهذا " كان المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أحسن الناس خلقًا؛ لكونه أكملهم إيمانًا"[4].

= مكارم الأخلاق(59)، **قال العراقي:** " صحيح الإسناد"، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (3/ 1101)، وصححه الترمذي وابن حبان والألباني.

(1) رواه البخاري (6035).

(2) رواه أحمد(7402)، وأبو داود(4682)، والترمذي(1162)، والبيهقي في الكبرى (20783)، وابن حبان(479)، والطبراني في الأوسط(4420)، والدارمي(2834)، والبزار (7945)، وابن أبي شيبة(25321)، والخرائطي في مكارم الأخلاق(18)، والحاكم(1) وسكت عنه **وقال الذهبي:** "وهو صحيح"، **قال الهيثمي:** "رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَفِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو، وَحَدِيثُهُ حَسَنٌ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ رِجَالُ الصَّحِيحِ"، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (4/ 303)

(3) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (5/ 2128).

(4) فيض القدير (2/ 97).

(وَتَفْصِيلُ أُصُولِ التَّقْوَى) كحفظ اللسان عن كل المساوئ، وحفظ اليدين عن كل عدوان (وَفُرُوعِهَا) كحفظ اللسان عن الغيبة، واليد عن السرقة مثلاً.

والمراد: بيان ما يدخل فعله من الواجبات، وتركه من المحرمات، وما دون ذلك من عمل المستحبات، واجتناب المكروهات (لَا يَحْتَمِلُهُ هَذَا الْمَوْضِعُ)؛ لأن هذه الوصية مبنية على الإيجاز، كما طلب السائل (فَإِنَّهَا) التقوى (الدِّينُ كُلُّهُ) **قال الصرصري** في تعريف التقوى: إنها "امتثال المأمورات، واجتناب المحظورات، وتكاليف الشرع ليست إلا بذلك"[1]، و"**قال أبو عبد الله التُّونُسي:** حقيقةُ التَّقْوَى عبارةٌ عن امتِثال المأْموراتِ، واجتنابِ المَنْهِيّات"[2].

ينبوع الخير وأصله:

(لَكِنَّ يَنْبُوعَ الْخَيْرِ وَأَصْلَهُ) **الينبوع في الحقيقة:** عين الماء، ويطلق بعد ذلك مجازاً على ما يكون أصلاً لغيره (: إِخْلَاصُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ عِبَادَةً وَاسْتِعَانَةً) **أي:** أن يفرد الله تعالى بعبادته فلا يصرفها إلى غيره، وأن يفرد الله في طلب العون في جميع أموره. وفي موضع آخر قال المصنف: وَأَصْلُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ هُوَ: إخْلَاصُ الْعَبْدِ لِلَّهِ فِي نِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ إنَّمَا أَنْزَلَ الْكُتُبَ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ، وَخَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ، وَهِيَ دَعْوَةُ الرُّسُلِ لِكَافَّةِ بَرِيَّتِهِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ بِأَوْضَحِ دَلَالَتِهِ"[3].

---

(1) التعيين في شرح الأربعين (1/ 214).

(2) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (5/ 257).

(3) مجموع الفتاوى (18/ 246).

ثم ذكر المصنف عدداً من الآيات تجمع بين العبادة والاستعانة، وقد كرر هذا الصنيع في عدد من كتبه في مواضع متنوعة، وهذا الجمع له مقصد عظيم؛ وذلك أن القلب "فَقير بِالذَّاتِ إِلَى الله من وَجْهَيْن: من جِهَة الْعِبَادَة -وَهِي الْعلَّة الغائية-، وَمن جِهَة الِاسْتِعَانَة والتوكل -وَهِي الْعلَّة الفاعلة-"[1].

(كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:5]) أي: "لك اللهم نَخشعُ ونَذِلُّ ونستكينُ، إقرارًا لك -يا رَبنا- بالرُّبوبية لا لغيرك... وإياك -رَبنا- نستعين على عبادتنا إيّاك، وطاعتنا لك، وفي أمورنا كلها -لا أحدًا سواك؛ إذْ كان من يكفُر بك يَستعين في أمورِه معبودَه الذي يعبُدُه من الأوثان دونَك، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة"[2].

"وما أكثر ما تستلزم العبادة الاستعانة، فمن اعتمد عليه القلب في رزقه ونصره ونفعه وضره، خضع له وذل، وانقاد وأحبه من هذه الجهة وإن لم يحبه لذاته، لكن قد يغلب عليه الحال حتى يحبه لذاته، وينسى مقصوده منه، كما يصيب كثيرًا ممن يحب المال أو يحب من يحصل له به العز والسلطان. وأما من أحبه القلب وأراده وقصده، فقد لا يستعينه ويعتمد عليه إلا إذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه، كاستشعار المحب قدرة المحبوب على وصله، فإذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه استعانه، وإلا فلا"[3].

---

(1) العبودية (ص: 97).

(2) تفسير الطبري (1/ 157).

(3) قاعدة جامعة في توحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة واستعانة (ص: 51).

فنحن نعبده سبحانه "اتبَاعًا لِلْأَمْرِ، ونستعينه إِيمَانًا بِالْقدرِ"[1].

"فمن فهم معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:5]، عرف أنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة إلا الله وحده"[2].

"ولهذا كان صلاح العبد وسعادته في تحقيق معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:5]؛ فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذى يستعان به على المطلوب؛ **فالأول**: من معنى ألوهيته، **والثاني**: من معنى ربوبيته"[3].

وفي هذه الآية الكريمة "سر الخلق والأمر والدنيا والآخرة، وهي متضمنة لأجل الغايات، وأفضل الوسائل؛ فأجل الغايات عبوديته، وأفضل الوسائل إعانته، فلا معبود يستحق العبادة إلا هو، ولا معين على عبادته غيره، فعبادته أعلى الغايات، وإعانته أجل الوسائل"[4].

"**فإن قيل**: فإذا كان جميع ما يحبه الله داخلاً في اسم العبادة، فلماذا عطف عليها غيرها؛ **كقوله**: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:5]... وأمثال ذلك في القرآن كثير؟"، **فالجواب**: أن" الباب يكون تارة مع كون أحدهما بعض الآخر، فيعطف عليه تخصيصًا له بالذكر؛ لكونه مطلوبًا بالمعنى العام، والمعنى

(1) مختصر الفتاوى المصرية (ص: 182).

(2) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية - رشيد رضا (1/ 24).

(3) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (1/ 27).

(4) الصلاة وأحكام تاركها (ص: 144).

الخاص، وتارة تكون دلالة الاسم تتنوع بحال الانفراد والاقتران، فإذا أفرد عم، وإذا قرن بغيره خص"[1].

وهناك معنى في الاستعانة وهو أنها " تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه؛ فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به؛ لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به"[2]. **(وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾**[هود:123]**) أي:** "(فاعبده)، يقول: فاعبد ربك يا محمد (وتوكل عليه)، يقول: وفوِّض أمرك إليه، وثق به وبكفايته؛ فإنه كافي من توكل عليه"[3].

"فهو قد جمع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع؛ لأن هذين يجمعان الدين كله"[4]؛ "فَإِن التَّوَكُّل هُوَ الِاسْتِعَانَة، وَهِي من عبَادَة الله، لَكِن خصت بِالذكر ليقصدها المتعبد بخصوصها؛ فَإِنَّهَا هِيَ العون على سَائِر أَنْوَاع الْعِبَادَة؛ إِذْ هُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُعبد إِلَّا بمعونته"[5].

(وَفِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[الشورى:10]**) فقوله:** "(عليه توكلت)، يقول: إلى الله أفوض أمري؛ فإنه ثقتي، وعليه اعتمادي في أموري،

---

(1) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (5/ 173).

(2) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (1/ 96).

(3) تفسير الطبري (15/ 545).

(4) التحفة العراقية (ص: 43).

(5) العبودية (ص: 75).

وقوله: (وإليه أنيب)، وإليه أقبل بالطاعة، وأرجع بالتوبة"[1].

و" **الإنابة إلى الله والمتاب هو**: الرجوع إليه بعبادته، وطاعته وطاعة رسوله، والعبد لا يكون مطيعًا لله ورسوله - فضلاً أن يكون من خواص أوليائه المتقين - إلا بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، ويدخل في ذلك التوكل"[2].

وبعد أن ذكر ابن القيم آيات من مواضع متعددة جمعت بين التوكل والإنابة قال: "... فهذه السبعة مواضع جمعت الأصلين: التوكل وهو الوسيلة، والإنابة وهي الغاية؛ فإن العبد لا بد له من غاية مطلوبة، ووسيلة موصلة إلى تلك الغاية، فأَشرف غاياته التي لا غاية له أجل منها عبادة ربه، والإنابة إليه، وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتة التوكل على الله، والاستعانة به، ولا سبيل له إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة، فهذه أشرف الغايات، وتلك أشرف الوسائل"[3].

(وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾[العنكبوت:17])

"﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾ يقول: فالتمسوا عند الله الرزق لا من عند أوثانكم، تدركوا ما تبتغون من ذلك ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ يقول: وذلوا له ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ على رزقه إياكم، ونعمه التي أنعمها عليكم، يقال: شكرته وشكرتُ له، أفصح من شكرته، وقوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول: إلى الله تُرَدّون من بعد مماتكم، فيسألكم عما أنتم

---

(1) تفسير الطبري (15/ 454).

(2) مجموع الفتاوى (8/ 527).

(3) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: 256).

عليه من عبادتكم غيره وأنتم عباده وخلقه، وفي نعمه تتقلَّبون، ورزقه تأكلون"[1].

"فَالْعَبْد لَا بُد لَهُ من رزق وَهُوَ مُحْتَاج إِلَى ذَلِك، فَإِذا طلب رزقه من الله صَار عبدًا لله، فَقِيرًا إِلَيْهِ، وَإِذا طلبه من مَخْلُوق صَار عبدًا لذَلِك الْمَخْلُوق، فَقِيرًا إِلَيْهِ؛ وَلِهَذَا كَانَت مَسْأَلَة الْمَخْلُوق مُحرمَة فِي الأَصْل، وَإِنَّمَا أبيحت للضَّرُورَة، وَفِي النهى عَنْهَا أَحَادِيث كَثِيرَة"[2].

(بِحَيْثُ يَقْطَعُ الْعَبْدُ تَعَلُّقَ قَلْبِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ انْتِفَاعًا بِهِمْ، أَوْ عَمَلًا لِأَجْلِهِمْ)

يعني: إذا توجه العبد إلى ربه توجهًا صادقًا بالعبادة له وحده، والاستعانة به والإنابة والتوكل عليه؛ لم يعد ينظر إلى المخلوقين نظر الطامع المحتاج إليهم، مما يجعله يعمل من أجلهم رغبة في مصلحة يرجوها منهم، أو رهبة من مخوف يخشاه من قبلهم، ويصير حاله **كما قيل**:

إليكَ وإلا لا تُشدُّ الركائبُ ... ومنكَ وإلا لا تُنالُ الرغائبُ
وفيك وإلا فالرجاءُ مخيَّبٌ ... وعنكَ وإلا فالمحدِّثُ كاذبُ
لديكَ وإلا لا قرارَ يطيبُ لي ... عليكَ وإلا لا تَسيلُ السواكبُ[3]

(وَيَجْعَلُ هِمَّتَهُ) قصده وعزمه **(رَبَّهُ تَعَالَى)** ثم فسر ذلك بقوله: **(وَذَلِكَ بِمُلَازَمَةِ)** بمداومة واستمرار **(الدُّعَاءِ لَهُ فِي كُلِّ مَطْلُوبٍ)** لجلب نفع، أو دفع

---

(1) تفسير الطبري (20/ 20).

(2) العبودية (ص: 82).

(3) تسبيح ومناجاة وثناء على ملك الأرض والسماء (ص: 147).

ضر، في السراء والضراء، وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ)(1).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالكَرْبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ)(2).

ثم فسر المطلوب بقوله: (مِنْ فَاقَةٍ) **الفاقة:** الفقر والحاجة (وَحَاجَةٍ) من حاجات الدين أو الدنيا (وَمَخَافَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ) **المخافة:** مصدر ميمي، بمعنى الخوف، أي: يدعوه عند حصول خوف واقع أو متوقع؛ **يعني:** لدفع خوف موجود، أو دفع خوف يخشى وجوده (وَالْعَمَلِ لَهُ بِكُلِّ مَحْبُوبٍ) له سبحانه وتعالى وحده، **أي:** دوام التقرب إليه بكل ما يحبه من الأعمال والأقوال، الظاهرة والباطنة (وَمَنْ أَحكَمَ هَذَا) **أي:** أتقن ولزم هذا المذكور المتقدم وهو ينبوع الخير وأصله (فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُوصَفَ مَا يُعْقِبُهُ ذَلِكَ) **يعني:** إذا لزم ذلك الأمر-وهو تقوى الله بمعناها العام-، وأحسن المداومة عليه فلا يتطرق إليه وصف ذميم ينافي التقوى وكمال العبادة والاستعانة والتوكل والإنابة؛ **فيقال:** إن قلبه متعلق بغير الله تعالى. هذا ما فهمته من معنى لهذه العبارة، والله أعلم.

---

(1) رواه أحمد(2669)، والترمذي(2516)، والبيهقي في الشعب(192)، والطبراني في الأوسط (5417) والكبير(11243)، وابن السني في عمل اليوم والليلة(425)، وأبو يعلى(2556)، **قال الترمذي:** " حسن صحيح" وصححه الألباني.

(2) رواه الترمذي(3382)، وأبو يعلى(6396)، وحسنه الألباني.

أفضَلِ الأعمَالِ بعدَ الفرائضِ:

(وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ؛ فَإِنَّهُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ فِيمَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، وَمَا يُنَاسِبُ أَوْقَاتَهُمْ، فَلَا يُمْكِنُ فِيهِ جَوَابٌ جَامِعٌ مُفَصَّلٌ لِكُلِّ أَحَدٍ، لَكِنْ مِمَّا هُوَ كَالْإِجْمَاعِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ بِاللَّهِ وَأَمْرِهِ: أَنَّ مُلَازَمَةَ ذِكْرِ اللهِ دَائِمًا هُوَ أَفْضَلُ مَا شَغَلَ الْعَبْدُ بِهِ نَفْسَهُ فِي الْجُمْلَةِ، وَعَلَى ذَلِكَ دَلَّ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ: (سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ الْمُفَرِّدُونَ؟ قَالَ: (الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ)، وَفِيمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟) قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: (ذِكْرُ اللهِ). وَالدَّلَائِلُ الْقُرْآنِيَّةُ وَالْإِيمَانِيَّةُ بَصَرًا وَخَبَرًا وَنَظَرًا عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَأَقَلُّ ذَلِكَ: أَنْ يُلَازِمَ الْعَبْدُ الْأَذْكَارَ الْمَأْثُورَةَ عَنْ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ ﷺ؛ كَالْأَذْكَارِ الْمُؤَقَّتَةِ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ، وَعِنْدَ أَخْذِ الْمَضْجِعِ، وَعِنْدَ الِاسْتِيقَاظِ مِنْ الْمَنَامِ، وَأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ، وَالْأَذْكَارِ الْمُقَيَّدَةِ مِثْلُ: مَا يُقَالُ عِنْدَ الْأَكْلِ، وَالشُّرْبِ، وَاللِّبَاسِ، وَالْجِمَاعِ، وَدُخُولِ الْمَنْزِلِ، وَالْمَسْجِدِ، وَالْخَلَاءِ، وَالْخُرُوجِ مِنْ ذَلِكَ، وَعِنْدَ الْمَطَرِ، وَالرَّعْدِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَقَدْ صُنِّفَتْ لَهُ الْكُتُبُ الْمُسَمَّاةُ بِعَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ. ثُمَّ مُلَازَمَةُ الذِّكْرِ مُطْلَقًا وَأَفْضَلُهُ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ". وَقَدْ تَعْرِضُ أَحْوَالٌ يَكُونُ بَقِيَّةُ الذِّكْرِ مِثْلُ: "سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللهُ أَكْبَرُ،

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ"؛ أَفْضَلَ مِنْهُ.

ثُمَّ يُعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ اللِّسَانُ، وَتَصَوَّرَهُ الْقَلْبُ مِمَّا يُقَرِّبُ إِلَى اللهِ؛ مِنْ تَعَلُّمِ عِلْمٍ وَتَعْلِيمِهِ، وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ؛ فَهُوَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ؛ وَلِهَذَا مَنْ اشْتَغَلَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ النَّافِعِ بَعْدَ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ، أَوْ جَلَسَ مَجْلِسًا يَتَفَقَّهُ، أَوْ يُفَقِّهُ فِيهِ الْفِقْهَ الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ فِقْهًا؛ فَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَفْضَلِ ذِكْرِ اللهِ.

وَعَلَى ذَلِكَ إِذَا تَدَبَّرْت لَمْ تَجِدْ بَيْنَ الْأَوَّلِينَ فِي كَلِمَاتِهِمْ فِي أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ كَبِيرَ اخْتِلَافٍ.

وَمَا اشْتَبَهَ أَمْرُهُ عَلَى الْعَبْدِ فَعَلَيْهِ بِالِاسْتِخَارَةِ الْمَشْرُوعَةِ، فَمَا نَدِمَ مَنْ اسْتَخَارَ اللهَ تَعَالَى. وَلْيُكْثِرْ مِنْ ذَلِكَ، وَمِنْ الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّهُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ، وَلَا يَعْجَلْ فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي، وَلْيَتَحَرَّ الْأَوْقَاتَ الْفَاضِلَةَ؛ كَآخِرِ اللَّيْلِ، وَأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ، وَعِنْدَ الْأَذَانِ، وَوَقْتَ نُزُولِ الْمَطَرِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

قوله: (وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ)؛ لأن الفريضة لا تساويها النافلة في بابها مهما كثرت أو كبرت؛ فالفريضة يأثم تاركها، وليست النافلة كذلك، ولما كانت الفريضة هي الأفضل كان الاحتياط الشرعي لأدائها أدق وأضيق، وأما نافلتها فتجوز فيها بعض الأعمال ولا تجوز في الفريضة؛ فمثلاً يجوز في صلاة التطوع أداؤها جالسًا من غير عذر، ولكن مع نقصان الأجر، ويجوز أن تصلى في السفر على الراحلة ومن غير اشتراط استقبال القبلة، وفي الصيام يجوز في نافلته عقد النية في النهار، ما لم يتناول مفطرا.

وقد سأل هذا الرجل عن نوافل الأعمال لأمور، منها: انحصار الفرائض في أمور محدودة، بخلاف النوافل التي عددها كثير، وقد يخفى بعضها، ومنها: ورود تحديد أجور كثيرة لمن تقرب بالنوافل؛ ترغيبًا من الشارع له في فعلها، ومنها: أهمية التطوع في تكميل أجر الفريضة. **فعن** أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ النَّاسُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّلَاةُ، قَالَ: يَقُولُ رَبُّنَا جَلَّ وَعَزَّ لِمَلَائِكَتِهِ -وَهُوَ أَعْلَمُ-: انْظُرُوا فِي صَلَاةِ عَبْدِي: أَتَمَّهَا أَمْ نَقَصَهَا؟ فَإِنْ كَانَتْ تَامَّةً كُتِبَتْ لَهُ تَامَّةً، وَإِنْ كَانَ انْتَقَصَ مِنْهَا شَيْئًا، قَالَ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ، قَالَ: أَتِمُّوا لِعَبْدِي فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ، ثُمَّ تُؤْخَذُ الْأَعْمَالُ عَلَى ذَاكُمْ)[1].

(؛ فَإِنَّهُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ فِيمَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ) فالعالم يقدر على ما قد لا يقدر عليه العابد والعكس، والراعي يقدر على ما لا يقدر عليه الرعية والعكس، وهكذا الصحيح مع المريض، والطليق والسجين، والمتأهل مع غير المتأهل، ومن له والدان أو أحدهما ومن ليس له، وغيرهم **(وَمَا يُنَاسِبُ أَوْقَاتَهُمْ)** فالفارغ يستطيع على أعمال لا يستطيع عليها المشغول، والعمل عند

(1) رواه أحمد(9494)، وأبو داود(864)، والترمذي(413)، والنسائي في الكبرى(322) والصغرى (465)، وابن ماجه(1426)، والبيهقي في الكبرى(4000)(3013)، والطبراني في الأوسط (7612)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة(182)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار(2553)، وإسحاق(506)، والحاكم(965) **وقال:** "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَلَهُ شَاهِدٌ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ"، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

حضور الزمان الشريف ليس كالعمل لدى حضور غيره، ونحو ذلك؛ ولهذا نجد أن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ اختلفت أجوبته للسائلين على حسب ما يراه من أحوالهم، وإن لم تختلف الأسئلة؛ قال ابن حجر عند شرحه حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: (سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟) قال ابن حجر: "أجاب به العلماء عن هذا الحديث وغيره مما اختلفت فيه الأجوبة بأنه أفضل الأعمال: أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين؛ بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه، أو بما لهم فيه رغبة، أو بما هو لائق بهم، أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات؛ بأن يكون العمل في ذلك الوقت أفضل منه في غيره؛ فقد كان الجهاد في ابتداء الإسلام أفضل الأعمال؛ لأنه الوسيلة إلى القيام بها، والتمكن من أدائها، وقد تضافرت النصوص على أن الصلاة أفضل من الصدقة، ومع ذلك ففي وقت مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل"[(1)].

وقد قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن الناس من تكون القراءة أنفع له من الصلاة، ومنهم من يكون الذكر أنفع له من القراءة، ومنهم من يكون اجتهاده في الدعاء لكمال ضرورته أفضل له من ذكر هو فيه غافل، والشخص الواحد يكون تارة هذا أفضل له، وتارة هذا أفضل له، ومعرفة حال كل شخص، وبيان الأفضل له لا يمكن ذكره في كتاب، بل لا بد من هداية يهدي الله بها عبده إلى ما هو أصلح، وما صدق اللهَ عبدٌ إلا صنع له، **وفي الصحيح** «أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل

---

(1) فتح الباري لابن حجر (2/ 9).

يقول: اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة..."[1]. سيأتي ذكر المؤلف للحديث كله.

لهذا لما كان الأمر كذلك: (فَلَا يُمْكِنُ فِيهِ جَوَابٌ جَامِعٌ مُفَصَّلٌ لِكُلِّ أَحَدٍ) بأن يكون ذلك صالحًا لكل مسلم؛ صغيراً أو كبيراً، فارغًا أو مشغولاً، اختلفت أحواله عن غيره أم لم تختلف. وهذا من فقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعظم أمانته في النصيحة والجواب.

لكنه بعد بيان هذه الحقيقة أشار بأمر هو من أفضل الأعمال يمكن أن يقوم به المسلم وإن اختلفت أحواله، وكثرت أعماله، وتنوعت ظروفه الزمانية والمكانية والوظيفية، فقال: (لَكِنْ مِمَّا هُوَ كَالْإِجْمَاعِ) وليس بإجماع على الحقيقة عندهم (بَيْنَ الْعُلَمَاءِ بِاللَّهِ وَأَمْرِهِ) العالم بالله هو: العارف به الذي قد وصل إلى درجة المعرفة، ومعرفة الله تعالى تعني: أن يُعمَر قلبُ الإنسان بتعظيم الله وإجلاله، فلا يكون فيه أعظم من الله ولا أجل، وأن تكون محبة الرب سبحانه تملؤ القلب كله، فلا تزاحمها محبة أحد من الخلق مهما كان للنفس فيه رغبة ومصلحة، وأن يكون الأُنس به تعالى هو حياة القلب التي يعيش بها في الخلوة والجلوة، والعوض الذي لا يطلب سواه في كل خوف ووحشة.

وأما العالم بأمره فهو: العالم بدينه، الذي له نصيب وافر من الاطلاع على الشريعة وفقهها وفهمها (: أَنَّ مُلَازَمَةَ) **الملازمة**: المداومة (ذِكْرِ اللهِ دَائِمًا)

---

(1) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (2/ 143).

و"دائمًا" تأكيد للملازمة **(هُوَ أَفْضَلُ مَا شَغَلَ الْعَبْدُ بِهِ نَفْسَهُ فِي الْجُمْلَةِ)** لا على التفصيل في كل موضع؛ فهناك مواضع يكون فيها غيره أفضل منه؛ كعبادات الوقت **(وَعَلَى ذَلِكَ)** على هذا الفضل للذكر في الجملة **(دَلَّ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ: (سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ الْمُفَرِّدُونَ؟ قَالَ: (الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ)[(1)])** **قال النووي:** "**(الْمُفَرِّدُونَ)**: بفتح الفاء وكسر الراء المشددة، وهكذا نقله القاضي عن متقني شيوخهم، وذكر غيره أنه روي بتخفيفها وإسكان الفاء، يقال: فَرَد الرجل، وفرَّد -بالتخفيف والتشديد- وأفرد، وقد فسرهم رسول الله ﷺ بالذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، تقديره: والذاكراته، فحذفت الهاء هنا كما حذفت في القرآن؛ لمناسبة رؤوس الآي، ولأنه مفعول يجوز حذفه، وهذا التفسير هو مراد الحديث، قال ابن قتيبة وغيره: وأصل المفردين: الذين هلك أقرانهم وانفردوا عنهم، فبقوا يذكرون الله تعالى، وجاء في رواية: (هم الذين أُهْتِرُوا في ذكر الله) أي: لهجوا به، وقال ابن الأعرابي: يقال: فَرَّدَ الرَّجُلُ إِذَا تَفَقَّهَ واعتزل، وخلا بمراعاة الأمر والنهي"[(2)].

وقال ابن هبيرة: " في هذا الحديث من الفقه: أن رسول الله ﷺ ذكر بانفراد هذا الجيل المفردين، وقد روي: بكسر الراء وفتحها، فمن رواه بكسر الراء: فإن الذي أراه فيه أنهم أفردوا الله سبحانه بالطلب منه للخير والنصر، فهم الذين

---

(1) رواه مسلم (2676).

(2) شرح النووي على مسلم (17/ 4).

أفردوا الله بطلابهم لمقاصدهم، **وأما بفتح الراء**: فيجوز أن يكون المراد الذين أفردهم الناس لعدم المثلية؛ فصاروا أفراداً في زمانهم، ويجوز أن يكونوا الذين أفردهم الله عز وجل في كل زمان للقيام بسنته"[1].

(وَفِيمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد[2] عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟) قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: (ذِكْرُ اللهِ)[3]) **قال ابن القيم**: "وقيل لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ أما تقرأ القرآن: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾[العنكبوت:45]. ويشهد لهذا حديث أبي الدرداء المتقدم: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق» الحديث".

وقال: "وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس أنه سئل: أي العمل أفضل؟ قال:

---

(1) الإفصاح عن معاني الصحاح (8/ 182).

(2) لم أجده عند أبي داود في سننه.

(3) رواه أحمد(22079) ومالك(716)، والترمذي(3377)، وابن ماجه(3790)، والبيهقي في الشعب(516) والدعوات الكبير(20) وابن المبارك في الزهد(1129)، وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (2/ 12)، والبغوي(1244)، والحاكم(1825) **وقال**: "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ"، **وقال الهيثمي**: "رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ، إِلَّا أَنَّ زِيَادَ بْنَ أَبِي زِيَادٍ مَوْلَى ابْنِ عَيَّاشٍ لَمْ يُدْرِكْ مُعَاذًا"، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (10/ 73)، وصححه الألباني والأرناؤوط.

ذكر الله أكبر"[1].

وقد استشكل بعض العلماء هذا الحديث بكون الذكر خير الأعمال، مع مجيء أحاديث أخرى تذكر أعمالاً غير الذكر أنها خير الأعمال، **فأجابوا عن ذلك بأجوبة:**

قال ابن دقيق العيد: "وقد اختلفت الأحاديث في فضائل الأعمال، وتقديم بعضها على بعض، والذي قيل في هذا: أنها أجوبة مخصوصة لسائل مخصوص، أو من هو في مثل حاله، أو هي مخصوصة ببعض الأحوال التي ترشد القرائن إلى أنها المراد، ومثال ذلك: أن يحمل ما ورد عنه ﷺ من قوله: «ألا أخبركم بأفضل أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم؟» وفسره بذكر الله تعالى، على أن يكون ذلك أفضل الأعمال بالنسبة إلى المخاطبين بذلك، أو من هو في مثل حالهم، أو من هو في صفاتهم، ولو خوطب بذلك الشجاع الباسل المتأهل للنفع الأكبر في القتال لقيل له: "الجهاد"، ولو خوطب به من لا يقوم مقامه في القتال ولا يتمحض حاله لصلاحية التبتل لذكر الله تعالى، وكان غنيًا ينتفع بصدقة ماله لقيل له: "الصدقة"، وهكذا في بقية أحوال الناس، قد يكون الأفضل في حق هذا مخالفًا للأفضل في حق ذاك، بحسب ترجيح المصلحة التي تليق به"[2].

وقال ابن حجر -بعد ذكر حديث أبي الدرداء هذا-: "وقد أشرت إليه

(1) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: 75).

(2) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (1/ 163).

مستشكلاً في أوائل الجهاد مع ما ورد في فضل المجاهد أنه كالصائم لا يفطر، وكالقائم لا يفتر، وغير ذلك مما يدل على أفضليته على غيره من الأعمال الصالحة، وطريق الجمع -والله أعلم-: أن المراد بذكر الله في حديث أبي الدرداء: الذكر الكامل، وهو: ما يجتمع فيه ذكر اللسان، والقلب بالتفكر في المعنى، واستحضار عظمة الله تعالى، وأن الذي يحصل له ذلك يكون أفضل ممن يقاتل الكفار مثلاً من غير استحضار لذلك، وأن أفضلية الجهاد إنما هي بالنسبة إلى ذكر اللسان المجرد، فمن اتفق له أنه جمع ذلك كمن يذكر الله بلسانه وقلبه واستحضاره، وكل ذلك حال صلاته أو في صيامه أو تصدقه أو قتاله الكفار مثلاً فهو الذي بلغ الغاية القصوى، والعلم عند الله تعالى"[(1)].

(وَالدَّلَائِلُ الْقُرْآنِيَّةُ وَالْإِيمَانِيَّةُ بَصَرًا وَخَبَرًا وَنَظَرًا عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ) أي: والأدلة على أهمية ذكر الله وأفضليته في الأعمال من القرآن، **ومن الآثار الإيمانية** التي يجدها الملازمون للذكر؛ كثيرة، **منها**: المرئية المحسوسة، **ومنها**: المنقولة عن المعصوم وعن أهل الذكر، **ومنها**: ما تدرك بالتأمل والنظر.

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله، إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا، فَبَابٌ نَتَمَسَّكُ بِهِ جَامِعٌ ؟ قَالَ: (لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ)[(2)].

---

(1) فتح الباري لابن حجر (11/ 210).

(2) رواه أحمد (17680)، وابن ماجه(3793)، والطبراني في الأوسط (2268)، والبيهقي في الشعب (512)، وابن حبان(814)، والحاكم(1822) **وقال**: "هذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ" وصححه الألباني والأرناؤوط.

قال ابن القيم: "عمّال الآخرة كلهم في مضمار السباق، والذاكرون هم أسبقهم في ذلك المضمار، ولكن القترة والغبار يمنع من رؤية سبقهم، فإذا انجلى الغبار وانكشف رآهم الناس وقد حازوا قصب السبق، قال الوليد بن مسلم: قال محمد بن عجلان: سمعت عمراً مولى غفرة يقول: إذا انكشف الغطاء للناس يوم القيامة عن ثواب أعمالهم لم يروا عملاً أفضل ثوابًا من الذكر، فيتحسر عند ذلك أقوام فيقولون: ما كان شيء أيسر علينا من الذكر"[(1)].

وقال أيضًا: "وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي، أو كلامًا قريبًا من هذا. وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها؛ لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر، أو كلامًا هذا معناه"[(2)].

(وَأَقَلُّ ذَلِكَ: أَنْ يُلَازِمَ العَبْدُ الْأَذْكَارَ الْمَأْثُورَةَ) المأثورة من الأَثْرِ: مصدر قولك: أَثَرْتُ الحديثَ، إذا ذكرْتَه عن غيرك، **ومنه قيل:** حديثٌ مأثورٌ، أي: ينقلُه خَلَفٌ عن سلفٍ. وفي حديث النبي ﷺ أنه سمع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحلف بأبيه، فنهاه عن ذلك، قال عمر: "فما حلفت به ذاكرًا ولا آثرًا" أي: مخبراً عن غيري أنه حلف به. يقول: لا أقول: إن فلانًا قال: وأبي لا أفعل كذا وكذا[(3)].

---

(1) الوابل الصيب، لابن القيم (ص: 106).

(2) الوابل الصيب، لابن القيم (ص: 63).

(3) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (2/ 574).

عَنْ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ) هذا الوصف يقصد به المصنف: نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو نعت يقال في حق كل من يدل على الخير ويعلمه، وقد قالت فاطمة لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند وفاة رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "أَمَا كَانَ فِي صُدُورِكُمْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ الرَّحْمَةُ، أَمَا كَانَ مُعَلِّمَ الْخَيْرِ؟ قَالَ: بَلَى يَا فَاطِمَةُ، وَلَكِنْ أَمْرُ اللهِ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ"[1].

وقيل لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فعن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال: "جاء رجل إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: يا معلم الخير، علمني شيئًا ينفعني الله به، ولا يضرك ذلك..."[2].

وقاله رسولنا محمد فيمن يعلم الهدى؛ **فعن** جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مُعَلِّمُ الْخَيْرِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْبِحَارِ)[3].

(وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ ﷺ) وقد وصفه بهذا الوصف ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كما في صحيح مسلم وغيره [4].

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **في وصف نفسه:** (أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ)[5].

---

(1) المعجم الكبير للطبراني (3/ 64).

(2) المجالسة وجواهر العلم (5/ 390).

(3) رواه الطبراني في الأوسط(6219)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (2/ 1023).

(4) صحيح مسلم(1406).

(5) رواه البخاري(5063).

ومعنى كلام المصنف: وأقل ما يمكن أن تطلق عليه الملازمة على ذكر الله تعالى الأمور الآتية، أما أعلاها فأشياء كثيرة: **(كَالْأَذْكَارِ الْمُؤَقَّتَةِ)** بزمان محدد، وليست أذكاراً مطلقة؛ كالتهليل والتسبيح والتحميد، ومن أمثلة تلك الأذكار المؤقته: **(فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ)** هذه أذكار الصباح والمساء؛ كحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ قَالَ: حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ: أَوْ زَادَ عَلَيْهِ)[1]. **(وَعِنْدَ أَخْذِ الْمَضْجعِ) يعني**: أذكار النوم؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ، فَلْيَأْخُذْ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ، فَلْيَنْفُضْ بِهَا فِرَاشَهُ، وَلْيُسَمِّ اللهَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا خَلَفَهُ بَعْدَهُ عَلَى فِرَاشِهِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَضْطَجِعَ، فَلْيَضْطَجِعْ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، وَلْيَقُلْ: سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبِّي، بِكَ وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي، فَاغْفِرْ لَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ)[2] **(وَعِنْدَ الِاسْتِيقَاظِ مِنْ الْمَنَامِ)** عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ، قَالَ: (بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا)، وَإِذَا قَامَ قَالَ: (الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[3] **(وَأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ)** عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مُعَقِّبَاتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ - أَوْ فَاعِلُهُنَّ - دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ،

---

(1) رواه مسلم(2692).

(2) رواه البخاري(6320)، ومسلم(2714).

(3) رواه البخاري(6312)، ومسلم(2711).

ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَسْبِيحَةً، وَثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَحْمِيدَةً، وَأَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ تَكْبِيرَةً)[1] (وَالْأَذْكَارِ الْمُقَيَّدَةِ) بحال من الأحوال (مِثْلُ: مَا يُقَالُ عِنْدَ الْأَكْلِ)عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللهِ، فَإِنْ نَسِيَ فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللهِ فِي أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ)[2] (وَالشُّرْبِ) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا)[3] (وَاللِّبَاسِ) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا لَبِسَ ثَوْبًا جَدِيدًا سَمَّاهُ بِاسْمِهِ إِنْ كَانَ قَمِيصًا أَوْ إِزَارًا أَوْ عِمَامَةً، يَقُولُ: (اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ كَسَوْتَنِي هَذَا، أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَخَيْرِ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ، وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ)[4] (وَالْجِمَاعِ) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (أَمَا إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ، وَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَرُزِقَا وَلَدًا لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ)[5] (وَدُخُولِ الْمَنْزِلِ) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أَنَّهُ

(1) رواه مسلم(596).

(2) رواه أحمد(25733)، والترمذي(1858)، وابن ماجه(3264)، والحاكم(7087) **وقال:** "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ" ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

(3) رواه مسلم(2734).

(4) رواه أحمد(11248)، وأبو داود(4020)، والترمذي(1767)، والنسائي في الكبرى (10068)، وفي عمل اليوم والليلة(309)، وابن حبان(5421)، والبيهقي في الشعب (5871)، والدعوات الكبير(483)، والبغوي(3111)، والطبراني في الكبير(398)، وأبو يعلى (1082)، وابن أبي شيبة(29759)، والحاكم(7408)، وصححه الألباني.

(5) رواه البخاري(3271).

سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ، وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ)[1].

وأما حديث أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِذَا وَلَجَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَوْلَجِ، وَخَيْرَ الْمَخْرَجِ، بِسْمِ اللهِ وَلَجْنَا، وَبِسْمِ اللهِ خَرَجْنَا، وَعَلَى اللهِ رَبِّنَا تَوَكَّلْنَا، ثُمَّ لِيُسَلِّمْ عَلَى أَهْلِهِ) فمختلف في صحته[2].

ومن الذكر أيضًا: دعاء الخروج من المنزل؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ قَالَ - يَعْنِي - إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ: بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ

---

(1) رواه مسلم(2018).

(2) رواه أبو داود (5096) وقد صححه الألباني في بعض كتبه، وضعفه في أخرى، ولعل هذا آخر الآمرين منه. **وقال الأرناؤوط** في تخريجه لسنن أبي داود (7/ 426): "إسناده ضعيف؛ ابن عوف واسمه محمَّد بن عوف بن سفيان قد روى هذا الحديث عن محمَّد بن إسماعيل وهو ضعيف، قال الآجري: سئل أبو داود عنه فقال: لم يكن بذاك قد رأيته، ودخلت حمص غير مرة وهو حي وسألت عمرو بن عثمان عنه فدفعه. ورواه أيضًا من أصل إسماعيل، أي: من كتابه: حدَّثنا ضمضم، به. وهذا سند رجاله ثقات ورواية إسماعيل بن عياش عن أهل بلده قوية، ويبقى في الحديث علة الانقطاع بين شريح بن عبيد وبين أبي مالك الأشعري، قال أبو حاتم: شريح بن عبيد لم يسمع من أبي مالك الأشعري. وأخرجه البيهقي في "الدعوات الكبير" (429) من طريق المصنف، بهذا الإسناد".

عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، يُقَالُ لَهُ: كُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ)[1] **(وَالْمَسْجِدِ)** عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ، أَو عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ، فَلْيَقُلْ: اللهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ، فَلْيَقُلْ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ)[2].

تنبيه: قال المصنف في الإخنائية: ": هذا فيه حديث مرفوع في سنن أبي داود وغيره أنه يقال عند دخول المسجد: (اللهم إني أسألك خير المولج...)[3] وهذا وهم –كما نبه على ذلك الألباني–[4] **(وَالْخَلَاءِ)** عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْخَلَاءِ قَالَ: (غُفْرَانَكَ)[5].

(وَالْخُرُوجِ مِنْ ذَلِكَ) أي: من المذكور المتقدم: المنزل، المسجد، الخلاء، وقد تقدم ذكر كل في موضعه.

---

(1) رواه الترمذي(3426)، والضياء في المختارة(1541)، وصححه الألباني.

(2) رواه مسلم(713).

(3) الإخنائية أو الرد على الإخنائي (ص: 272).

(4) ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (1/ 445).

(5) رواه أحمد (25220)، والبخاري في الأدب المفرد(693)، وأبو داود(30)، والترمذي(7)، والنسائي في عمل اليوم والليلة(79)، وابن ماجه(300)، والدارمي(707)، والطبراني في الدعاء (369)، والبيهقي في الدعوات الكبير(56) والسنن الصغرى(73) والكبرى(461)، والحاكم (563)، وابن الجارود في المنتقى(42)، والبغوي(188)، وابن حبان(1444)، وابن خزيمة(90)، وابن السني في عمل اليوم والليلة(23)، وابن السراج(30)، وابن أبي شيبة(7)، وابن الأعرابي في معجمه(1684)، **قال ابن الملقن:** "قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. **قلت:** وصحيح؛ فقد صححه ابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم"، البدر المنير (2/ 394).

(وَعِنْدَ الْمَطَرِ) عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى المَطَرَ، قَالَ: (اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا)[1]، وبعد نزول المطر يقول: مطرنا بفضل الله ورحمته؛ كما في حديث زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي إِثْرِ السَّمَاءِ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: (هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟) قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ)[2]. **(وَالرَّعْدِ)** عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ، وَالصَّوَاعِقَ قَالَ: (اللهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ)[3].

---

(1) رواه البخاري(1032).

(2) رواه البخاري(846)، ومسلم(71).

(3) رواه أحمد(5763)، والبخاري في الأدب المفرد(721)، والترمذي(3450)،والنسائي في عمل اليوم والليلة(928) وفي الكبرى(10698)، وابن السني في عمل اليوم والليلة(303)، وأبو يعلى(5507)، والطبراني في المعجم الكبير(13230)،وابن أبي شيبة(29217)، والبيهقي في الكبرى(6470) والدعوات الكبير(370)، والحاكم(7772) **وقال:** "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ" ووافقه الذهبي، وقال شاكر في تحقيق المسند(5/ 234): "إسناده صحيح"، **وقال الأرناؤوط** في تحقيق المسند(10/ 48): " إسناده ضعيف؛ لضعف حجاج، وهو ابن أرطاة، ولجهالة حال أبي مطر، فقد ترجم له البخاري في" الكنى"، والمزي في" تهذيب الكمال"، والدولابي في "الكنى"، ولم يذكروا في الرواة عنه إلا حجاج بن أرطأة، ومسعراً. وقال الذهبي في "الميزان"4/ 574: لا يُدرى من هو. **وقال الحافظ** في" التقريب": مجهول. ومع =

وأما قول: "سُبْحَانَ اللهِ الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ" فلم يثبت عن رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مرفوعًا، بل ثبت موقوفًا عن عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1].

(إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ) من الأذكار؛ كالأذكار التي تقال في مناسك الحج، وفي السفر، ونحو ذلك **(وَقَدْ صُنِّفَتْ لَهُ الْكُتُبُ الْمُسَمَّاةُ بِعَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ)**؛ كعمل اليوم والليلة للنسائي، وعمل اليوم والليلة لابن السني، والنووي، وابن حجر، والسيوطي، وغيرهم، وللمصنف في هذا الميدان" الكلم الطيب"، وقد شرحه تلميذه ابن القيم في" الوابل الصيب".

الأذكار المطلقة:

(ثُمَّ مُلَازَمَةُ الذِّكْرِ مُطْلَقًا، وَأَفْضَلُهُ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ")؛ لأنها كلمة التوحيد، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا: قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ)[2].

= ذلك فقد ذكره ابن حبان في" الثقات"، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين. عفان: هو ابن مسلم الصفار. وعبد الواحد بن زياد: هو العبدي، وسالم: هو ابن عبد الله بن عمر".

(1) ينظر: موطأ مالك (3641)، الأدب المفرد للبخاري (723)، مصنف ابن أبي شيبة (29214)، السنن الكبرى للبيهقي(6471)، **قال الألباني عنه:** " صحيح الإسناد موقوفًا"، تخريج الكلم الطيب (ص: 135).

(2) رواه مسلم(35).

وعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ كَرِيزٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: (أَفْضَلُ الدُّعَاءِ، دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ. وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا، وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَحْدَهُ، لاَ شَرِيكَ لَهُ)[1].

(وَقَدْ تَعْرِضُ أَحْوَالٌ يَكُونُ بَقِيَّةُ الذِّكْرِ مِثْلُ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ أَفْضَلَ مِنْهُ) وذلك حين تكون لها مواطن جاء في الشرع استحباب قولها فيها؛ فالتسبيح يشرع دون غيره عندما يخطئ الإمام في الصلاة، فينبهه من بعده من المأمومين بالتسبيح؛ فعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ رَابَهُ شَيْءٌ فِي صَلاَتِهِ فَلْيُسَبِّحْ؛ فَإِنَّهُ إِذَا سَبَّحَ التُفِتَ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا التَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ)[2].

والتحميد يشرع دون غيره في بعض أفعال الصلاة؛ كالرفع من الركوع، عَنِ ابْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا رَفَعَ ظَهْرَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، قَالَ: (سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، اللهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلْءُ السَّمَاوَاتِ، وَمِلْءُ الْأَرْضِ وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ)[3].

---

(1) رواه مالك(1598)، والترمذي(3585)، والطبراني في الدعاء(874)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار(10086) والدعوات الكبير(536) والسنن الصغرى(1677) والكبرى (8391)، والبغوي (1929)، وحسنه الألباني.

(2) رواه البخاري(684)، ومسلم(421).

(3) رواه مسلم(476).

والتكبير يشرع دون غيره في الصلاة عند الانتقال من ركن إلى ركن؛ كما في حديث المسيء في صلاته[1].

والحوقلة تشرع دون غيرها عند الحيعلتين في الأذان؛ فعَنْ عِيسَى بْنِ طَلْحَةَ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى مُعَاوِيَةَ فَنَادَى الْمُنَادِي بِالصَّلَاةِ، فَقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: "اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: وَأَنَا أَشْهَدُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: وَأَنَا أَشْهَدُ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ يَقُولُ "[2].

(ثُمَّ يُعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ اللِّسَانُ، وَتَصَوَّرَهُ الْقَلْبُ) **تصوره:** تخيله واستحضر صورته في ذهنه **(مِمَّا يُقَرِّبُ إِلَى اللهِ)** يوصل إلى مرضاته من أعمال القلب، وأعمال الجوارح **(؛ مِنْ تَعَلُّمِ عِلْمٍ وَتَعْلِيمِهِ، وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ؛ فَهُوَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ؛ وَلِهَذَا مَنْ اشْتَغَلَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ النَّافِعِ بَعْدَ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ، أَوْ جَلَسَ مَجْلِسًا يَتَفَقَّهُ، أَوْ يُفَقِّهُ فِيهِ الْفِقْهَ الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ فِقْهًا؛ فَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَفْضَلِ ذِكْرِ اللهِ)** يريد أن ذكر الله تعالى ليس محصوراً في ألفاظ الذكر

---

(1) رواه البخاري(757)، ومسلم(397).

(2) رواه أحمد(16896)، والنسائي في الكبرى(8772)، والدارمي(1238)، والطحاوي في شرح معاني الآثار(886)، وابن خزيمة(414)، وابن حبان(1687)، والطبراني في الكبير (730) والدعاء(455)، والبيهقي في الكبرى(1928)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (3/ 238).

المشهورة من التهليل والتسبيح وغيرها، بل يشمل غيرها من الطاعات، وذكر من الأمثلة الداخلة في عموم ذكر الله: تعلم العلم الشرعي وتعليمه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال ابن حجر: "وقال الفخر الرّازيّ: المراد بذكر اللّسان: الألفاظ الدّالّة على التّسبيح والتّحميد والتّمجيد. والذّكر بالقلب: التّفكّر في أدلّة الذّات والصّفات، وفي أدلّة التّكاليف من الأمر والنّهي حتّى يطّلع على أحكامها، وفي أسرار مخلوقات اللّه. والذّكر بالجوارح، هو أن تصير مستغرقة في الطّاعات، ومن ثَمّ سمّى اللّه الصّلاة ذكراً فقال: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾[الجمعة: 9]. ونقل عن بعضهم، قال: الذّكر على سبعة أنحاء: فذكر العينين بالبكاء، وذكر الأذنين بالإصغاء، وذكر اللّسان بالثّناء، وذكر اليدين بالعطاء، وذكر البدن بالوفاء، وذكر القلب بالخوف والرّجاء، وذكر الرّوح بالتّسليم والرّضاء"[1].

وقال ابن القيّم: "وليس المراد بالذكر مجرد الذكر باللسان، بل الذكر القلبي واللساني، وذكر اللّه يتضمّن ذكر أسمائه وصفاته، وذكر أمره ونهيه وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثّناء عليه بأنواع المدح. وذلك لا يتمّ إلّا بتوحيده. فذكره الحقيقيّ يستلزم ذلك كلّه، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه"[2].

---

(1) فتح الباري (11/ 209).

(2) الفوائد، لابن القيم (ص: 128).

وقول المصنف: إن تعلم العلم النافع وتعليمه من ذكر الله؛ قاله أيضًا علماء آخرون:

قال ابن حجر: "لا يتعين للذكر شيء مخصوص لا يجزئ غيره، بل كل ما صدق عليه ذكر الله أجزأ، ويدخل فيه: تلاوة القرآن، وقراءة الحديث النبوي، والاشتغال بالعلم الشرعي"[(1)].

وقال أيضًا: "ويطلق ذكر الله أيضًا، ويراد به المواظبة على العمل بما أوجبه، أو ندب إليه؛ كتلاوة القرآن، وقراءة الحديث، ومدارسة العلم، والتنفل بالصلاة"[(2)].

وقال الصنعاني: "وذكر الله يشمل كل طاعة؛ فمن قعد في قراءة الحديث وإملائه، وتعلم العلم النافع وتعليمه، وغير ذلك من الطاعات؛ يصدق عليه أنه ذاكر لله"[(3)].

قلت: وجعلُ العلم الشرعي من ذكر الله تعالى يدل على فضل العلم، ووجه كونه من ذكر الله تعالى: أنه يعين عليه، ويحث على الاستزادة منه، ويكشف لصاحبه الحق الذي به يعرف ربه ودينه ومعاملة خلقه.

---

(1) فتح الباري (3/ 28).

(2) فتح الباري لابن حجر (11/ 209).

(3) التحبير لإيضاح معاني التيسير (4/ 18).

عَنِ الْأَغَرِّ أَبِي مُسْلِمٍ، أَنَّهُ قَالَ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)[1].

قال الصنعاني: "(ما جلس قوم يذكرون الله تعالى) بأي نوع من أنواع الذكر، ويدخل فيه: حلق العلم النافع كتابًا وسنة"[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ...)[3].

قال ابن حجر –في شرح هذا الحديث-: "وفي رواية سهيل:" جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك، ويهللونك ويحمدونك ويسألونك"، وفي حديث أنس عند البزار: "ويعظمون آلاءك ويتلون كتابك، ويصلون على نبيك، ويسألونك لآخرتهم ودنياهم". ويؤخذ من مجموع هذه الطرق المراد بمجالس الذكر وأنها التي تشتمل على ذكر الله بأنواع الذكر الواردة ؛من تسبيح وتكبير وغيرهما، وعلى تلاوة كتاب الله سبحانه وتعالى، وعلى الدعاء بخيري

---

(1) رواه مسلم (2700).

(2) التنوير شرح الجامع الصغير (9/ 381).

(3) رواه البخاري(6408)، ومسلم(2689).

الدنيا والآخرة. وفي دخول قراءة الحديث النبوي، ومدارسة العلم الشرعي ومذاكرته، والاجتماع على صلاة النافلة في هذه المجالس نظر، والأشبه اختصاص ذلك بمجالس التسبيح والتكبير ونحوهما والتلاوة فحسب، وإن كانت قراءة الحديث ومدارسة العلم والمناظرة فيه، من جملة ما يدخل تحت مسمى ذكر الله تعالى"[1].

(وَعَلَى ذَلِكَ إِذَا تَدَبَّرْت لَمْ تَجِدْ بَيْنَ الْأَوَّلِينَ فِي كَلِمَاتِهِمْ فِي أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ كَبِيرَ اخْتِلَافٍ)

يقول: وبناء على ما اخترت لك أن الذكر أفضل الأعمال بعد الفرائض، وأن ذكر الله يدخل فيه أنواع من الأعمال الصالحة؛ فإنك عند النظر والتأمل في كلمات الأولين في اختيار أفضل الأعمال لن تجد اختلافًا كثيراً؛ بل كل يختار من الاسم العام بعض أفراده، ويعبر عنه بعبارة مختلفة.

(وَمَا اشْتَبَهَ أَمْرُهُ عَلَى الْعَبْدِ) في كونه أفضل الأعمال **(فَعَلَيْهِ بِالِاسْتِخَارَةِ الْمَشْرُوعَةِ)** **يعني**: فعليه أن يصلي صلاة الاستخارة، ويدعو الله بأن يختار له من تلك الأعمال.

والاسْتِخارَةُ: طلَبُ الخِيرَة فِي الشَّيْءِ، وهو اسْتِفْعَالٌ مِنْهُ، **وَفِي الْحَدِيثِ**: (كَانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي كُلِّ شَيْءٍ). **وخارَ اللهُ لَكَ أَي**: أَعطاك مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، والخِيْرَةُ- بِسُكُونِ الْيَاءِ-: الِاسْمُ مِنْ ذَلِكَ؛ **وَمِنْهُ دُعَاءُ**

(1) فتح الباري لابن حجر (11/ 212).

الِاسْتِخَارَةِ: اللَّهُمَّ خِرْ لِي أَيِ: اخْتَرْ لِي أَصْلَحَ الأَمرين، وَاجْعَلْ لِي الخِيْرَة فِيهِ، **وَاسْتَخَارَ اللهَ**: طَلَبَ مِنْهُ الخِيرَةَ، **وَخَارَ لَكَ فِي ذَلِكَ**: جَعَلَ لَكَ فِيهِ الخِيرَة"[1].

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ، يَقُولُ: (إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي) قَالَ: (وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ)[2].

وإنما قيد المصنف الاستخارة بـ" المشروعة" لإخراج استخارة أهل الجاهلية، التي كانت تقوم على الاستقسام بالأزلام، وعلى الطيرة.

قال الدهلوي: "وكان أهل الجاهلية إذا عنت لهم حاجة من سفر أو نكاح أو بيع استقسموا بالأزلام، فنهى عنه النبي ﷺ؛ لأنه غير معتمد على أصل، وإنما هو محض اتفاق، ولأنه افتراء على الله بقولهم: أمرني ربي، ونهاني ربي،

---

(1) لسان العرب (4/ 266).

(2) رواه البخاري(6382).

فعوضهم من ذلك الاستخارة؛ فإن الإنسان إذا استمطر العلم من ربه، وطلب منه كشف مرضاة الله في ذلك الأمر، ولج في قلبه بالوقوف على بابه؛ لم يتراخ من ذلك فيضان سر إلهي، وأيضًا فمن أعظم فوائدها: أن يفنى الإنسان عن مراد نفسه، وتنقاد بهيميته لملكيته، ويسلم وجهه لله، فإذا فعل ذلك صار بمنزلة الملائكة في انتظارهم لإلهام الله، فإذا ألهموا سعوا في الأمر بداعية إلهية لا داعية نفسانية، وعندي أن إكثار الاستخارة في الأمور ترياق مجرب لتحصيل شبه الملائكة"[1].

(فَمَا نَدِمَ مَنْ اسْتَخَارَ اللهَ تَعَالَى) ورد في ذلك حديث، لكنه غير صحيح: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا خَابَ مَنِ اسْتَخَارَ، وَلَا نَدِمَ مَنِ اسْتَشَارَ، وَلَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ»[2].

والأشبه أنها كما **قال أبو منصور الثعالبي**: "وقال بعض الحكماء: ما خاب من استشار، ولا ندم من استخار"[3].

---

(1) حجة الله البالغة (2/ 30).

(2) رواه الطبراني في الأوسط(6627) والصغير(980)، وابن عساكر في معجمه(1103)، والقضاعي في مسنده(774)، **قال الهيثمي**: "رواه الطبراني في الأوسط والصغير من طريق عبد السلام بن عبد القدوس وكلاهما ضعيف جدًا"، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (8/ 96)، **وقال ابن حجر**: "وفي حديث أنس رفعه: ما خاب من استخار. والحديث أخرجه الطبراني في الصغير بسند واه جدًا"، فتح الباري لابن حجر (11/ 184).

(3) اللطائف والظرائف (ص: 119).

(وَلْيُكْثِرْ مِنْ ذَلِكَ) حتى يجد الاطمئنان إلى أحد الأعمال، وقد صرح بعض الفقهاء باستحباب تكرار الاستخارة عند عدم السكون لأمر من الأمور المشتبهة:

قال العيني: "فإن قلت: هل يستحب تكرار الاستخارة في الأمر الواحد إذا لم يظهر له وجه الصواب في الفعل أو الترك ما لم ينشرح صدره لما يفعل؟ قلت: بلى، يستحب تكرار الصلاة والدعاء لذلك... وقد يستدل للتكرار بأن النبي ﷺ كان إذا دعا دعا ثلاثًا"[1].

وقال الخضر الشنقيطي: "ويستحب تكرار الاستخارة في الأمر الواحد، إذا لم يظهر له وجه الصواب في الفعل أو الترك، حتى ينشرح صدره لما يفعل، ويستدل لهذا بأن النبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كان إذا دعا دعا ثلاثًا، وأما حديث إبراهيم بن البراء بأنه يكرر الاستخارة سبعًا فإنه باطل"[2] (وَمِنْ الدُّعَاءِ) **أي:** ويكثر من الدعاء أيضًا بأن يوفقه الله إلى أفضل الأعمال، ويرزقه حبها (فَإِنَّهُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ) **ومن أعظم الخير:** خير الآخرة، ومنه: ملازمة بعض الأعمال الصالحة، " وَقَدْ قيل: الدعاء مفتاح الحاجة، وأسنانها لقم الحلال"[3] (وَلَا

---

(1) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (7/ 225).

(2) كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري (11/ 108). وينظر أيضًا: حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح (ص: 398).

(3) الرسالة القشيرية (2/ 424).

يَعَجَلْ) في حصول الإجابة **(فَيَقُولُ)** بلسانه، أو في نفسه: **(قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي)**؛ **فعَنْ** أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ) قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الِاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ: (قَدْ دَعَوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ)[1].

فهذا الحديث "يقتضي الإلحاح على الله في المسألة، وأن لا ييأس الداعي من الإجابة، ولا يسأم الرغبة؛ فإنه يستجاب له، أو يكفر عنه من سيئاته، أو يدخر له؛ فإن الدعاء عبادة"[2].

قال ابن بطال: " قال بعض العلماء: قوله: (ما لم يعجل) يعني: يسأم الدعاء، ويتركه فيكون كالمانِّ بدعائه، وأنه قد أتى من الدعاء ما كان يستحق به الإجابة، فيصير كالمبخل لربّ كريم، لا تعجزه الإجابة، ولا ينقصه العطاء، ولا تضره الذنوب"[3].

قال ابن القيم: "ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه: أن يستعجل العبد، ويستبطئ الإجابة، فيستحسر ويدع الدعاء، وهو بمنزلة من بذر بذرًا، أو غرس غرسًا، فجعل يتعاهده ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله.

---

(1) رواه مسلم(2735).

(2) الاستذكار (2/ 526).

(3) شرح صحيح البخاري لابن بطال (10/ 100).

وفي البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي)"[1].

(وَلْيَتَحَرَّ الْأَوْقَاتَ الْفَاضِلَةَ) أي: يجتهد في طلبها للدعاء فيها، وهي الأوقات التي يكون الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة (؛ كَآخِرِ اللَّيْلِ)؛ لأنه وقت تكثر غفلة الناس عنه، ولا يقوم فيه، ويداوم على ذلك؛ إلا ذوو الإيمان الذين أهم أقرب من غيرهم إلى إجابة دعائهم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ)[2] (وَأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ)

أدبار الصلوات: إما قبل السلام منها، وإما بعد السلام، ولا يقيد بأحدهما إلا بقرينة، وقد ورد الدعاء في الموضعين:

عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاَتِي، قَالَ: (قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ)[3].

فقوله: "(أدعو به في صلاتي) أي: عقب التشهد الأخير، والصلاة عليك،

---

(1) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء (ص: 11).

(2) رواه البخاري(1145)، ومسلم(758).

(3) رواه البخاري(834) بَابُ الدُّعَاءِ قَبْلَ السَّلاَمِ، ومسلم(2705)

والاستعاذة، وإليه جنح البخاري في صحيحه حيث قال: "باب الدعاء قبل السلام"، ثم ذكر حديث أبي بكر هذا. قال ابن دقيق العيد في الكلام على هذا الحديث: هذا يقتضى الأمر بهذا الدعاء في الصلاة من غير تعيين محله، ولعل الأولى أن يكون في أحد موطنين: إما السجود، وإما بعد التشهد؛ لأنهما أمر فيهما بالدعاء، ولعله يترجح كونه فيما بعد التشهد بظهور العناية بتعليم دعاء مخصوص في هذا المحل. ونازعه الفاكهاني، فقال: الأولى الجمع بينهما في المحلين المذكورين أي: السجود والتشهد. وقال النووي: استدلال البخاري صحيح؛ لأن قوله: "في صلاتي" يعم جميعها، ومن مظانه هذا الموطن. وقال العيني: ظاهر الحديث عموم جميع الصلاة. ولكن المراد بعد التشهد الأخير قبل السلام؛ لأن لكل مقام من الصلاة ذكراً مخصوصاً، فتعين أن يكون مقامه بعد الفراغ من الكل وهو آخر الصلاة، وبيانه أن للصلاة قياماً، وركوعاً، وسجوداً، وقعوداً، فالقيام محل قراءة القرآن، والركوع والسجود لهما دعاءان مخصوصان، والقعود محل التشهد، فلم يبق للدعاء إلا بعد التشهد قبل السلام"[1].

قال القسطلاني: "(علمني دعاء أدعو به في صلاتي) أي: في آخرها بعد التشهد الأخير: قبل السلام"[2].

وقال ابن القيم: "وإن روي في غير الصحيح أنه كان أحياناً يدعو بدعاء عارض

---

(1) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (3/ 295).

(2) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (2/ 132).

بعد السلام، وفي صحته نظر. وبالجملة فلا ريب أن عامة أدعيته التي كان يدعو بها، وعلمها الصديق إنما هي في صلب الصلاة، وأما حديث معاذ بن جبل: (لا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك) فدبر الصلاة يراد به آخرها قبل السلام منها، كدبر الحيوان، ويراد به ما بعد السلام كقوله: (تسبحون الله وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة) الحديث. والله أعلم"[1].

وقال أيضًا: "ودبر الصلاة يحتمل قبل السلام وبعده، وكان شيخنا يرجح أن يكون قبل السلام، فراجعته فيه، فقال: دبر كل شيء منه، كدبر الحيوان"[2].

ولما عدد مواضع الدعاء في الصلاة قال: "...السابع: بعد التشهد وقبل السلام، وبذلك أمر في حديث أبي هريرة، وحديث فضالة بن عبيد، وأمر أيضًا بالدعاء في السجود.

وأما الدعاء بعد السلام من الصلاة مستقبل القبلة، أو المأمومين، فلم يكن ذلك من هديه ﷺ أصلاً، ولا روي عنه بإسناد صحيح ولا حسن.

وأما تخصيص ذلك بصلاتي الفجر والعصر، فلم يفعل ذلك هو ولا أحد من خلفائه، ولا أرشد إليه أمته، وإنما هو استحسان رآه من رآه عوضًا من السنة بعدهما، والله أعلم"[3].

---

(1) زاد المعاد في هدي خير العباد (2/ 263).

(2) زاد المعاد في هدي خير العباد (1/ 295).

(3) زاد المعاد في هدي خير العباد (1/ 249).

وعَنْ عَبْـدِ اللهِ بـن مـسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَـالَ: كُنَّـا إِذَا كُنَّا مَـعَ النَّبِـيِّ ﷺ فِـي الصَّلاَةِ، قُلْنَا: السَّلاَمُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، الـسَّلاَمُ عَلَى فُـلاَنٍ وَفُـلاَنٍ، فَقَـالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لاَ تَقُولُوا: السَّلاَمُ عَلَى اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلاَمُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلاَمُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الـصَّالِحِينَ؛ فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ أَصَـابَ كُـلَّ عَبْدٍ فِي الـسَّمَاءِ أَوْ بَـيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْـهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْـدُهُ وَرَسُـولُهُ، ثُـمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ، فَيَدْعُو)[1].

قال الصنعاني: "وعقد البخاري ترجمة في الصحيح فقال: بـاب الـدعاء قبل السلام، أي: بعد التشهد هـذا الـذي يتبـادر مـن ترتيبـه. وقـد ورد تعيين محله في حديث ابن مسعود في بعض طرقه: "ثم ليتخير من الدعاء ما شاء"[2].

ومن الدعاء بعد السلام: الاستغفار المشروع مع أذكـار الـصلاة الأخـرى. واستحب بعض العلماء الدعاء بعد السلام.

قـال ابـن حجـر: "وزعـم بعـض الحنابلـة أن المـراد بـدبر الـصلاة: مـا قبـل الـسلام، وتعقـب بحـديث: (ذهـب أهـل الـدثور)؛ فـإن فيـه: (تـسبحون دبـر كـل صلاة) وهو بعد السلام جزمًا، فكذلك ما شابهه"[3].

---

(1) رواه البخاري(835) بَابُ مَا يُتَخَيَّرُ مِنَ الدُّعَاءِ بَعْدَ التَّشَهُّدِ وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ، ومسلم(402).

(2) التحبير لإيضاح معاني التيسير (5/ 404).

(3) فتح الباري لابن حجر (2/ 335).

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ؟ قَالَ: (جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرِ، وَدُبُرَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ)(1).

"**قوله**: (أي الدعاء أسمع) أي: أوفق إلى السماء، أو أقرب إلى الإجابة جوف الليل"(2).

وقال ابن علان: "(ودبر) بضمتين أي: عقب (الصلوات المكتوبات) أي: الفرائض؛ وذلك لأن الصلاة مناجاة العبد لربه، ومحل مسألته من فضله، وبعد تمام العمل يظهر الأمل"(3).

وقال ابن عثيمين: "والظاهر أن المراد بدبر الصلوات المكتوبة (في حديث أبي أمامة إن صح) آخر الصلاة؛ لأن دبر الصلاة إذا كان صالحًا لآخرها فتفسيره به أولى؛ لأن كلام الله ورسوله يفسر بعضه بعضًا"(4).

(وَعِنْدَ الْأَذَانِ) **يعني**: عقب الأذان، وبين الأذان والإقامة عمومًا، **وقد جاء النص بذلك**:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (ثِنْتَانِ لَا تُرَدَّانِ، أَوْ

(1) رواه الترمذي(3499)، والنسائي في الكبرى(9856) وفي عمل اليوم والليلة(108) وحسنه الألباني.
(2) تحفة الأحوذي (9/ 331).
(3) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (7/ 303).
(4) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (13/ 268).

قَلَّمَا تُرَدَّانِ: الدُّعَاءُ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَعِنْدَ الْبَأْسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا)[1].

قال ابن العربي: "فينبغي أن تغتنم تلك الساعة وأمثالها؛ فإنها متهيئة للقبول، ولكن للدعاء شروط يقبل معها ولا يصح دونها، وقد بيَّنا في كتاب المشكلين شروطه وخصائصه، وجماعها عشرون خصلة، وثمرتها الإجابة، وكل داعٍ مقبول دعاؤه؛ **لقوله تعالى:** ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ﴾ لكن الإجابة على ثلاثة أوجه: إما أن تقضى له حاجته التي عين، وإما أن يعوض خيراً منها مما لم يعلم الداعي قدرها، ولو علمه لرضي بالبدل، وإما أن يدخر له إلى الآخرة، وكذلك هو نص"[2].

وقال ابن المَلَك: "والمناسبة بين النداء والبأس: أن الأول من خواص الجهاد الأكبر وحثٌّ عليه، والثاني جهاد أصغر"[3].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (الدَّعْوَةُ لَا تُرَدُّ بَيْنَ

---

(1) رواه مالك(185)، وعبد الرزاق(1910)، وأبو داود(2540)، والدارمي(1236)، وابن خزيمة(419)، وابن حبان(1720)، والروياني(1047)، وابن أبي عاصم في الجهاد(18)، والبيهقي في الدعوات الكبير(52) والكبرى(1938)، والطبراني في الكبير(5756) والدعاء (489)، وابن الجارود(1065)، والشجري في ترتيب الأمالي(1087)، وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (6/ 343)، وابن عساكر في معجمه(357)، والحاكم(2534) **وقال:** "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ" ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

(2) القبس في شرح موطأ مالك بن أنس (ص: 197).

(3) شرح المصابيح لابن الملك (1/ 411).

الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ)[1]، وزادوا -ما عدا أبا داود-: (فَادْعُوا).

وزاد الترمذي: "قَالُوا: فَمَاذَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: (سَلُوا اللهَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ).

قال الصنعاني: "(الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة) مع تكامل شرائطه، فإنما هذا بيان وقت الإجابة، ولابد من سائر الشرائط"[2].

وقال أيضًا: "والحديث دليل على قبول الدعاء في هذه المواطن؛ إذ عدم الرد يراد به القبول والإجابة، ثم هو عام لكل دعاء، ولا بد من تقييده بما في الأحاديث غيره، من أنه ما لم يكن دعا بإثم أو قطيعة رحم"[3].

وقد "حرَّض رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ على صلاة النفل بين الأذان والإقامة؛ لأن الدعاء لا يردُّ بين الأذان والإقامة؛ لشرف ذلك الوقت، وإذا كان الوقتُ

(1) رواه أحمد(13357)، وأبو داود(521)، والترمذي(212)، والنسائي في الكبرى(9812) وعمل اليوم والليلة(67)، وابن خزيمة(425)(426) بَابُ اسْتِحْبَابِ الدُّعَاءِ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ رَجَاءَ أَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ غَيْرَ مَرْدُودَةٍ بَيْنَهُمَا، وابن حبان(1696) باب ذِكْر اسْتِحْبَابِ الْإِكْثَارِ مِنَ الدُّعَاءِ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ؛ إِذِ الدُّعَاءُ بَيْنَهُمَا لَا يُرَدُّ، وابن السني في عمل اليوم والليلة (102)، والطيالسي(2220)، وأبو يعلى(3679)، والبزار(6511)، والقضاعي (120)، وابن أبي شيبة(8465)، وعبد الرزاق(1909)، والضياء في المختارة(1561)، والطبراني في الدعاء(483)، والبيهقي في الدعوات الكبير(60) والسنن الكبرى(1937)، والشجري في ترتيب الأمالي(1124)، وصححه الألباني، والأرناؤوط.

(2) التنوير شرح الجامع الصغير (6/ 129).

(3) سبل السلام (1/ 195).

أشرفَ يكون ثواب العبادات فيه أكثر"[1].

(وَوَقْتَ نُزُولِ الْمَطَرِ) جاء في حديث سهل بن سعد السابق زيادة: (وَتَحْتَ الْمَطَرِ)[2].

وَعَنْ مَكْحُولٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (اطْلُبُوا إِجَابَةَ الدُّعَاءِ عِنْدَ الْتِقَاءِ الْجُيُوشِ، وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَنُزُولِ الْغَيْثِ)[3].

"قال الشافعي: وقد حفظت عن غير واحد طلب الإجابة عند نزول الغيث، وإقامة الصلاة"[4].

قال الحليمي: "وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾[الشورى:28]، فبان بهذه الآية أن حال نزول الغيث حال رحمته، والاسترحام في حال الرحمة إرجاء فيه حال لا يعرف حقبها[5]"[6].

---

(1) المفاتيح في شرح المصابيح (2/ 50)، وينظر: فتح الباري لابن حجر (2/ 109).

(2) رواها أبو داود(2540)، وابن أبي عاصم(19)، والبيهقي(6459)، والحاكم(2534)، والطبراني في الكبير(5756)، والروياني(1047)، وحسنها الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (1/ 590).

(3) رواه الشافعي في الأم (1/ 289). قال الألباني: " قلت: لكن الحديث له شواهد من حديث سهل بن سعد وابن عمر وأبي أمامة خرجتها في" التعليق الرغيب " (1 / 116) وهي وإن كانت مفرداتها ضعيفة إلا أنه إذا ضمت إلى هذا المرسل أخذ بها قوة وارتقى إلى مرتبة الحسن إن شاء الله تعالى"، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (3/ 454).

(4) الأم للشافعي (1/ 289).

(5) حقبها: امتناعها.

(6) المنهاج في شعب الإيمان (1/ 538).

(وَنَحْـوَ ذَلِـكَ) يعنـي: والـدعاء نحـو هـذا المـذكور مـن هـذه الأوقـات والأحوال، ومن ذلك: ما ذكره المصنف في الفتاوى الكبرى، **وما ذكره ابن القيم في الجواب الكافي**:

قال المصنف: "فلا ريب أن الدعاء في بعض الأوقات والأحوال أجوب منه في بعض؛ فالدعاء في جوف الليل أجوب الأوقات؛ كما ثبت في الصحيحين: عن النبي ﷺ أنه قال: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير - وفي رواية: نصف الليل - فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له. حتى يطلع الفجر» . وفي حديث آخر: «أقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل الأخير»، والدعاء مستحب عند نزول المطر، وعند التحام الحرب، وعند الأذان، والإقامة، وفي أدبار الصلوات، وفي حال السجود، ودعوة الصائم، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم. وأمثال ذلك، فهذا كله مما جاءت به الأحاديث المعروفة في الصحاح والسنن"[(1)].

وقال ابن القيم: "وإذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم، وصادف خشوعًا في القلب وانكساراً بين يدي الرب،

---

(1) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (2/ 435).

وذلًّا له وتضرعًا ورقّة، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله تعالى، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنّى بالصلاة على محمد عبده، ثم قدّم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله وألحّ عليه في المسألة، وتملّقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدّم بين يدي دعائه صدقة؛ فإن هذا الدعاء لا يكاد يُرد أبداً، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم"[1].

وأختم هذه الفقرة بملخص مفيد اختصره البيهقي (ت: 458هـ) من المنهاج للحليمي(ت: 403 هـ)، يقول البيهقي -ذاكراً أركان إجابة الدعاء وآدابه، وأحوال الإجابة، وأوقاتها-:"...قال **ومن أركانه**: أن لا يكون عليه في سؤال ما يسأل حرج. **ومنها**: أن يكون له في السؤال غرض صحيح.

ومنها: أن يكون حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ عند الدعاء، فتكون الإجابة على قلبه أغلب من الرد. **ومنها**: أن يسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى **قال الله تعالى**: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:180]. **ومنها**: أن يسأل ما يسأل بجد وحقيقة، ولا يأخذ دعاء مؤلّفًا فيسرده سردًا وهو عن حقائقه غافل. **ومنها**: أن لا يشغله الدعاء عن فريضة لله تعالى حاضرة فيفوتها. **ومنها**: أن يكون دعاؤه سؤالاً بالحقيقة، لا اختبارًا لربه جل ثناؤه. **ومنها**: أن يصلح لسانه إذا دعا، فلا يخاطب ربه جل ثناؤه بما لو خاطب به كفؤه وقرينه نسبه إلى قلة الحياء

(1) الجواب الكافي، لابن القيم (ص: 5).

وسوء الأدب، أو ركاكة العقل. **ومنها**: أن لا يدعوا ضجرًا مستعجلاً يضمر أنه إن أجيب في الوقت الذي يريد، وإلا يئس وترك، بل يدعو متعبدًا متخشعًا يضمر أنه لا يزال يدعو ويتضرع إلى أن يجاب، وكلما زادت الإجابة عنده تراخيًا زاد الدعاء تتابعًا وتواليًا. **ومنها**: أن حاجته إذا عظمت لم يسألها الله عَزَّوَجَلَّ مستعظمًا إياها في ذات الله تعالى، بل يسأله الصغيرة والكبيرة سؤالاً واحدًا، ويرى منّة الله تعالى في إجابته إليها عظيمة.

وأما آدابه فمنها: أن يقدم التوبة أمام الدعاء. **ومنها**: الجد في الطلب والإلحاح. **ومنها**: المحافظة على الدعاء في الرخاء دون تخصيص حال الشدة والبلاء. **ومنها**: أن يعزم إذا سأله. ومنها: أن يدعو ثلاثًا. **ومنها**: أن يقتصر على جوامع الدعاء ما لم تعرض له حاجة بعينها فينص عليها. **ومنها**: افتتاح الدعاء وختمه بالصلاة على رسول الله ﷺ. **ومنها**: أن يدعو وهو طاهر. **ومنها**: أن يدعو وهو مستقبل القبلة. **ومنها**: أن يدعو في دبر صلواته. **ومنها**: أن يرفع اليدين حتى يحاذي بهما المنكبين إذا دعا. **ومنها**: أن يخفض صوته بالدعاء. **ومنها**: أن يمسح وجهه بيديه إذا فرغ من الدعاء. **ومنها**: أن يحمد الله عَزَّوَجَلَّ إذا عرف الإجابة. **ومنها**: أن لا يخلي يومًا ولا ليلة من الدعاء. قال: ويتحرى للدعاء الأوقات والأحوال والمواطن التي يرجى فيها الإجابة؛ **فأما الأوقات فمنها**: ما بين الظهر والعصر من يوم الأربعاء. **ومنها**: ما بين زوال الشمس من يوم الجمعة إلى أن تغرب الشمس. **ومنها**: الدعاء في الأسحار. **ومنها**: عند فيئ الأفياء.

ومنها: الدعاء يوم عرفة. **وأما الأحوال فمنها**: حال النداء للصلاة. **ومنها**: حين فطر الصائم. **ومنها**: عند نزول الغيث. **ومنها**: عند التقاء الصفين. **ومنها**: عند اجتماع المسلمين على الدعاء. **ومنها**: أدبار المكتوبات. **ومنها**: عند القيام من المجلس. **وأما** المواطن، فالموقفان، والجمرتان، وعند البيت، والملتزم خاصة، وعلى الصفا والمروة.

وقد ذكر الحليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تفسير كل فصل من هذه الفصول، وأشار إلى دلالته من الكتاب والسنة والأثر، ونحن قد ذكرنا بعض ما حضرنا من ذلك في "كتاب الدعوات" فأغنى ذلك عن إعادتها هاهنا وبالله التوفيق"[1].

(1) شعب الإيمان (2/ 373).

أرجح المكاسب:

(وَأَمَّا أَرْجَحُ الْمَكَاسِبِ: فَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ، وَالثِّقَةُ بِكِفَايَتِهِ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِه؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُهْتَمِّ بِأَمْرِ الرِّزْقِ أَنْ يَلْجَأَ فِيهِ إِلَى اللهِ، وَيَدْعُوهُ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ -فِيمَا يَأْثُرُ عَنْهُ نَبِيُّهُ-: (كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْته، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْته، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ) وَفِيمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا، حَتَّى شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ؛ فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ)، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾[النساء:32]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾[الجمعة:10]، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ فِي الْجُمُعَةِ فَمَعْنَاهُ قَائِمٌ فِي جَمِيعِ الصَّلَوَاتِ؛ وَلِهَذَا -وَاللهُ أَعْلَم- أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الَّذِي يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ أَنْ يَقُولَ: (اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِك)، وَإِذَا خَرَجَ أَنْ يَقُولَ: (اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك مِنْ فَضْلِك)، وَقَدْ قَالَ الْخَلِيلُ ﷺ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾[العنكبوت:17]، وَهَذَا أَمْرٌ، وَالْأَمْرُ يَقْتَضِي الْإِيجَابَ، فَالِاسْتِعَانَةُ بِاَللهِ، وَاللَّجَأُ إلَيْهِ فِي أَمْرِ الرِّزْقِ وَغَيْرِهِ أَصْلٌ عَظِيمٌ.

ثُمَّ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمَالَ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ؛ لِيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَأْخُذُهُ بِإِشْرَافٍ وَهَلَعٍ؛ بَلْ يَكُونُ الْمَالُ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ الْخَلَاءِ الَّذِي يَحْتَاجُ إلَيْهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الْقَلْبِ مَكَانَةٌ، وَالسَّعْيُ فِيهِ إذَا سَعَى كَإِصْلَاحِ الْخَلَاءِ. وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ: (مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ شَتَّتَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ،

وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ جَمَعَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ). وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: "أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَى الدُّنْيَا، وَأَنْتَ إِلَى نَصِيبِك مِنْ الْآخِرَةِ أَحْوَجُ، فَإِنْ بَدَأْتَ بِنَصِيبِك مِنْ الْآخِرَةِ مَرَّ عَلَى نَصِيبِك مِنْ الدُّنْيَا فَانْتَظَمَهُ انْتِظَامًا". قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[الذاريات:56-58].

فَأَمَّا تَعْيِينُ مَكْسَبٍ عَلَى مَكْسَبٍ مِنْ صِنَاعَةٍ، أَوْ تِجَارَةٍ، أَوْ بِنَايَةٍ، أَوْ حِرَاثَةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ فَهَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ، وَلَا أَعْلَمُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا عَامًّا، لَكِنْ إذَا عَنَّ لِلْإِنْسَانِ جِهَةٌ فَلْيَسْتَخِرِ اللهَ تَعَالَى فِيهَا الِاسْتِخَارَةَ الْمُتَلَقَّاةَ عَنْ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ ﷺ؛ فَإِنَّ فِيهَا مِنَ الْبَرَكَةِ مَا لَا يُحَاطُ بِهِ، ثُمَّ مَا تَيَسَّرَ لَهُ فَلَا يَتَكَلَّفُ غَيْرَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْهُ كَرَاهَةٌ شَرْعِيَّةٌ).

في هذه الفقرة من الجواب عن أرجح المكاسب مهد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ببيان الطريق الشرعي التعبدي لجلب الرزق؛ من التوكل والثقة، وحسن الظن بالله، واللجوء إليه ودعائه، ثم بيان الموقف الإيماني من المال، ثم تحدث بعد ذلك عن المكاسب وأسباب الرزق.

الطريق الشرعي التعبدي لجلب الرزق:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَأَمَّا أَرْجَحُ الْمَكَاسِبِ) أي: أحسنها وأفضلها في ميزان الشرع؛ للظفر بالبركة، وأحسن الحِل عند تعيينه، وتفضيله على غيره،

والمكاسب: جمع مكسب، وهو: ما يُكسب، والكْسب: طلب الرزق والمعيشة، وهو بمعنى الربح (: فَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ) وهذا لعله من الخروج عن الظاهر، المسمى عند البلاغيين بأسلوب الحكيم، و"هو عند علماء البلاغة: صَرْفُ كلامِ المتكلّم، أو سؤال السائل عن المراد منه، وحَمْلُه على ما هو الأَوْلَى بالْقَصْد، أو إجابته على ما هو الأولى بالقصد"[1]، فقد صرف المصنف السائل أولاً عن تعيين ما أراد من مكاسب الدنيا إلى الطريق الصحيح ابتداء لتحصيل الرزق، كما صرف النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ السائل عن الساعة بالجواب عن الإعداد الصالح لها، ورد السؤال بالسؤال ليلفت انتباه السائل وغيره أن الذي ينفع هو العمل، ويشير بإشارة خفية إلى أن قيام الساعة لا يعلمه إلا الله؛ **فعَنْ** أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: (وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟)، قَالَ: لاَ شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، فَقَالَ: (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ). قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ) قَالَ أَنَسٌ: "فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ، وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ"[2].

والتوكل على الله هو: "صدق اعتماد القلب على الله عَزَّوَجَلَّ في استجلاب المنافع، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة، وتفويض الأمور كلها إليه،

---

(1) البلاغة العربية (1/ 498).

(2) رواه البخاري(3688)، ومسلم(2639).

وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع، ولا يضر ولا ينفع سواه"[1].

وقال القرطبي: "التوكل على الله هو: الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماض، واتباع سنة نبيه ﷺ في السعي فيما لابد منه من الأسباب"[2].

والإنسان محتاج إلى التوكل على الله تعالى في كل شيء، **ومن ذلك:** عند طلب الرزق؛ فإن الرزق لا ينال بقوة قوي، ولا حرص حريص، ولا ذكاء ذكي؛ قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾[الفرقان:58]، ومتعلق التوكل هنا عام، ومنه الرزق.

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَو أَنَّكُم تَوَكَّلُون عَلَى الله حَق تَوَكُّلِه لَرُزِقْتُم كَمَا تُرْزَق الطَّيْر، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوح بِطَانًا)[3].

والتوكل في الرزق يجعل العبد مطمئنًا متعلقًا بالله لا بالخلق، ومن كان كذلك رزقه الله من حيث لا يحتسب.

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ نَزَلَتْ بِهِ

---

(1) جامع العلوم والحكم (51/ 2).

(2) تفسير القرطبي (4/ 189).

(3) رواه أحمد(373)، والترمذي(2344)، والنسائي في الكبرى(11805)، وابن حبان(730)، والبيهقي في الشعب(1139)، وأبو داود الطيالسي(51)، وأبو يعلى(247)، والبزار(340)، والحاكم(7894) **وقال:** "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ" وسكت عنه الذهبي، وصححه الألباني.

فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِاللهِ، فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ)[1].

قال ابن القيم عن منزلة التوكل: إنها " أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين؛ لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل، ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، والطير والوحش والبهائم"[2].

(وَالثِّقَةُ بِكِفَايَتِهِ) أي: قوة اليقين بحفظه والاستغناء به عن غيره **(وَحُسْنُ الظَّنِّ بِهِ)** بأن يعتقد المرء أن الله سينيله رزقه المقسوم له، من غير أن يصحبه يأس وسوء ظن بالله بأنه يمنع عنه ما كُتب له.

وصدق من قال:

فَلا تَجْزَعْ وَإِنْ أَعْسَرْتَ يَومًا ... فَقَدْ أَيْسَرْتَ فِي الزَّمَنِ الطَّوِيْلِ
وَلا تَيْأَسْ فَإِنَّ اليَأْسَ كُفْرٌ ... لَعَلَّ اللهَ يُغْنِي عَنْ قَلِيْلِ
وَإِنَّ العُسْرَ يَتْبَعُهُ يَسَارٌ ... وَقَوْلُ اللهِ أَصْدَقُ كُلِّ قِيْلِ
وَلا تَظْنُنْ بِرَبِّكَ ظَنَّ سوءٍ ... فَإِنَّ اللهَ أَوْلَى بِالجمِيْلِ[3]

---

(1) رواه أحمد(4219)، والترمذي(2326)، والبزار(1458)، والبيهقي في الشعب (1046)، وأبو يعلى(5317)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. **وقال شاكر:** "إسناده صحيح".

(2) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (2/ 114).

(3) الدر الفريد وبيت القصيد (8/ 154).

(وَذَلِكَ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُهْتَمِّ) **المهتم**: المعتني (بِأَمْرِ الرِّزْقِ أَنْ يَلْجَأَ فِيهِ إِلَى اللهِ) يعتصم ويلوذ به (وَيَدْعُوَهُ) دعاء مسألة، بإلحاح وصدق توجه (كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ -فِيمَا يَأْثُرُ عَنْهُ نَبِيُّهُ-) ينقل ويروي (: (كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْته، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْته، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ)[1] "**وقوله**: (كلكم جائع إلا من أطعمته) يعني: سبحانه وتعالى أنه خلق الخلق ذوي فقر إلى الطعام، وأن كل طاعم فإنه كان جائعًا حتى أطعمه الله تعالى بأنواع منها: سوق الرزق، **ومنها**: تصحيح الآلة المتناولة لذلك الرزق، فهو سبحانه يسوق إليك الطعمة، ويهيء آلات استطعامك لتناولها، ويلطف بك حتى يخلصك من أثقالها. **وقوله**: (فاستطعموني) أي: اطلبوا الرزق مني، ولا يستنكف حي ولا ذو كثرة أن يستطعمني؛ فإن ذلك بجهله وعمهه يظن أن ذلك الذي في يده من رزقي وقد رفعه إلى فيه؛ يطعمه إياه غيري، وفيه أيضًا للفقراء ما يؤدبهم؛ وكأنه قال: لا تطلبوا الطعمة من غيري؛ فكل هؤلاء الذين تطلبون منهم أنا أطعمهم. **وقوله**: (كلكم عار إلا من كسوته) فيه من الفقه: أن الكُسا من الله تعالى متنوعة؛ فقد يكسو من عري جسدًا، وقد يكسو بالستر الجميل. **وقوله**: (فاستكسوني) أي: اطلبوا مني الكسوة الجميلة الطاهرة؛ فإن من كساه الله تعالى لباس التقوى لم يقدر أحد أن ينزعه عنه"[2].

---

(1) رواه مسلم (2577) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) الإفصاح عن معاني الصحاح (2/ 186).

(وَفِيمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا، حَتَّى شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ؛ فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ)[1]

قوله: "(ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها)؛ فإن خزائنه بالعطاء مملوءة، ويده بالبذل مطلقة، وقد أمر عباده بسؤاله، فليبشر السائل بنواله (حتى يسأله شسع) بكسر الشين المعجمة وسكون السين المهملة آخره مهملة: أحد سيوره[2] (إذا انقطع) فلا يتعاظم شيئًا يطلبه من مولاه، ولا يستحي من طلب شيء ولو حقر"[3].

وجاء عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قَالَتْ: "سَلُوا اللهَ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الشِّسْعَ؛ فَإِنَّ اللهَ إِنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ"[4].

وعند البيهقي بلفظ: "سلوا الله التيسير في كل شيء، حتى الشسع في النعل؛ فإنه إن لم ييسره الله لم يتيسر"[5].

---

(1) رواه الترمذي(3604)، والبيهقي في الشعب(1079)، والطبراني في الدعاء(25) والأوسط (5595)، والبزار(3135)، وابن حبان(866)، وابن السني في عمل اليوم والليلة(354)، وأبو يعلى (3403)، **وقال الهيثمي:** "رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير سيار بن حاتم، وهو ثقة"، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (10/ 150).
وضعفه الألباني في بعض كتبه، وحسنه في مشكاة المصابيح (2/ 696).

(2) **قال الطيبي:** "**الشسع:** أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الأصبعين، ويدخل طرفه في النقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام. **والزمام:** السير الذي يدخل فيه الشسع". شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (5/ 1718).

(3) التنوير شرح الجامع الصغير (9/ 219).

(4) رواه أبو يعلى(4560)، وابن السني في عمل اليوم والليلة(355)، وسنده صحيح.

(5) شعب الإيمان(1081).

قال ابن بطال: "ليستشعر العبد الافتقار إلى ربه في كل أمر وإن دق، ولا يستحيي من سؤاله ذلك"[1].

وقال المناوي: "طلب أحقر الأشياء من أعظم العظماء أبلغ من طلب الشيء العظيم منه، ومن ثم عبر بقوله: (ليسأل) وكرره ليدل على أنه لا مانع ثَم، ولا راد لسائل، ولأن في السؤال من تمام ملكه، وإظهار رحمته وإحسانه، وجوده وكرمه، وإعطائه المسؤول ما هو من لوازم أسمائه وصفاته، واقتضائها لآثارها ومتعلقاتها، فلا يجوز تعطيلها عن آثارها وأحكامها، فالحق سبحانه وتعالى جواد، له الجود كله، يحب أن يُسأل ويُطلب"[2].

(وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾[النساء:32]) أي: "إن احتجتم إلى ما لغيركم، وأحببتم أن يكون لكم مثل ما له، فاسألوا الله أن يعطيكم مثل ذلك من فضله"[3]، **وقبل هذه الجملة من الآية قال تعالى:** ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ **أي:** "لا تتمنوا ما فضل به بعضكم على بعض؛ فإن هذا أمر محتوم، والتمني لا يجدي شيئًا، ولكن سلوني من فضلي أعطكم؛ فإني كريم وهاب"[4].

(1) شرح صحيح البخاري لابن بطال (10/ 118).

(2) فيض القدير (5/ 354).

(3) التفسير البسيط (6/ 478).

(4) تفسير ابن كثير (2/ 287).

(وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾[الجمعة:10]، قال الخازن: "أي: إذا فرغتم من صلاة الجمعة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ يعني: الرزق، وهذا أمر إباحة، قال ابن عباس: إن شئت فاخرج، وإن شئت فاقعد، وإن شئت فصل إلى العصر"(1).

فهو تعالى " لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء، وأمرهم بالاجتماع، أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض، والابتغاء من فضل الله؛ كما كان عراك بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد، فقال: اللهم إني أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين"(2).

(وَهَذَا وَإِنْ كَانَ فِي الْجُمْعَةِ فَمَعْنَاهُ قَائِمٌ فِي جَمِيعِ الصَّلَوَاتِ) أي: وهذا الابتغاء والسعي لطلب الرزق وإن كان عقب صلاة الجمعة؛ لظاهر الآية، ولكنه يشمل كل صلاة (؛ وَلِهَذَا -وَاللهُ أَعْلَم-) وهذا الاعتراض بهذه الجملة من ورع المصنف في التحدث بمسألة ليس فيها نقل في بيان مقصد أمرٍ جاء فيه نقل؛ حين أرجع العلم إلى الله؛ لأن ما ذكره قد يوافق المقصد الشرعي للقول، وقد يخالفه (أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الَّذِي يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ أَنْ يَقُولَ: (اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِك)،

---

(1) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (4/ 294).

(2) تفسير ابن كثير (8/ 122).

وَإِذَا خَرَجَ أَنْ يَقُولَ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُك مِنْ فَضْلِك)[1] قال الطيبي -وهو معاصر للمصنف-: "لعل السر في تخصيص ذكر الرحمة بالدخول والفضل بالخروج: أن من دخل اشتغل بما يزلفه إلى الله، وإلى ثوابه وجنته، فناسب أن يذكر الرحمة، فإذا خرج انتشر في الأرض ابتغاء فضل الله من الرزق الحلال، فناسب الفضل كما **قال الله تعالى**: ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ ولما لم يزل الإنسان في التقصير لزم في الحالتين طلب الغفران"[2][3].

(وَقَدْ قَالَ الْخَلِيلُ ﷺ) يعني: إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **قال الله تعالى**: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾[النساء:125]. **قال ابن كثير**: "وقوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه؛ لأنه إمام يقتدى به؛ حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له؛ فإنه انتهى إلى درجة الخُلَّة التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه"[4].

(: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾[العنكبوت:17] **وذلك في**

---

(1) عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ، فَلْيَقُلْ: اللهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ، فَلْيَقُلْ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ) رواه مسلم(713).

(2) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (3/ 935).

(3) لأن الحديث جاء عند الترمذي(314)، وأحمد(26416)، وابن ماجه(771) وغيرهم بلفظ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: (رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ)، وَإِذَا خَرَجَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: (رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ).

(4) تفسير ابن كثير (2/ 374).

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت:16-17].

فقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾ يقول: فالتمسوا عند الله الرزق، لا من عند أوثانكم، تدركوا ما تبتغون من ذلك ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ يقول: وذلوا له ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ على رزقه إياكم، ونعمه التي أنعمها عليكم، يقال: شكرته وشكرتُ له، أفصح من شكرته. وقوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول: إلى الله تُرَدّون من بعد مماتكم، فيسألكم عما أنتم عليه من عبادتكم غيره، وأنتم عباده وخلقه، وفي نعمه تتقلَّبون، ورزقه تأكلون"[1].

(وَهَذَا أَمْرٌ، وَالْأَمْرُ يَقْتَضِي الْإِيجَابَ) يعني: قوله: ﴿فَابْتَغُوا﴾؛ فهو أمر واجب، ولا صارف له عن ذلك إلى الإرشاد أو الإباحة، وكون الأمر يقتضي الإيجاب هو أمر معلوم لدى الأصوليين، وقاعدة من قواعد الأصول لديهم[2]، وهي قاعدة كلية تدخل تحتها جزئيات لا حصر لها.

(فَالِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ، وَاللَّجَأُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ الرِّزْقِ وَغَيْرِهِ؛ أَصْلٌ عَظِيمٌ) هذه

(1) تفسير الطبري (20/ 20).

(2) ينظر: التبصرة في أصول الفقه (ص: 93)، الفصول في الأصول (2/ 160)، الواضح في أصول الفقه (2/ 536).

خلاصة مفيدة لما سبق للمصنف سرده؛ تبين أن طريق طلب الرزق يبدأ بطلبه في السماء -بالتوكل، والدعاء، وحسن الظن بالله- قبل طلبه في الأرض -بالسعي، وبذل الأسباب المشروعة-.

وقال المصنف في " العبودية : "وَقد دلّت النُّصُوص على الْأَمر بِمَسْأَلَة الْخَالِق، وَالنَّهْي عَن مَسْأَلَة الْمَخْلُوق فِي غير مَوضِع كَقَوْلِه تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾[الشرح:7-8]، وَقَول النَّبِي ﷺ لِابْنِ عَبَّاس: (إِذا سَأَلت فأسال الله، وإذا استعنت فَاسْتَعِنْ بِالله)، وَمِنْه قَول الْخَلِيل: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾[العنكبوت:17]، وَلم يقل: فابتغوا الرزق عِنْد الله؛ لِأَن تَقْدِيم الظّرْف يشْعر بالاختصاص والحصر، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا تَبْتَغُوا الرزق إِلَّا عِنْد الله، وَقد قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾[النساء:32]، وَالْإِنْسَان لابد لَهُ من حُصُول مَا يحْتَاج إِلَيْهِ من الرزق وَنَحْوه، وَدفع مَا يضرّهُ، وكلا الْأَمريْنِ شرع لَهُ أَن يكون دعاؤه لله، فَلَا يسْأَل رزقه إِلَّا من الله، وَلَا يشتكي إِلَّا إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ يَعْقُوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾[يوسف:86]"[1].

وقال ابن القيم: "فإن الرب سبحانه يحب من عبده أن يسأله ويرغب إليه؛ لأن وصول بره وإحسانه إليه موقوف على سؤاله، بل هو المتفضل به ابتداء بلا سبب من العبد، ولا توسط سؤاله وطلبه.

بل قدر له ذلك الفضل بلا سبب من العبد، ثم أمره بسؤاله والطلب منه،

(1) العبودية (ص: 84).

إظهارًا لمرتبة العبودية والفقر والحاجة، واعترافًا بعز الربوبية، وكمال غنى الرب، وتفرده بالفضل والإحسان، وأن العبد لا غنى له عن فضله طرفة عين، فيأتي بالطلب والسؤال إتيان من يعلم أنه لا يستحق بطلبه وسؤاله شيئًا، ولكن ربه تعالى يحب أن يسأل، ويرغب إليه، ويطلب منه"(1).

الموقف الرشيد مع المال:

(ثُمَّ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمَالَ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ؛ لِيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَأْخُذُهُ بِإِشْرَافِ وَهَلَعٍ)

بعد أن يسلك المسلم سبل الرزق؛ متوكلاً على الله، وباذلاً أسباب التحصيل؛ يحصل على المال، فإذا حصل عليه فما يكون حاله معه؟ وهذا مما لم يسأل عنه السائل، ولكن المصنف ذكره لأهميته فيقول: (ثُمَّ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمَالَ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ) بجودها وكرمها

(وَلَا يَأْخُذُهُ بِإِشْرَافِ) **الإشراف**: الحرص، والتعرض، والطمع (وَهَلَعٍ) **الهلع**: الحرص.

وهذا إشارة من المصنف إلى حديث حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ، فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ، فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ: (يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (3/ 101).

اليَدِ السُّفْلَى)، قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لاَ أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا. فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى العَطَاءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ -يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ- عَلَى حَكِيمٍ، أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى تُوُفِّيَ[1].

قوله: (فمن أخذه بسخاوة نفس)، **يريد:** من أخذه من غير حرص وشره، فلا يمسكه ضنًا به، لكن ينفقه ويتصدق به[2] أو" بسخاوة نفس" أي: بلا شره ولا إلحاح، وقل من يأخذ الشيء بشره إلا ويأخذه بغير حقه ومن غير وجهه[3].

"**وقوله:** (ومن أخذه بإشراف نفس كان كالذي يأكل ولا يشبع)، يريد أن سبيله في ذلك سبيل من يأكل من ذي سقم وآفة، يأكل فيزداد سقمًا، ولا يجد شبعًا، فينجع فيه الطعام، وأحسبه أراد من به الجوع الكاذب، وهو علة من العلل"[4].

وقال ابن بطال: "وقوله: (فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه) يدل أن

(1) رواه البخاري(1472)، ومسلم(1035).

(2) أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (2/ 800).

(3) كشف المشكل من حديث الصحيحين (4/ 64).

(4) أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (2/ 800).

القناعة، وطلب الكفاية والإجمال في الطلب مقرون بالبركة، وأن من طلب المال بالشره والحرص، فلم يأخذه من حقه لم يبارك له فيه، وعوقب بأن حرم بركة ما جمع"[1].

قال الطيبي -عند الحديث السابق-: "وأقول: لما وصف المال بما تميل إليه النفس الإنسانية بجبلتها رتب عليها بالفاء **أمرين**: **أحدهما**: تركها مع ما هي مجبولة عليه من الحرص، والشره، والميل إلى الشهوات، وإليه أشار بقوله: (ومن أخذه بإشراف نفس). **وثانيهما**: كفها عن الرغبة فيها إلى ما عند الله من الثواب، وإليه أشار بقوله: (بسخاوة نفس) فكنى في الحديث بالسخاوة عن كف النفس من الحرص والشره، كما كنى في الآية بتوقي النفس من الشح والحرص المجبولة عليه عن السخاء؛ لأن من توقى من الشح يكون سخيًا، مفلحًا في الدارين ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر:9]"[2].

(بَلْ يَكُونُ الْمَالُ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ الْخَلَاءِ) مكان قضاء الحاجة، بخلاف من جعله بمنزلة الإله، وشتان ما بينهما، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ)[3].

---

(1) شرح صحيح البخاري لابن بطال (3/ 505).

(2) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (5/ 1513).

(3) رواه البخاري(2887).

قال ابن حجر: "قال الطيبي: قيل: خص العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها كالأسير الذي لا يجد خلاصًا، ولم يقل: مالك الدينار، ولا جامع الدينار؛ لأن المذموم من الملك والجمع الزيادة على قدر الحاجة. وقوله: (إن أعطي إلخ) يؤذن بشدة الحرص على ذلك. وقال غيره: جعله عبدًا لهما؛ لشغفه وحرصه، فمن كان عبدًا لهواه لم يصدق في حقه: ﴿إياك نعبد﴾ فلا يكون من اتصف بذلك صدّيقًا"[1].

قال ابن الجوزي: "وقد يقع الشره في جمع المال وهو من الجنون البارد إذا زاد على قدر الحاجة؛ لأن المال لا يراد لنفسه، وإنما يراد لغيره، ولا ينكر على من جمع ما لا غنى للنفس عنه، فاستغنى به عن الناس، وأغنى أولاده، وبذل بعضه للمحتاجين"[2]، **(الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ)** عند حصول تلك الحاجة، ويفارقه بعد ذلك **(مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الْقَلْبِ مَكَانَةٌ)** **يعني:** من غير أن يكون له في القلب فرط حب وتعلق، وشدة تعظيم وحرص؛ لأنه إذا كان كذلك أفسد على المرء دينه؛ فوالى وعادى من أجله، وغدا للمال مأموراً مطيعًا، فحيثما وجده اتبعه من غير استنارة بمصباح الشرع والعقل، ولها به عن يهمه من أمر آخرته. **قال تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[المنافقون:9]، **قال ابن القيم:** "فمتى كان

(1) فتح الباري لابن حجر (11/ 254).

(2) الطب الروحاني(14).

المال في يدك، وليس في قلبك؛ لم يضرك، ولو كثر، ومتى كان في قلبك ضرك، ولو لم يكن في يدك منه شيء"[1] **(وَالسَّعْيُ فِيهِ إِذَا سَعَى كَإِصْلَاحِ الْخَلَاءِ) أي:** انشغاله بتحصيله وحفظه وتصريفه كحال انشغاله بإصلاح مكان خلائه؛ بإيجاده، وحسن ستره، وتوفير ما يحتاجه فيه، وذلك لا يأخذ منه وقتًا ولا جهداً كبيرين، ولا يبقى قلبه متعلقًا به، شاغلاً له عما يهمه. قال الحسن: "والله، لقد أدركت أقوامًا وإن كان أحدهم ليرث المال العظيم، وإنه والله لمجهود شديد الجهد قال: فيقول لأخيه: يا أخي، إني قد علمتُ أن ذا ميراثٌ، وهو حلال، ولكني أخاف أن يفسد علي قلبي وعملي، فهو لك لا حاجة لي فيه، قال: فلا يرزأ منه شيئًا أبدًا، وهو والله مجهود شديد الجهد"[2].

وقول المصنف: (وَالسَّعْيُ فِيهِ إِذَا سَعَى كَإِصْلَاحِ الْخَلَاءِ) هذا من حسن التشبيه الذي أبدع فيه المصنف -إذا لم يؤثر عن غيره-؛ فهو لابد منه، ولكن الإنسان لا ينشغل به إلا عند الحاجة، وبقدر محدود.

ومن تشبيهات المال في هذا الباب: ما قاله الغزالي: "الكمال في حق المال: أن يستوي عندك المال والماء، وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطئ البحر، ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة، مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه، فلا يكون قلبك مشغولاً بالفرار عن جوار الماء الكثير، ولا

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (1/ 463).

(2) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: 211).

ببغض الماء الكثير، بل تقول: أشرب منه بقدر الحاجة، وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة، ولا أبخل به على أحد. فهكذا ينبغي أن يكون المال؛ لأن الخبز والماء واحد في الحاجة، وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما، وكثرة الآخر"(1).

"**وقال يحيى بن معاذ**: الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه؛ فإنه إن لدغك قتلك سمه، قيل: وما رقيته؟ قال: أخذه من حله، ووضعه في حقه"(2).

(وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ: (مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ شَتَّتَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ جَمَعَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ)(3))

قوله: (شَتَّتَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ) أي: فرقه، والشمل: ضد التفرق **(وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ) ضيعة الرجل**: ما يكون منه معاشه من صناعة أو غلَّة أو حرفة أو تجارة

---

(1) إحياء علوم الدين (4/ 192).

(2) إحياء علوم الدين (3/ 233).

(3) رواه أحمد(21590)، وابن ماجه(4105)، والدارمي(235)، والطبراني في الكبير(4891) والأوسط (7271)، وابن حبان(680)، والبيهقي في الشعب(9855) والآداب(802)، وأبو داود الطيالسي(617)، وتمام في فوائده(1461)، والشجري في ترتيب الأمالي(322)، **وقال البوصيري**: "هَذَا إِسْنَاد صَحِيح، رِجَاله ثِقَات"، مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه (4/ 212).
وجاء عند الترمذي(2465) بلفظ: "عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ).

وغيرها، والمقصود: فرقها؛ ليشتغل بها عن الآخرة، فيصير قد تشعبت الهموم قلبه، وتوزعت أفكاره، فيبقى متحيرًا ضائعًا لا يدري ممن يطلب رزقه؟ فهمُّه شَعاع، وقلبه أوزاع (وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ) أي: وهو راغم، فلا يأتيه ما يطلب من الزيادة (جَمَعَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ) يعني: جعله الله مجموع الخاطر، وهيأ أسبابه من حيث لا يدري (وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ) أي: أسكنه فيه. والغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النفس، وبيانه: أنه إذا استغنت نفسك كفت عن المطامع، فعزت وعظمت، وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس؛ لحرصه؛ فإنه يورطه في رذائل الأمور، فيكثر من يذمه من الناس، ويصغر قدره عندهم، فيكون أحقر من كل حقير، وأذل من كل ذليل (وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ) أي: ذليلة، يعني: تقصده الدنيا طوعًا وكرهًا؛ أي: حصل له من الدنيا ما يحتاج إليه[1].

قال السندي: "فالحاصل أن ما كتب للعبد من الرزق يأتيه لا محالة، إلا أنه من طلب الآخرة يأتيه بلا تعب، ومن طلب الدنيا يأتيه بتعب وشدة، فطالب الآخرة قد جمع بين الدنيا والآخرة؛ فإن المطلوب مِن جمْعِ المال الراحةُ في الدنيا وقد حصلت لطالب الآخرة، وطالب الدنيا قد خسر الدنيا والآخرة؛ لأنه في

(1) ينظر: المفاتيح في شرح المصابيح (5/ 315)، إكمال المعلم بفوائد مسلم (3/ 270)، فيض القدير (2/ 369)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (8/ 3334)، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (4/ 64).

الدنيا في التعب الشديد في طلبها، فأي فائدة له في المال إذا فاتت الراحة!"[1].

وقريب من هذا الحديث الذي ذكره المصنف: حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ مَلَأْتُ يَدَيْكَ شُغْلًا، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ)[2].

(وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ) والسلف: القوم المتقدمون في الزمن، ويطلق على الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وضد السلف: الخَلَف، **قال تعالى**: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلآخِرِينَ﴾[الزخرف:56] **(: "أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَى الدُّنْيَا، وَأَنْتَ إِلَى نَصِيبِك مِنْ الْآخِرَةِ أَحْوَجُ، فَإِنْ بَدَأْتَ بِنَصِيبِك مِنْ الْآخِرَةِ مَرَّ عَلَى نَصِيبِك مِنْ الدُّنْيَا فَانْتَظَمَهُ انْتِظَامًا") أي**: جمعه إليه، **يقال**: انتظم الشيء تألف واتسق، يقال: نظمه فانتظم[3].

هذا الأثر مروي عن معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، كما ذكر الغزالي، وأسامة بن منقذ.

وقد جاء عند الغزالي هكذا: "وقال معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في وصيته: "إنه

---

(1) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (2/ 525).

(2) رواه أحمد(8696)، والترمذي(2466)، وابن ماجه(4107)، وابن أبي شيبة(34699)، وابن حبان(393)، والبيهقي في الشعب(9856) والآداب(803)، والشجري في ترتيب الأمالي (2463)، والحاكم(3657) **وقال**: "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ" ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، وحسنه الأرناؤوط.

(3) المعجم الوسيط (2/ 933).

لا بد لك من نصيبك في الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فابدأ بنصيبك من الآخرة فخذه؛ فإنك ستمر على نصيبك من الدنيا فتنظمه"[1]، وعند أسامه قال: "فينتظمه انتظاماً"[2].

والمعنى: أن كل مخلوق له رزق مقسوم من الدنيا وهو آخذه لا محالة؛ ففي حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ؛ فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ)[3].

ولفظ المصنف: "أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَى الدُّنْيَا، وَأَنْتَ إِلَى نَصِيبِك مِنْ الْآخِرَةِ أَحْوَجُ" يعني: أنت-أيها الإنسان-مفتقر إلى أسباب العيش في الدنيا، ومع ذلك فأنت أشد فقراً إلى حظك من زاد الآخرة فيها؛ لأنه سبب سعادة الأبد، لكن لو جعلت أكبر همك في تحصيل نصيب الآخرة فإنه سيحوي معه نصيب الدنيا على طريقه بلا ريب.

---

(1) إحياء علوم الدين (2/ 83).

(2) لباب الآداب لأسامة بن منقذ (1/ 16).

(3) رواه ابن ماجه(2144)، والبيهقي في الآداب(777) وفي الاعتقاد(173) والقضاء(209) وفي الكبرى (10404) والشعب(1142)، والحاكم(2135)، والطبراني في الأوسط(3109)، وابن الجارود(556)، وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 157)، والقضاعي (1152)، وضعفه البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه (3/ 8)، وصححه الألباني.

(قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ* إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[الذاريات:56-58])

"ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم... وقد ورد في بعض الكتب الإلهية: "يقول الله تعالى: ابنَ آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفّلت برزقك فلا تتعب، فاطلبني تجدني؛ فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتُك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء"[(1)].

وقال المصنف في معنى الآيات: "أي: هؤلاء الذين أمرتهم إنما خلقتهم لعبادتي، ما أريد منهم غير ذلك لا رزقًا ولا طعامًا"[(2)].

وقال: "...ولهذا عقبها بقوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ فإثبات العبادة ونفي هذا يبين أنه خلقهم للعبادة، ولم يرد منهم ما يريده السادة من عبيدهم؛ من الإعانة لهم بالرزق والإطعام"[(3)].

وقال ابن القيم: "لم يخلق خلقه لحاجة منه إليهم، ولا ليتكثر بهم من قلة، ولا ليتعزز بهم، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ* مَا أُرِيدُ

---

(1) تفسير ابن كثير (7/ 425).

(2) مجموع الفتاوى (8/ 43).

(3) مجموع الفتاوى (8/ 41).

مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾[الذاريات: 56- 57]، فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم، ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جوداً وإحساناً ليعبدوه، فيربحوا هم عليه كل الأرباح كقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: 7]، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[الروم: 44]"[1].

وسائل الحصول على الرزق:

(فَأَمَّا تَعْيِينُ مَكْسَبٍ عَلَى مَكْسَبٍ مِنْ صِنَاعَةٍ، أَوْ تِجَارَةٍ، أَوْ بِنَايَةٍ، أَوْ حِرَاثَةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ فَهَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ) **يعني:** لا يمكن النصيحة باختيار واحدة من هذه المكاسب؛ لأن ميول الناس ورغباتهم وتوجهاتهم المهنية تختلف لذلك، وما يتيسر في مكان منها لشخص قد لا يتيسر في مكان مثله **(وَلَا أَعْلَمُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا عَامًّا)** **يعني:** يصلح لعموم الناس، ولكل واحد منهم **(لَكِنْ إِذَا عَنَّ)** ظهرَ **(لِلْإِنْسَانِ جِهَةٌ)** مهنية أو حرفية أو وظيفية **(فَلْيَسْتَخِرِ اللهَ تَعَالَى فِيهَا الِاسْتِخَارَةَ الْمُتَلَقَّاةَ عَنْ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ ﷺ)** **يعني:** إذا لم يكن له توجه كامل نحوها، ويخشى عدم الفلاح فيها فليصل صلاة الاستخارة المتقدم ذكرها **(فَإِنَّ فِيهَا)** **أي:** الاستخارة **(مِنْ الْبَرَكَةِ)** النماء والزيادة والسعادة **(مَا لَا يُحَاطُ بِهِ)** ما لا يمكن إدراكه من جميع جهاته، **يعني:** بسبب الاستخارة حصلت خيرات كثيرة للناس، في النجاح في شؤون دينية، وشؤون دنيوية؛ كتأليف كتاب، والشروع في علم، وقبول وظيفة أو طلبها، أو الدخول في تجارة رابحة، وغير ذلك **(ثُمَّ مَا**

---

(1) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: 135).

تَيَسَّرَ لَهُ فَلَا يَتَكَلَّفُ غَيْرَهُ) أي: الذي تيسر للإنسان اكتساب الرزق به فلا يتركه ويبحث عن غيره؛ فإنه قد يندم على ذلك، فلا يفلح فيما أراده، ولا يرجع على ما كان إلى ما تركه؛ وذلك أننا قد نجد بعض الناس سالم البال، طيب الحال في عمل من أعمال طلب الرزق، ويعيش في كفاية، لكنه يمل مما هو عليه؛ طمعًا في اتساع الغنى، ومنافسة لفلان وفلان، فينتقل إلى عمل آخر فيحيط به الندم، عندما لا يجد فيه ما كان يرغب فيه، فلا هو لقي ما يريد في العمل الجديد، ولا استطاع بعد ذلك أن يرجع إلى عمله السابق.

قال ابن الجوزي-وهو يتحدث عن جمع المال-: "ينبغي للعاقل بعد حصول المقدار والمتوسط من ذلك أن لا يضيع الزمان الشريف، وأن يخاطر بالروح في الأسفار، وركوب البحار، **وما أحسن قول الشاعر:**

ومن يُنفقِ الأيامَ في جمعِ مالِه مخافةَ فقرٍ فالذي فعلَ الفقرُ"(1)

(إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْهُ كَرَاهَةٌ شَرْعِيَّةٌ) يعني: عليه أن يلزم ما تيسر رزقه به، ولا يتجشم المشقات للبحث عن غيره، إلا أن يكون في عمله السابق محظور شرعي؛ كأن لا يسلم فيه من حرام؛ كربا وغش، وتعرض لفتنة، أو يشغله عن واجب؛ كأن يجعله يؤخر الصلاة عن وقتها، أو يتركها بالكلية.

بعد هذا نقول: إن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحدث في هذه الفقرة الأخيرة من هذا المقطع عن أمور:

---

(1) الطب الروحاني(14).

الأول: اختيار مكسب على مكسب وتفضيله على غيره.

وهذا التفضيل لعله يقصد به التفضيل من الناحية الشرعية، لا الناحية الربحية، وهذه المسألة قد حصل فيها خلاف بين العلماء؛ **قال النووي**: "قال الماوردي: أصول المكاسب: الزراعة، والتجارة، والصنعة. وأيها أطيب؟ فيه ثلاثة مذاهب للناس، أشبهها مذهب الشافعي: أن التجارة أطيب. قال: والأشبه عندي: أن الزراعة أطيب؛ لأنها أقرب إلى التوكل.

قلت: في صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال: (ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يأكل من عمل يده). فهذا صريح في ترجيح الزراعة، والصنعة؛ لكونهما من عمل يده، لكن الزراعة أفضلهما؛ لعموم النفع بها للآدمي وغيره، وعموم الحاجة إليها. والله أعلم"(1).

وقال ابن القيم: "فإن قيل: فما أطيب المكاسب وأحلها؟ **قيل: هذا فيه ثلاثة أقوال للفقهاء:**

أحدها: أنه كسب التجارة. **والثاني**: أنه عمل اليد في غير الصنائع الدنيئة كالحجامة ونحوها.

والثالث: أنه الزراعة، ولكل قول من هذه وجه من الترجيح أثرًا ونظرًا.

والراجح: أن أحلها الكسب الذي جُعل منه رزق رسول الله ﷺ، وهو

---

(1) روضة الطالبين وعمدة المفتين (3/ 281).

كسب الغانمين، وما أبيح لهم على لسان الشارع، وهذا الكسب قد جاء في القرآن مدحه أكثر من غيره، وأثني على أهله ما لم يثن على غيرهم؛ ولهذا اختاره الله لخير خلقه، وخاتم أنبيائه ورسله حيث يقول: (بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري)، وهو الرزق المأخوذ بعزة وشرف وقهر لأعداء الله، وجعل أحب شيء إلى الله، فلا يقاومه كسب غيره. والله أعلم"[1].

وقال الدميري: "الأشبه بمذهب الشافعي: تفضيل التجارة على الزراعة، وعمل اليد؛ لأن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ كانوا يكتسبون بها.

وفضل الماوردي والمصنف الزراعة؛ لأنها أقرب إلى التوكل، ورد بأن النبي ﷺ رأى في بعض دور الأنصار آلة حرث فقال: (ما دخل هذا دار قوم إلا دخلها الذل) رواه البخاري.

وقيل: الصناعة أطيب؛ لأن الكسب فيها يحصل بكد اليمين، وروى الخطيب البغدادي في (المتشابه)[1/ 124] عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: (إن من الذنوب ما لا تكفره الصلاة ولا الصوم ولا الحج ولا العمرة)، قيل: فما يكفرها يا رسول الله؟ قال: (عَرَق الجبين في الحرفة) وفي رواية: (تكفرها الهموم في طلب المعيشة).

---

(1) زاد المعاد في هدي خير العباد (5/ 702).

وفي (الصحيحين) [خ 2072]: (ما أكل أحد طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وأن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده)..."[1].

وقال ابن حجر: "وقد اختلف العلماء في أفضل المكاسب؛ قال الماوردي: أصول المكاسب: الزراعة، والتجارة، والصنعة، والأشبه بمذهب الشافعي أن أطيبها التجارة، قال: والأرجح عندي أن أطيبها الزراعة؛ لأنها أقرب إلى التوكل، وتعقبه النووي بحديث المقدام الذي في هذا الباب، وأن الصواب أن أطيب الكسب ما كان بعمل اليد، قال: فإن كان زراعًا فهو أطيب المكاسب؛ لما يشتمل عليه من كونه عمل اليد، ولما فيه من التوكل، ولما فيه من النفع العام للآدمي وللدواب، ولأنه لا بد فيه في العادة أن يوكل منه بغير عوض.

قلت: وفوق ذلك من عمل اليد ما يكتسب من أموال الكفار بالجهاد وهو مكسب النبي ﷺ وأصحابه، وهو أشرف المكاسب؛ لما فيه من إعلاء كلمة الله تعالى، وخذلان كلمة أعدائه، والنفع الأخروي، قال: ومن لم يعمل بيده فالزراعة في حقه أفضل؛ لما ذكرنا، قلت: وهو مبني على ما بحث فيه من النفع المتعدي، ولم ينحصر النفع المتعدي في الزراعة، بل كل ما يعمل باليد فنفعه متعد؛ لما فيه من تهيئة أسباب ما يحتاج الناس إليه. والحق: أن ذلك مختلف المراتب، وقد يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، والعلم عند الله تعالى. قال ابن المنذر: إنما يفضل عمل اليد سائر المكاسب إذا نصح العامل كما جاء

(1) النجم الوهاج في شرح المنهاج (9/ 565).

مصرحًا به في حديث أبي هريرة، قلت: ومن شرطه: أن لا يعتقد أن الرزق من الكسب، بل من الله تعالى بهذه الواسطة، ومن فضل العمل: باليد الشغل بالأمر المباح عن البطالة واللهو، وكسر النفس بذلك، والتعفف عن ذلة السؤال والحاجة إلى الغير"[1].

وما ذكره ابن حجر، لعله الأقرب، والله أعلم.

هذا وفي عصرنا أعمال ومهن كثيرة؛ قد تكون باليد، وقد تكون بالذهن، وقد تكون بالبدن وقد تكون بالعقل، وقد تكون بغير ذلك.

ثانيًا: الاستخارة عند إرادة التوجه إلى عمل أو وظيفة؛ حتى يطلب المرء بها من الله العون والبركة إن كان في ذلك خير له، أو الاطمئنان عند الانصراف عن ذلك إلى غيره.

ثالثًا: لزوم البقاء على العمل الذي يدر الرزق الكافي للمرء، والنصيحة بعدم تركه؛ استقبالاً لغيره مما يحتاج إلى كلفة في الوصول إليه.

قال ابن الجوزي: "وكم قد رأينا عن أقوام يقترون على أنفسهم في الإنفاق، ويركبون مع كبر السن البحار ليربحوا بزعمهم، فهلكوا في أسفارهم، وما بلغوا بعض أغراضهم. وهذا المرض [مرض الشره] ينبغي أن يداوى بتلمح المقصود من المال، والموازنة بين حصوله وبين المخاطرة بأنفس نفيس وهي النفس

---

(1) فتح الباري لابن حجر (4/ 304).

والوقت، فمن شاور عقله فهم المراد، ومن غلبه الحرص هلك في بيداء الشره، ولا وارث إلا المطية والرحل"[1].

رابعًا: ترك العمل أو الوظيفة إذا كان فيه معصية لله تعالى، والبحث عن عمل لا محظور فيه.

فكم نرى أو نسمع عن أناس يبقون في وظائف أو أعمال مع أن فيها ما يأثمون به، معتذرين بأنهم لم يجدوا غير ذلك العمل، ولو تركوا لن يجدوا عملاً، ولديهم أطفال، وإيجار بيوت، ولكن لو قوي التوكل على الله، وحسن الظن به لترك العامل ذلك العمل، وبحث عن غيره، ومتى علم الله صدق نيته هيأ له ما هو خير له مما ترك.

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ، وَأَبِي الدَّهْمَاءِ، قَالَا: كَانَا يُكْثِرَانِ السَّفَرَ نَحْوَ هَذَا الْبَيْتِ، قَالَا: أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقَالَ الْبَدَوِيُّ: أَخَذَ بِيَدِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ وَقَالَ: (إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا اتِّقَاءَ اللهِ إِلَّا أَعْطَاكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ)[2].

وعن أبي بن كعب قال: "ما ترك عبد شيئًا لا يتركه إلا لله إلا آتاه الله مما هو خير منه من حيث لا يحتسب، ولا تهاون عبد أو أخذه من حيث لا يصلح له إلا

---

(1) الطب الروحاني(15).

(2) رواه أحمد(20739)، وابن أبي شيبة(994)، والبيهقي في الآداب(832) والشعب(5364)، **قال الهيثمي:** "رواه كله أحمد بأسانيد، ورجالها رجال الصحيح"، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد(10/ 296).

أتاه الله بما هو أشد منه، من حيث لا يحتسب".

وعن شريح قال: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك؛ فإنك لن تجد فقد شيء تركته ابتغاء وجه الله".

وقال علي: "لا يترك الناس شيئًا من دينهم إرادة استصلاح دنياهم إلا فتح الله عليهم ما هو أضر عليهم، وما هو شر عليهم منه"[1].

ما يعتمد عليه من الكتب في العلوم:

(وَأَمَّا مَا تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ فِي الْعُلُومِ؛ فَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ، وَهُوَ أَيْضًا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ نَشْءِ الْإِنْسَانِ فِي الْبِلَادِ؛ فَقَدْ يَتَيَسَّرُ لَهُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ مِنْ الْعِلْمِ، أَوْ مِنْ طَرِيقِهِ وَمَذْهَبِهِ فِيهِ مَا لَا يَتَيَسَّرُ لَهُ فِي بَلَدٍ آخَرَ، لَكِنَّ جِمَاعَ الْخَيْرِ: أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللهِ سُبْحَانَهُ فِي تَلَقِّي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى عِلْمًا، وَمَا سِوَاهُ إمَّا أَنْ يَكُونَ عِلْمًا فَلَا يَكُونُ نَافِعًا، وَإِمَّا أَلَّا يَكُونَ عِلْمًا، وَإِنْ سُمِّيَ بِهِ. وَلَئِنْ كَانَ عِلْمًا نَافِعًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي مِيرَاثِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا يُغْنِي عَنْهُ مِمَّا هُوَ مِثْلُهُ وَخَيْرٌ مِنْهُ. وَلْتَكُنْ هِمَّتُهُ فَهْمَ مَقَاصِدِ الرَّسُولِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَسَائِرِ كَلَامِهِ. فَإِذَا اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ أَنَّ هَذَا هُوَ مُرَادُ الرَّسُولِ فَلَا يَعْدِلُ عَنْهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى، وَلَا مَعَ النَّاسِ إذَا أَمْكَنَهُ ذَلِكَ. وَلْيَجْتَهِدْ أَنْ يَعْتَصِمَ فِي كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ بِأَصْلٍ مَأْثُورٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ. وَإِذَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ مِمَّا قَدْ

(1) الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (2/ 10-11).

اخْتَلَفَ فِيهِ النَّاسُ فَلْيَدْعُ بِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا قَامَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ: (اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وميكائيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِك فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اُخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِك، إنَّك تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ قَالَ فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ: (يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَنْ هَدَيْته فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ).

قوله: (وَأَمَّا مَا تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ فِي الْعُلُومِ؛ فَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ، وَهُوَ أَيْضًا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ نَشْءِ الْإِنْسَانِ فِي الْبِلَادِ؛ فَقَدْ يَتَيَسَّرُ لَهُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ مِنْ الْعِلْمِ، أَوْ مِنْ طَرِيقِهِ وَمَذْهَبِهِ فِيهِ مَا لَا يَتَيَسَّرُ لَهُ فِي بَلَدٍ آخَرَ) بعد أن سرد المصنف الوصايا العملية انتقل إلى الوصايا العلمية المتعلقة بالكتب العلمية، حيث طلب السائل من المصنف وصية فيما يختاره ويقدمه ويركن إليه من كتب العلوم، فأجاب المصنف بأن هذا (بَابٌ وَاسِعٌ) لتشعب العلوم، وكثرة المصنفات فيها، هذا سبب، والسبب الآخر أنه: (يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ نَشْءِ الْإِنْسَانِ فِي الْبِلَادِ؛ فَقَدْ يَتَيَسَّرُ لَهُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ مِنْ الْعِلْمِ، أَوْ مِنْ طَرِيقِهِ وَمَذْهَبِهِ فِيهِ مَا لَا يَتَيَسَّرُ لَهُ فِي بَلَدٍ آخَرَ) **يعني**: أن بعض البلدان قد تختص بالتوسع والعناية بعلم من العلوم، فيلقى الإنسان في تلك البلاد شيوخ ذلك العلم البارعين، والمصنفات النافعة فيه بيسر وسهولة؛ كعلم القرآن، أو علم الحديث، أو علوم العربية، ويتوارثها الخالف عن السالف هناك، أو يجد في بلد ما دون غيره طريقة معينة في فهم

الشريعة، وتلقي العلوم الأخرى، ومن ذلك: الدراسة المذهبية لعلم الفقه؛ فلهذا رأى المصنف أنه لا يمكن اختيار كتب معينة مما أَلَّف الناس يعتمد عليها؛ لتكون أحسن ما في الباب للمنصوح؛ لأنها في زمن المؤلف قد توجد في بلاد ولا توجد في غيرها، وقد تكون هناك بلاد فيها من الكتب غير المشهورة ما هو أحسن وأنفع لأهلها مما يشار عليهم من المشهور.

لكن شيخ الإسلام أوصى في هذا الباب بأصل جامع يصلح لكل زمان، ومكان، ومتلق للعلم، فقال: **(لَكِنَّ جِمَاعَ الْخَيْرِ)** أي: الجامع له والشامل لما فيه، وأصله، ومجتمعه **(: أَنْ يَسْتَعِينَ بِاَللهِ سُبْحَانَهُ)** أن يطلب من الله العون بتعلق قلبه به ودعائه إياه **(فِي تَلَقِّي الْعِلْمِ)** طلبه وتحصيله.

والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا يربط طالب العلم بالتعلق بالله، كما ربط طالب الرزق فيما تقدم به كذلك، وهذا من حسن النصيحة، ونور البصيرة.

(الْمَوْرُوثِ) المروي والمنقول **(عَنْ النَّبِيِّ ﷺ)** وهو علم القرآن والسنة **(فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى عِلْمًا)**؛ لكونه جاء عن مصادر معصومة عن كل زلل، ومنقى من كل خلل.

وكل ما كان قائمًا على هذا العلم، ومؤيداً له، وموضحًا لما جاء فيه؛ فهو منه؛ كعلوم اللسان؛ **يقول المصنف**: "اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ثم منها ما هو واجب على الأعيان، ومنها ما هو واجب على الكفاية، وهذا معنى ما رواه أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا عيسى بن يونس عن ثور عن عمر بن زيد قال: كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: "أما بعد: فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن؛ فإنه عربي ".

وفي حديث آخر عن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: "تعلموا العربية؛ فإنها من دينكم، وتعلموا الفرائض؛ فإنها من دينكم "، وهذا الذي أمر به عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من فقه العربية وفقه الشريعة؛ يجمع ما يحتاج إليه؛ لأن الدين فيه أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنة هو فقه أعماله"[1].

وقال ابن حزم: "فمن لم يعلم النحو واللغة، فلن يعلم اللسان الذي به بيّن الله لنا ديننا وخاطبنا به، ومن لم يعلم ذلك فلن يعلم دينه، ومن لم يعلم دينه ففرض عليه أن يتعلمه، وفرض عليه واجب تعلم النحو واللغة، ولابد منه على الكفاية كما قدمنا، ولو سقط علم النحو واللغة لسقط فهم القرآن، وفهم حديث النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ولو سقطا لسقط الإسلام. وأما من وسم اسمه باسم العلم والفقه وهو جاهل للنحو واللغة فحرام عليه أن يفتي في دين الله بكلمة، وحرام على المسلمين أن يستفتوه؛ لأنه لا علم له باللسان الذي خاطبنا الله تعالى به، وإذا لم يعلمه فحرام عليه أن يفتي بما لا يعلم "[2].

---

(1) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 527).

(2) رسائل ابن حزم (3/ 162).

ويقول الشاطبي عن علوم العربية ومنها علم النحو: "الشريعة عربية، وإذا كانت عربية؛ فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم؛ لأنهما سيان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز، فإذا فرضنا مبتدئًا في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطًا؛ فهو متوسط في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية، فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة؛ فكان فهمه فيها حجة كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة، فمن لم يبلغ شأوهم؛ فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم، وكل من قصر فهمه لم يعد حجة، ولا كان قوله فيها مقبولاً "[1].

وبكون علم الكتاب والسنة هو العلم المقدم المختار قد نصح أهل العلم المتقدمون، **ولفتوا الانتباه إلى ذلك:**

عن طاوس، عن عبد الله بن عمر قال: "العلم ثلاثة أشياء: كتاب ناطق، وسنة ماضية، ولا أدري "[2].

وعن بقية بن الوليد قال: قال لي الأوزاعي: "يا بقية، العلم ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ، وما لم يجئ عن أصحاب محمد ﷺ فليس بعلم"[3]، ويقصد الأوزاعي العلم بدين الله.

(1) الموافقات (5/ 53).

(2) جامع بيان العلم وفضله (1/ 753).

(3) جامع بيان العلم وفضله (1/ 769).

وقال ابن المبارك: "ليكن الأمر الذي تعتمدون عليه هذا الأثر، وخذوا من الرأي ما يفسر لكم الحديث"[1].

وقال بشر بن السري السقطي: "نظرت في العلم فإذا هو الحديث والرأي، فوجدت في الحديث ذكر النبيين والمرسلين، وذكر الموت، وذكر ربوبية الرب وجلاله وعظمته، وذكر الجنة والنار، والحلال والحرام، والحث على صلة الأرحام، وجماع الخير. ونظرت في الرأي فإذا فيه المكر والخديعة، والتشاح واستقصاء الحق، والمماكسة في الدين، واستعمال الحيل، والبعث على قطع الأرحام والتجرؤ على الحرام"[2]، **ويقصد بالرأي:** الرأي المخالف للكتاب والسنة.

وقال الشافعي:

كُلُّ الْعُلُومِ سوى الْقُرْآنِ مشغلةٌ إِلَّا الحَدِيثَ وَإِلَّا الْفِقْهَ فِي الدِّينِ
الْعِلمُ مَا كَانَ فِيهِ قَالَ حَدثنَا وَمَا سوى ذَاك وسواسُ الشَّيَاطِينِ[3]

ويقصد بما سوى ذاك: ما خالف الكتاب والسنة، وما فيه مضرة على الناس.

---

(1) جامع بيان العلم وفضله (1/ 782).
(2) جامع بيان العلم وفضله (1/ 783).
(3) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (1/ 297).

وقال أحمد بن حنبل:

دِيــنُ النَّبِــيِّ مُحَمَّــدٍ أَخْبَــارُ ... نِعْــمَ الْمَطِيَّــةُ لِلْفَتَــى الْآثَــارُ

لَا تَــرْغَبَنَّ عَــنِ الْحَــدِيثِ وَأَهْلِـهِ ... فَــالرَّأْيُ لَيْــلٌ وَالْحَــدِيثُ نَهَــارُ

وَلَرُبَّمَــا جَهِــلَ الْفَتَــى أَثَــرَ الْهُــدَى ... وَالــشَّمْسُ بَازِغَــةٌ لَهَــا أَنْــوَارُ[1]

وقال محمد بن عبد الملك الكرجي:

والعِلْـمُ مـا كـان فيـه قـال حـدثنا ... ومــا ســواه أغــاليطٌ وإظــلامُ

دعــائمُ الــدينِ آيــاتٌ مبينــةٌ ... وبينــاتٌ مــن الأخبــارِ أعــلامُ

قولُ الإلهِ وقولُ المصطفى وهما ... لكــلِّ مبتــدعٍ قهــرٌ وإرغــامُ[2]

وقال ابن القيم: "وَلِبَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ:

الْعِلْــمُ قَــالَ اللهُ قَــالَ رَسُــولُهُ ... قَــالَ الــصَّحَابَةُ لَــيْسَ خُلْــفٌ فِيــهِ

مَا الْعِلْـمُ نَـصْبَكَ لِلْخِـلَافِ سَفَاهَةً ... بَــيْنَ النُّــصُوصِ وَبَــيْنَ رَأْيِ سَــفِيهِ

كَــلَّا وَلَا نَــصْبَ الْخِــلَافِ جَهَالَــةً ... بَــيْنَ الرَّسُــولِ وَبَــيْنَ رَأْيِ فَقِيــهِ

كَــلا وَلَا رَدَّ النُّــصُوصِ تَعَمُّــدًا ... حَــذَرًا مِــنَ التَّجْــسِيمِ وَالتَّــشْبِيهِ

حَاشَا النُّصُوصَ مِنَ الَّذِي رُمِيَتْ بِهِ ... مِــنْ فِرْقَــةِ التَّعْطِيــلِ وَالتَّمْوِيــهِ[3]

---

(1) جامع بيان العلم وفضله (1/ 782).

(2) طبقات الشافعيين (ص: 607).

(3) إعلام الموقعين عن رب العالمين (1/ 63).

وقال السعدي: "أما العلم النافع فهو العلم المزكي للقلوب والأرواح، المثمر لسعادة الدارين، وهو ما جاء به الرسول ﷺ من حديث وتفسير وفقه، وما يعين على ذلك من علوم العربية بحسب حالة الوقت والموضع الذي فيه الإنسان، وتعيين ذلك يختلف باختلاف الأحوال[1].

وفي موضوعِ ما يُختار من الكتب وينصح به ينبغي أن نعي أموراً:

1- اختيار الكتب النافعة في معرفة الدين وفهمه دون الكتب الضارة التي تنحرف بالقلب، والفكر، والسلوك.

2- معرفة المستوى العلمي والمعرفي للمنصوح؛ فليس كل كتب يصلح لكل أحد، كما أن كل أحد لا يصلح له كل علاج وبالمقدار نفسه، فالأمر يختلف؛ فالعامي ينصح بكتب تناسب مستواه، ومن عنده ثقافة عامة ينصح بكتب تناسب ما لديه، وطالب العلم الراغب في الترقي في العلم ينصح بسلالم العلم التي تعينه على التدرج وبلوغ الغاية، في الفنون المختلفة.

3- الكتب المتخصصة في موضوعات معينة، وتكون أحسن ما في ذلك الموضوع؛ فبعض الناس يستنصح ويسترشد مثلاً في الوصول إلى كتاب في إصلاح القلوب، أو في الأخلاق الحسنة ومداواة النفوس، أو كشف مشكلات النصوص القرآنية، أو الحديثية، أو غير ذلك؛ فهذا يختار له الناصح ما يراه مناسبًا من كتب تلك المقاصد.

---

(1) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار ط الرشد (ص: 35).

(وَمَا سِوَاهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عِلْمًا فَلَا يَكُونُ نَافِعًا) أي: وما سوى علم الكتاب والسنة إما أن يكون علمًا من ناحية الاسم والموضوع، لكنه غير نافع في معرفة الملّة، وإن كان له نفع في شؤون الدنيا **(وَإِمَّا أَلَّا يَكُونَ عِلْمًا، وَإِنْ سُمِّيَ بِهِ)** كالعلوم الضارة الزائفة؛ كالسحر، والتنجيم، والكهانة، وغير ذلك **(وَلَئِنْ كَانَ عِلْمًا نَافِعًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي مِيرَاثِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا يُغْنِي عَنْهُ مِمَّا هُوَ مِثْلُهُ وَخَيْرٌ مِنْهُ)** كعلم الكلام والمنطق والفلسفة؛ إذ هي من العلوم الدخيلة على الإسلام، وقد قال المصنف: "كنت دائمًا أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي، ولا ينتفع به البليد"[1].

وقال: "فإن الذي عند أولئك من العلم الإلهي نَزْرٌ قليل مُخبط، فهو لحم جَملٍ غَثّ، على رأس جَبَلٍ وَعْر، لا سَهْلٌ فيُرتقى، ولا سمين فيُنتقل"[2].

(وَلْتَكُنْ هِمَّتُهُ فَهْمَ مَقَاصِدِ الرَّسُولِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَسَائِرِ كَلَامِهِ) يقول: وليكن عزمه القوي في التعامل مع النصوص هو فهم مقصود رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وفقهه من نصه في أمره، وفي نهيه، وفي بقيه ما صح عنه؛ لأن ذلك يعينه على الاعتقاد الصحيح، والعمل السليم، والسلوك المستقيم؛ إذ كم اعتقاد فاسد، وعمل معوج كان سببه عدم معرفة مقصد الرسول من النص.

وهذه قضية ذات أهمية كبيرة، وقد أولاها المصنف في كتبه عناية كبيرة؛

(1) الرد على المنطقيين (ص: 3).

(2) الرد على الشاذلي في حزبيه وما صنفه في آداب الطريق (ص: 209).

نظراً لأثرها الكبير في اختلاف الفرق، وتباين الأقوال في المذاهب، وذلك عند التقصير فيها.

فعن أهميتها يقول: "معرفة مراد الرسول، ومراد الصحابة هو أصل العلم، وينبوع الهدى"[1].

وعن أثرها في معرفة الحق يقول: "فمن فهم مراد الرسول ﷺ بزيارة القبور، وفرق بين الشرعية والبدعية؛ تبين له الحق من الباطل"[2].

وعن كشف الحجاب الساتر عن مراد الرسول يقول: "ولما كان بيان مراد الرسول ﷺ في هذه الأبواب لا يتم إلا بدفع المعارض العقلي، وامتناع تقديم ذلك على نصوص الأنبياء؛ بينا في هذا الكتاب فساد القانون الفاسد الذي صدوا به الناس عن سبيل الله، وعن فهم مراد الرسول وتصديقه فيما أخبر؛ إذ كان أي دليل أقيم على بيان مراد الرسول لا ينفع إذا قدر أن المعارض العقلي القاطع ناقضه"[3].

ويقول عن الثمرة التي يجنيها من فهم مراد الرسول لاسيما عند وجود المعارض العقلي، **والقول المبتدع:** "وفساد ذلك المعارض قد يعلم جملة وتفصيلاً؛ أما الجملة، فإنه من آمن بالله ورسوله إيماناً تاماً، وعلم مراد الرسول قطعاً تيقن ثبوت ما أخبر به، وعلم أن ما عارض ذلك من الحجج فهي حجج

---

(1) شرح حديث النزول (ص: 65).

(2) الإخنائية أو الرد على الإخنائي (ص: 464).

(3) درء تعارض العقل والنقل (1/ 20).

داحضة من جنس شبه السوفسطائية، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[الشورى:16] ..."(1).

ويقول: "والأقوال المبتدعة تضمنت تكذيب كثير مما جاء به الرسول ﷺ، وذلك يعرفه من عرف مراد الرسول ﷺ، ومراد أصحاب تلك الأقوال المبتدعة"(2).

والمقصود من فهم مراد الرسول: إدراك مقاصده ومراميه، ومعرفة فقهه والوصول إلى معناه الصحيح، وقد قال المصنف: "ولهذا كان أئمة السنة على ما قاله أحمد بن حنبل قال: معرفة الحديث والفقه فيه أحب إلي من حفظه، أي: معرفته بالتمييز بين صحيحه وسقيمه، والفقه فيه معرفة مراد الرسول، وتنزيله على المسائل الأصولية والفروعية أحب إلي من أن تحفظ من غير معرفة وفقه، وهكذا قال علي بن المديني وغيره من العلماء؛ فإنه من احتج بلفظ ليس بثابت عن الرسول، أو بلفظ ثابت عن الرسول، وحمله على ما لم يدل عليه فإنما أتي من نفسه"(3).

فإذا اتضح هذا وجب الأخذ بكل نصوص رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عند فهم

---

(1) درء تعارض العقل والنقل (1/ 21).

(2) شرح حديث النزول (ص: 79).

(3) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (3/ 64).

مراده، ومنع الأخذ ببعضها، وترك بعضها الآخر لهوى أو مصلحة، وما أوتي أهل البدع إلا من هذا الانتقاء المرفوض، **يقول المصنف**: "فليس لنا أن نؤمن ببعض الكتاب، ونكفر ببعض، وليس الاعتناء بمراده في أحد النصين دون الآخر بأولى من العكس، فإذا كان النص الذي وافقه يعتقد أنه اتبع فيه مراد الرسول؛ فكذلك النص الآخر الذي تأوله فيكون أصل مقصوده معرفة ما أراده الرسول بكلامه"[1].

والطريق إلى معرفة مراد الرسول بخطابه على ضربين:

"**فضرب منه**، نص غير محتمل، وما يقوم مقامه من لحن القول ومفهوم الخطاب وفحواه، وهذا مما يعلم المراد به بظاهر الخطاب وفحواه ووضع اللسان، ويدرك ذلك كل متكلم باللغة وعالم بمعنى المواضعة.

والضرب الآخر وهو المحتمل والمجمل، وهو المتشابه من خطابه، وذلك مما لا يعلم معناه والمراد به إلا بدليل، وقد يكون الدليل عليه عقلياً فيحيلنا فيه على دليل العقل، وقد ينص عليه فيغنينا بتوقيفه عن النظر فيما سواه"[2].

(فَإِذَا اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ أَنَّ هَذَا هُوَ مُرَادُ الرَّسُولِ فَلَا يَعْدِلُ عَنْهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى، وَلَا مَعَ النَّاسِ إِذَا أَمْكَنَهُ ذَلِكَ) **يعني**: إذا وصل المرء إلى أن مراد الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كذا، بقرائن تدل على ذلك؛ فليلزمه، ولا يحد عنه إلى غيره، فإن أمكنه إعلان ذلك في الناس وتعريفهم بذلك منه، وإلا فليكن ذلك بينه وبين

(1) مجموع الفتاوى (7/ 37).

(2) التقريب والإرشاد (الصغير) (1/ 434).

الله؛ وذلك حين يخاف من إظهاره فتنة على نفسه، أو اضطرابًا بين الناس، ويكون ذلك في المسائل الخلافية، خاصة ما فيه مخالفة للسائد بين الناس، وما درجوا عليه في بيئاتهم (وَلْيَجْتَهِدْ أَنْ يَعْتَصِمَ فِي كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ بِأَصْلٍ مَأْثُورٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ) يعني: على المرء أن يبذل وسعه في أن يجعل له في كل باب من أبواب العلم أصلاً كليًا يتمسك به، يرجع إليه الفروع والجزئيات، وذلك عندما تشتبه عليه الأمور، وتتشعب أمام عينيه المسالك؛ لتكون تلك الأصول هي معتصمه الذي به يتمسك.

فمثلاً: من الأصول التي يعتصم بها في باب العبادة: قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ)[1].

وفي باب الرزق والتجارات يعتصم بأصل: (إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ)[2].

وفي باب المقاصد يعتصم بأصل: (إنما الأعمال بالنيات)[3].

---

(1) رواه البخاري(2697)، ومسلم(1718).

(2) رواه البخاري(52)، ومسلم(1599).

(3) رواه البخاري(1)، ومسلم(1907).

وفي باب النظرة إلى الدنيا يعتصم بأصل: (ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ)(1).

وفي التعامل مع الناس يعتصم بأصل: (مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ: تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ)(2).

(وَإِذَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ مِمَّا قَدْ اخْتَلَفَ فِيهِ النَّاسُ) أي: إذا اضطرب فهمه في المسائل التي اختلف فيها الناس في الفكر والعمل، ولم يدر ما يختار، وليس له مرشد أمين يدله على الصواب؛

(فَلْيَدْعُ بِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا قَامَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ: (اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وميكائيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِك فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اُخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِك، إِنَّك تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى

---

(1) رواه ابن ماجه(4102)، والبيهقي في الشعب(10043)، والبغوي في شرح السنة(4037)، والطبراني في الكبير(5972)، والحاكم(7873) **وقال:** "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ" **قال الذهبي:** "خالد بن عمرو القرشي وضاع"، **قال النووي وابن حجر:** سنده حسن. رياض الصالحين (ص: 175)، بلوغ المرام من أدلة الأحكام (ص: 541)، وصححه الألباني وضعفه الأرناؤوط.

(2) رواه أحمد(1737)، والترمذي(2317)، وابن ماجه(3976)، والطبراني في الأوسط(359)، والبيهقي في الشعب(4633)، **قال الهيثمي:** "رِجَالُ أَحْمَدَ وَالْكَبِيرِ ثِقَاتٌ"، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (8/ 18).

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))[1].

يعني: عند الاشتباه والاضطراب، أو عند إرادة طلب التسديد والتوفيق، وتلمس البركة، وإظهار الافتقار؛ عليه أن يدعو بهذا الدعاء.

فقوله: (رب جبريل وإسرافيل وميكائيل): "تخصيصهم بربوبيته وهو رب كل شيء- وجاء مثل هذا كثير من إضافة كل عظيم الشأن له دون ما يستحضر عند الثناء والدعاء-؛ مبالغة في التعظيم، ودليلاً على القدرة والملك"[2].

وقوله: "(فاطر السماوات والأرض) أي: مبتدعهما ومخترعهما، والغيب: ما غاب عن الناس، والشهادة خلافه (واهدني) أي: زدني هدى، أو ثبتني، فليس المطلوب تحصيل الحاصل، والله أعلم"[3].

(فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ قَالَ فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ: (يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْته فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ)[4].

قال ابن رجب -في التعليق على هذه الجملة من الحديث، والجمل التي فيها طلب الطعام، **والكساء**-: "هذا يقتضي أنَّ جميعَ الخلق مُفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم، ودفع مضارِّهم في أمور دينهم ودُنياهم، وأنَّ العباد لا

---

(1) رواه مسلم(770).

(2) إكمال المعلم بفوائد مسلم (3/ 133).

(3) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (1/ 410).

(4) رواه مسلم (2577) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يملِكُون لأنفسهم شيئًا مِنْ ذلك كلِّه، وإنَّ مَنْ لم يتفضَّل اللهُ عليه بالهدى والرزق، فإنَّه يُحرمهما في الدنيا، ومن لم يتفضَّل اللهُ عليه بمغفرة ذنوبه، أوْبَقَتْهُ خطاياه في الآخرة، **قال الله تعالى**: ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾[الكهف:17]، ومثل هذا كثيرٌ في القرآن، **وقال تعالى**: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾[فاطر:2]، **وقال**: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[الذاريات:58]، **وقال**: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾[العنكبوت:17]، **وقال**: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾[هود:6]"[1].

وقد أكثر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ من النصح بالرجوع إلى الله، والافتقار بين يديه لطلب الهداية والرشاد:

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فليجتهد المؤمن في تحقيق العلم والإيمان، وليتخذ الله هاديًا ونصيرًا، وحاكمًا، ووليًا؛ فإنه نعم المولى ونعم النصير، وكفى بربك هاديًا ونصيرًا، وإن أحب دعا بالدعاء الذي رواه مسلم وأبو داود وغيرهما، عن عائشة..." وذكر الحديث الذي ذكره في هذه الوصية[2].

وقال: "...ومن اشتبه عليه ذلك أو غيره فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يصلي يقول:

(1) جامع العلوم والحكم (2/ 660).

(2) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (2/ 398).

«اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» ، وفي رواية لأبي داود: كان يكبر في صلاته ثم يقول ذلك.

فإذا افتقر العبد إلى الله ودعاه، وأدمن النظر في كلام الله، وكلام رسوله، وكلام الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين؛ انفتح له طريق الهدى"(1).

وقال: "... وسل الله أن يلهمك ويهديك؛ فإنه قد ثبت في الحديث الصحيح الإلهي «أن الله تعالى قال: يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم»، وقد ثبت في صحيح مسلم: «أن النبي ﷺ كان إذا قام..." وذكر حديث عائشة(2).

وقال: "وإذا حصل له علم بدليل عقلي فهو مفتقر إلى الله في أن يحدث في قلبه تصور مقدمات ذلك الدليل ويجمعها في قلبه، ثم يحدث العلم الذي حصل بها.

وقد يكون الرجل من أذكياء الناس وأحدِّهم نظراً، ويعميه عن أظهر الأشياء، وقد يكون من أبلد الناس وأضعفهم نظراً ويهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فلا حول ولا قوة إلا به. فمن اتكل على نظره واستدلاله، أو عقله ومعرفته خُذل؛ ولهذا كان النبي ﷺ في الأحاديث الصحيحة كثيراً ما يقول: «يا

---

(1) الفتوى الحموية الكبرى (ص: 551).

(2) درء تعارض العقل والنقل (8/ 276).

مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك» ويقول في يمينه: «لا ومقلب القلوب».

ويقول: «والذي نفسي بيده» ويقول: «ما من قلب من قلوب العباد إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه». وكان إذا قام من الليل يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

وكان يقول هو وأصحابه في ارتجازهم:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا — ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلنْ سكينةً علينا — وثبّتِ الأقدام إن لاقينا

وهذا في العلم كالإرادات في الأعمال؛ فإن العبد مفتقر إلى الله في أن يحبب إليه الإيمان ويبغض إليه الكفر، وإلا فقد يعلم الحق وهو لا يحبه ولا يريده، فيكون من المعاندين الجاحدين"[1].

وقال: "فهذه المسائل إذا تصورها الناس على وجهها تصوراً تاماً ظهر لهم الصواب، وقلت الأهواء والعصبيات، وعرفوا موارد النزاع، فمن تبين له الحق في شيء من ذلك اتبعه، ومن خفي عليه توقف حتى يبينه الله له، وينبغي له أن

---

(1) درء تعارض العقل والنقل (9/ 34).

يستعين على ذلك بالدعاء لله، ومن أحسن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة..."[1].

وقال: "فإن الله هو الذي يعيذ العبد، ويجيره من الشبهات المضلة، والشهوات المغوية؛ ولهذا أمر العبد أن يستهدي ربه في كل صلاة فيقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾[الفاتحة:6-7]، **وفي الحديث الإلهي الصحيح عن النبي ﷺ** فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى: «يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم»"[2].

هذه أقواله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب، وأما امتثاله فقد قال تلميذه ابن القيم: "وكان شيخنا كثير الدعاء بذلك [يعني: اللهم رب جبريل...إلخ]، وكان إذا أشكلت عليه المسائل يقول: "يا معلم إبراهيم، علمني " ويكثر الاستعانة بذلك؛ اقتداء بمعاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حيث قال لمالك بن يخامر السكسكي عند موته، وقد رآه يبكي، فقال: "والله ما أبكي على دنيا كنت أصيبها منك، ولكن أبكي على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلمهما منك"، فقال معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما، اطلب العلم عند أربعة: عند عويمر أبي الدرداء، وعند عبد الله بن مسعود، وأبي موسى

---

(1) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية - رشيد رضا (3/ 79).

(2) درء تعارض العقل والنقل (3/ 311).

الأشعري، وذكر الرابع، فإن عجز عنه هؤلاء فسائر أهل الأرض عنه أعجز، فعليك بمعلم إبراهيم صلوات الله عليه"[1].

وصف الكتب والمصنفين:

(وَأَمَّا وَصْفُ الْكُتُبِ وَالْمُصَنِّفِينَ؛ فَقَدْ سُمِعَ مِنَّا فِي أَثْنَاءِ الْمُذَاكَرَةِ مَا يَسَّرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ) **يعني**: قد ذكر الشيخ في أثناء دروسه عددًا من الكتب وبيان حال مصنفيها، وسمع الحاضرون من طلابه ذلك، ودوّن بعض ذلك في كتبه، **والمذاكرة**: المباحثة في العلم، والخوض فيه بالحديث.

ومن أمثلة ذلك قوله في باب التفسير: "وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل؛ فإنه كثيرًا ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري- وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدرًا- ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة، لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه، ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب"[2].

---

(1) إعلام الموقعين عن رب العالمين (4/ 198).

(2) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص: 37).

وقوله: "وكلام السلف في هذا الباب موجود في كتب كثيرة لا يمكن أن نذكر ههنا إلا قليلاً منها؛ مثل كتاب السنن للالكائي، والإبانة لابن بطة، والسنة لأبي ذر الهروي، والأصول لأبي عمرو الطلمنكي، وكلام أبي عمر بن عبد البر، والأسماء والصفات للبيهقي، وقبل ذلك السنة للطبراني، ولأبي الشيخ الأصبهاني، ولأبي عبد الله بن منده، ولأبي أحمد العسال الأصبهانيين. وقبل ذلك السنة للخلال، والتوحيد لابن خزيمة، وكلام أبي العباس بن سريج، والرد على الجهمية لجماعة: مثل البخاري، وشيخه عبد الله بن محمد بن عبد الله الجعفي، وقبل ذلك السنة لعبد الله بن أحمد، والسنة لأبي بكر بن الأثرم، والسنة لحنبل، وللمروزي، ولأبي داود السجستاني، ولابن أبي شيبة، والسنة لأبي بكر بن أبي عاصم، وكتاب خلق أفعال العباد للبخاري، وكتاب الرد على الجهمية لعثمان بن سعيد الدارمي، وغيرهم"[(1)].

(وَمَا فِي الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ) **المصنفة**: اسم مفعول من التصنيف، **والصِّنْفُ**: طائفةٌ من كُلِّ شيءٍ، فكلُّ ضَرْبٍ من الأشياء صِنْفٌ على حِدَةٍ، **والصَّنْفَةُ والصِّنفَةُ**: قطعة من الثوب، وطائِفةٌ من القبيلة، **والتَّصنيفُ**: تَمييزُ الأشياء بعضِها من بَعضٍ. **وصنف الأشياء**: جعلها صنوفًا، وميز بعضها من بعض، **ومنه**: تصنيف الكتب، **ويقال: صنف الكتاب**: ألَّفه، وهذا على التشبيه[(2)].

---

(1) مجموع الفتاوى (5/ 24).

(2) ينظر: العين (7/ 132)، أساس البلاغة (1/ 561)، المعجم الوسيط (1/ 526).

وهناك من فرق بين التصنيف والتأليف؛ قال العسكري: "الْفرق بَين التَّأْلِيف والتصنيف: أَن التَّأْلِيف أَعم من التصنيف؛ وَذَلِكَ أَن التصنيف تأليف صنف من الْعلم، وَلَا يُقَال للْكتاب إِذا تضمن نقض شَيْء من الْكَلَام مُصَنف؛ لِأَنَّهُ جمع الشَّيْء وضده، وَالْقَوْل ونقيضه، والتأليف يجمع ذَلِك كُله؛ وَذَلِكَ أَن تأليف الْكتاب هُوَ جمع لفظ إِلَى لفظ، وَمعنى إِلَى معنى فِيهِ، حَتَّى يكون كالجملة الكافية فِي مَا يحْتَاج إِلَيْهِ، سَوَاء كَانَ مُتَّفقًا أَو مُخْتَلفًا، والتصنيف مَأْخُوذ من الصِّنْف، وَلَا يدْخل فِي الصِّنْف غَيره"[1].

(الْمُبَوَّبَةِ) يقال: بوب الباب عمله، وبوب الكتاب ونحوه جعله أبوابًا[2]، ويقصد المصنفة في كتب الحديث: **(كِتَابٌ أَنْفَعُ)** في الجمع لأحكام الإسلام وآدابه على سبيل الصحة التي لا يعتريها وهمُ الضعف **(مِنْ صَحِيحِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ) واسم صحيحه** -كما ذكر غير واحد من أهل العلم-: "(الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)"[3].

"وهذا الاسم بهذه الكلمات، وبهذا الترتيب ذكره جمع من العلماء منهم: أبو نصر أحمد بن محمد بن الحسين الكلاباذي (398هـ) في أوائل كتابه «رجال صحيح البخاري»، والحافظ أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي (575هـ) في كتابه

(1) الفروق اللغوية للعسكري (ص: 145).

(2) المعجم الوسيط(1/ 75).

(3) مقدمة ابن الصلاح = معرفة أنواع علوم الحديث (ص: 26).

«فهرسة ما رواه عن شيوخه»، والعلامة أبو عمرو ابن الصلاح (643هـ) في كتابه المعروف بـ «مقدمة ابن الصلاح»، وشيخ الإسلام يحيى بن شرف النووي (676هـ) في مقدمته للقطعة التي شرحها من «صحيح البخاري» المسمى بـ «التلخيص»، وفي أول كتاب «تهذيب الأسماء واللغات»، وأبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد السبتي الأندلسي (721هـ) في كتابه «إفادة النصيح بالتعريف بسند الجامع الصحيح»..."[1] وغيرهم.

وسماه بعضهم: «الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه». بدون ذكر كلمة: (المختصر)، وكلمة: (حديث) بدلاً من كلمة: (أمور).

وهو ما ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني (852هـ) في مقدمة شرحه «فتح الباري»"[2].

والبخاري هو: أبو عبد الله البخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزبه، إمام أهل الحديث في زمانه، والمقتدى به في أوانه، والمقدم على سائر أضرابه وأقرانه، حبر الإسلام، والحافظ لحديث رسول الله ﷺ، جبل الحفظ، وإمام الدنيا في فقه الحديث.

قال محمد بن إسحاق بن خزيمة: "ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله ﷺ، وأحفظ له من محمد بن إسماعيل".

---

(1) روايات الجامع الصحيح ونسخه «دراسة نظرية تطبيقية» (1/ 44).

(2) روايات الجامع الصحيح ونسخه «دراسة نظرية تطبيقية» (1/ 45).

ولد في سنة(194هـ) ومات سنة (256هـ) في شوال وله اثنتان وستون سنة، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

من مصنفاته غير الصحيح: التاريخ، والضعفاء، وخلق أفعال العباد، والأدب المفرد[1].

أما كتابه الصحيح فقد اعتنى بإتقانه عناية فائقة، ومن ذلك أنه قال: "أخرجت هذا الكتاب من زهاء ست مائة ألف حديث"[2].

وقد أثنى عليه العلماء ثناء عاطراً؛ قال ابن كثير: "وأجمع العلماء على قبوله، وصحة ما فيه، وكذلك سائر أهل الإسلام"[3].

وقال الذهبي: "وأما جامعه الصحيح فأجل كتب الإسلام، وأفضلها بعد كتاب الله تعالى"[4].

وقال النووي: "اتفق العلماء رحمهم الله على أن أصح الكتب بعد القرآن العزيز الصحيحان: البخاري، ومسلم، وتلقتهما الأمة بالقبول، وكتاب البخاري أصحهما، وأكثرهما فوائد، ومعارف ظاهرة وغامضة، وقد صح أن مسلمًا كان

---

(1) ينظر: سير أعلام النبلاء (12/ 391)، البداية والنهاية(11/ 24)، تاريخ الإسلام(6/ 152)، تقريب التهذيب (ص: 468)، الأعلام للزركلي (6/ 34).

(2) سير أعلام النبلاء (12/ 402).

(3) البداية والنهاية (11/ 30).

(4) تاريخ الإسلام (6/ 142).

ممن يستفيد من البخاري، ويعترف بأنه ليس له نظير في علم الحديث"[1].

ولهذا لقي -ولا يزال- كتاب البخاري من عناية الأمة شيئًا كبيراً؛ فقد " بلغ عدد شروحه والتعليقات عليه مئاتِ المؤلفات، ثم يلي هذا المقياسَ شدةُ العكوف على دراسة الكتاب، والتهافت على روايته ونقله، والتنافس في حمله ونشره، وضمه إلى الصدور، والعض عليه بالنواجذ، وتوارث الأجيال في تلقيه جيلًا بعد جيل، وكابرًا عن كابر، وطبقةً عن طبقةٍ، حتى لا تعرف فترةٌ من الزمان نسج فيها عليه العنكبوت، وساد عليه الظلام وانقطعت روايته، وتوقفت دراسته، وقد تفرد «الجامع الصحيح» بهذه الميزة بعد كتاب الله تعالى، فقد رواه وأخذه عن مؤلفه أكثر من تسعين ألفًا من الرُّواة والحفاظ، وتسلسل نقله وروايته حتى انتهى هذا الكتاب إلى مؤلفه، وبلغ حد التواتر في شهرته وصحة نقله ونسبته إلى المؤلف، لا ينكر ذلك، ولا يشكك فيه إلا من تشكك في المتواترات والحقائق العلمية التي تثبت بالضرورة، ولا يزال هذا الكتاب موضع الاهتمام والعناية، وموضع التأمل والدراسة، في الحلقات العلمية والجامعات الإسلامية وغيرها في العالم"[2].

و"**لِبَعْضِهِم**:

(صَحِيْحُ البُخَارِيِّ) لَوْ أَنْصَفُوْهُ لَمَا خُطَّ إِلاَّ بِمَاءِ الذَّهَبْ

---

(1) شرح النووي على مسلم (1/ 14).

(2) روايات الجامع الصحيح ونسخه «دراسة نظرية تطبيقية» (1/ 17).

هُـوَ الفَـرْقُ بَـيْنَ الهُـدَى وَالعمَـى هُـوَ الـسَّدُّ بَـيْنَ الفَتَـى وَالعَطَـبْ
أَسَـــانِيْدُ مِثْـــلُ نُجُـــومِ الـــسَّمَاءِ أَمَـــامَ مُتُـــوْنٍ كَمِثْـــلِ الـــشُّهُبْ
بِـــهِ قَـــامَ مِيْـــزَانُ دِيْـــنِ الرَّسُـــوْلِ وَدَانَ بِـــهِ العُجْـــمُ بَعْـــدَ العَـــرَبْ
حِجَـابٌ مِـنَ النَّـارِ لاَ شَـكَّ فِيْـهِ تَمَيَّـــزَ بَـــيْنَ الرِّضَـــى وَالغَـــضَبْ
وَسِـــتْرٌ رَقِيْـــقٌ إِلَـــى المُـــصْطَفَى وَنَـــصٌّ مُبِـــيْنٌ لِكَـــشْفِ الرِّيَـــبْ
فَيَـــا عَالِمـــاً أَجْمَـــعَ العَـــالِمُوْنَ عَلَـــى فَـــضْلِ رُتْبَتِـــهِ فِـــي الرُّتَـــبْ
سَـــبَقْتَ الأَئِمَّـــةَ فِيْمَـــا جَمَعْـــتَ وَفُـــزْتَ عَلَـــى رَغْمِهِـــمْ بِالقَـــصَبْ
نَفَيْـــتَ الـــضَّعِيْفَ مِـــنَ النَّـــاقِلِيْنَ وَمَـــنْ كَـــانَ مُتَّهَمـــاً بِالكَـــذِبْ
وَأَبْـــرَزْتَ فِـــي حُـــسْنِ تَرْتِيْبِـــهِ وَتَبْوِيْبِـــــهِ عَجَبـــــاً لِلْعَجَـــــبْ
فَأَعطَـــاكَ مَـــولاَكَ مَـــا تَـــشْتَهِيْهِ وَأَجْـــزَلَ حَظَّـــكَ فِيْمَـــا وَهَـــبْ"(1)

(لَكِـنْ هُـوَ وَحْـدَهُ لَا يَقُـومُ بِأُصُـولِ الْعِلْـمِ)؛ لوجـود أصـول علميـة أخـرى توزعت على: الصحاح الأخرى، والسنن، والجوامع، والمسانيد، والمعاجم، والمستدركات، والمستخرجات (وَلَا يَقُومُ بِتَمَامِ الْمَقْصُودِ لِلْمُتَبَحِّرِ فِي أَبْوَابِ الْعِلْمِ) الـذي يستوعب الكلام في المسائل من جميع جوانبها، ويخرج برؤيـة جمعية؛ لأن هذا رزق قسمه الله بين العلماء، وعز أن يحوزه أحد، فالمدارك تختلف، والأفهام تتباين، والحوافظ تتسع وتضيق، والمسألة العلمية أو العملية

(1) سير أعلام النبلاء (12/ 471).

التي يستدل لها قد تكون أشتاتًا في تلك المصادر الحديثية، غير مجموعة في واحد منها، وهذا هو الواقع كما يدري أهل البحث والمعرفة.

ثم إن المصنف علل لعدم وفاء صحيح البخاري بتمام مقصود المتبحر فقال: **(إِذْ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ أَحَادِيثَ أُخَرَ)**؛ نظراً لأن الشيخين -ولاسيما البخاري- اشترطا شروطًا في صحيحيهما لم تنطبق إلا على بعض الأحاديث؛ ولذلك فاتهما الكثير، **قال ابن الصلاح**: "لم يستوعبا الصحيح في صحيحيهما، ولا التزما ذلك؛ فقد روِّينا عن البخاري أنه قال: "ما أدخلت في كتابي (الجامع) إلا ما صح، وتركت من الصحاح لحال الطول". وروينا عن مسلم أنه قال: "ليس كل شيء عندي صحيح وضعته هاهنا – يعني: في كتابه الصحيح – إنما وضعت هاهنا ما أجمعوا عليه"[(1)].

وقال ابن حجر: "وروى الإسماعيلي عنه[يعني: البخاري] قال: لم أخرج في هذا الكتاب إلا صحيحًا، وما تركت من الصحيح أكثر"[(2)].

قال العراقي:

"أَوَّلُ مَنْ صَنَّفَ في الصَّحِيْحِ ... مُحَمَّدٌ وَخُصَّ بِالتَّرْجِيْحِ

وَمُسْلِمٌ بَعْدُ، وَبَعْضُ الغَرْبِ مَعْ ... أَبِي عَلِيٍّ فَضَّلُوا ذَا لَوْ نَفَعْ

(1) مقدمة ابن الصلاح = معرفة أنواع علوم الحديث (ص: 19).

(2) فتح الباري لابن حجر (1/ 7).

وَلَــمْ يَعُمَّــاهُ ولكــنْ قَلَّمَــا عِنْدَ ابْنِ الاخْرَمِ مِنْهُ قَدْ فَاتَهُمَا"[1]

(وَكَلَامِ أَهْلِ الْفِقْهِ) **يعني**: شراح الأحاديث، والكاشفين عن معانيها (وَأَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي يَخْتَصُّ بِعِلْمِهَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ) وذلك في المسائل التي يطلب لها أهل الاختصاص؛ فللتفسير وعلوم القرآن علماء مختصون بذلك، ولعلوم الحديث كذلك، وللفقه والأصول، وللعربية وفنونها مثل هذا؛ لأنه يوجد لدى المتخصص من الإحاطة، وحسن الفهم ما لا يوجد عند غيره غالبًا.

قال الخليل بن أحمد: "إذا أردت أن تكون عالمـًا فاقصد لفنٍّ من العلم، وإن أردت أن تكون أديبًا فخذ من كل شيء أحسنه"[2].

"**وقال غيره**: من أراد أن يكون حافظًا نظر في فن واحد من العلم، ومن أراد أن يكون عالمًا أخذ من كل علم بنصيب"[3].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: "ما ناظرني رجل قط -وكان متفننًا في العلوم- إلا غلبته، ولا ناظرني رجل ذو فن واحد إلا غلبني في علمه ذلك"[4].

(وَقَدْ أَوْعَبَتْ الْأُمَّةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ إيعَابًا) **يعني**: جمعت من العلم في المؤلفات في كل فن جمعًا كثيراً.

---

(1) ألفية العراقي = التبصرة والتذكرة (ص: 94).

(2) جامع بيان العلم وفضله (1/ 522).

(3) جامع بيان العلم وفضله (1/ 522).

(4) جامع بيان العلم وفضله (1/ 522).

ونقول: لو قائل: إنه لا توجد أمة مثل هذه الأمة في كثرة المصنفات –خاصة ما يتصل بدينها–؛ لما أبعد، والمكتبات العالمية التي تحتفظ بالمخطوطات اليوم تشهد بصحة الدعوى، غير ما كتب في هذا العصر، ولا يزال يكتب.

(فَمَنْ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ هَدَاهُ بِمَا يَبْلُغُهُ مِنْ ذَلِكَ) يقول: فمن أنار الله بصيرته أرشده إلى الوصول إلى ما ينفعه من الكتب، وما يفيده منها، فقد ينفع الله عبداً من عباده بكتاب واحد، أو قليل من الكتب، فليست كثرة الكتب دليلاً على كثرة العلم، ولا قلتها برهانًا على ضعف المعرفة **(وَمَنْ أَعْمَاهُ لَمْ تَزِدْهُ كَثْرَةُ الْكُتُبِ إِلَّا حَيْرَةً وَضَلَالًا) يقول:** ومن حُرم نور البصيرة؛ بسبب ظلام قلبه؛ لكثرة خطاياه الباطنة والظاهرة؛ لن يستفيد من الكتب لديه ولو كثرت، بل ربما تصبح سبب حيرته وضلاله؛ لأن قراءته فيها تفتح له أبواب الشبهات، والاعتراضات، وتورد على ذهنه كثيراً من الإشكالات، ففاته بذلك الهدى بسبب عماه.

قال ابن القيم: "فإذا عمي القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه في نفسه وفي غيره؛ بحسب ضعف بصيرته وقوته"[1] **(كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيِّ: (أَوَ لَيْسَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؟ فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟)).**

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: (هَذَا أَوَانُ

---

(1) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء (ص: 92).

يُخْتَلَسُ العِلْمُ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ) فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ الأَنْصَارِيُّ: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا القُرْآنَ! فَوَاللهِ لَنَقْرَأَنَّهُ، وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ: (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ؛ هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟). قَالَ جُبَيْرٌ: «فَلَقِيتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، قُلْتُ: أَلَا تَسْمَعُ إِلَى مَا يَقُولُ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ قَالَ: «صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، إِنْ شِئْتَ لَأُحَدِّثَنَّكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ؟ الخُشُوعُ، يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ فَلَا تَرَى فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا»[1].

وعند بعض من خرج هذا الحديث جاء بلفظ: (أَوَ لَيْسَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَؤُونَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ لَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِنْهُمَا).

وفي لفظ: (...ثُمَّ لَا يَنْتَفِعُونَ مِنْهَا بِشَيْءٍ؟).

قوله: "(ثكلتك أمك) **أي:** فقدتك، وأصله الدعاء بالموت، ثم يستعمل في التعجب (زياد!) **أي:** يا زياد (إن كنت): إن مخففة من الثقيلة؛ بدليل اللام الآتية

---

(1) رواه أحمد(17473)، والترمذي(2653)، وابن ماجه(4048)، والدارمي(307)، والطبراني في الكبير (5290)(5291) ومسند الشاميين(2022)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (1999)، وابن الشجري في ترتيب الأمالي(286)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار(304)، والبزار (5394)، وابن أبي شيبة(30199)، والحاكم(6500) **وقال:** "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ"، **وقال الهيثمي:** "رواه الطبراني في الكبير، وإسناده حسن"، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (1/ 201)، وصححه الألباني، والأرناؤوط.

الفارقة، واسمها ضمير الشأن محذوف أي: إن الشأن كنت أنا (لأراك): بضم الهمزة أي: لأظنك أو بفتحها أي: لأعلمك (من أفقه رجل بالمدينة!): ثاني مفعولي أراك، ومن زائدة في الإثبات، أي: على مذهب الأخفش، أو متعلقة بمحذوف أي: كائنًا كذا قاله الطيبي، والأظهر الثاني، ولا نظر لإفراد رجل؛ لأن المراد به الاستغراق (أوليس) أي: أتقول هذا الكلام وليس (هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل) أي: آباؤهم وأبناؤهم (ولا يعملون بشيء مما فيهما؟) أي: فكما لم تفدهم قراءتهما مع عدم العلم بما فيهما، فكذلك أنتم، والجملة حال من يقرءون، أي: يقرءون غير عالمين، نزل العالم الذي لا يعمل بعلمه منزلة الجاهل، بل منزلة الحمار الذي يحمل أسفارًا، بل أولئك كالأنعام بل هم أضل"(1).

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[الجمعة:5].

يذكر بعضهم عند هذه الآية قول الشاعر -عند التشبيه في عدم الانتفاع بالمحمول-:

وأشد ما لاقيت من ألم الهوى ... قرب الحبيب وما إليه سبيل

(1) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (1/ 339).

كـالعيس في البيـداء يقتلهـا الظمـا والمـاء فـوق ظهورهـا محمـول[1]

لكـن قـال الـشيخ عطيـة سـالم: "والـذي ينبغـي التنبيـه عليـه هـو أن أكثـر المفسرين يجعله من قبيل التشبيه المفرد، وأن وجه الشبه فيه مفرد وهو عدم الانتفاع بالمحمول، **كالبيت الذي فيه:**

كـالعيس في البيـداء يقتلهـا الظمـا والمـاء فـوق ظهورهـا محمـول

والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أنه من قبيل التشبيه التمثيلي؛ لأن وجه الشبه مركب من مجموع كون المحمول كتبًا نافعة، والحامل حمارًا لا علاقة له بها، بخلاف ما في البيت؛ لأن العيس يمكن أن تنتفع بالماء لو حصلت عليه، والحمار لا ينتفع بالأسفار ولو نشرت بين عينيه، وفيه إشارة إلى أن من موجبات نقل النبوة عن بني إسرائيل كلية أنهم وصلوا إلى حد الإلباس من انتفاعهم بأمانة التبليغ والعمل، فنقلها الله إلى قوم أحق بها وبالقيام بها.

وعَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ؛ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، قَالَ لِإِنْسَانٍ: إِنَّكَ فِي زَمَانٍ كَثِيرٍ فُقَهَاؤُهُ، قَلِيلٍ قُرَّاؤُهُ، تُحْفَظُ فِيهِ حُدُودُ الْقُرْآنِ، وَتُضَيَّعُ حُرُوفُهُ، قَلِيلٌ مَنْ يَسْأَلُ، كَثِيرٌ مَنْ يُعْطِي، يُطِيلُونَ فِيهِ الصَّلاَةَ، وَيَقْصُرُونَ الْخُطْبَةَ، يُبَدُّونَ أَعْمَالَهُمْ قَبْلَ أَهْوَائِهِمْ. وَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ قَلِيلٌ فُقَهَاؤُهُ، كَثِيرٌ قُرَّاؤُهُ، تُحْفَظُ فِيهِ حُرُوفُ الْقُرْآنِ، وَتُضَيَّعُ حُدُودُهُ، كَثِيرٌ مَنْ يَسْأَلُ، قَلِيلٌ مَنْ يُعْطِي، يُطِيلُونَ فِيهِ

---

(1) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (4/ 34).

الْخُطْبَةَ، وَيَقْصُرُونَ الصَّلاَةَ، يُبَدُّونَ فِيهِ أَهْوَاءَهُمْ قَبْلَ أَعْمَالِهِمْ"[1].

وقول المصنف: (لِأَبِي لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيِّ): هذا فيه تصحيف، والصواب -كما ذكرنا- في الحديث: زياد بن لبيد، وهو: زياد بْن لبيد بْن ثعلبة بْن سنان بن عامر بْن عدي بْن أمية بْن بياضة بْن الخزرج بْن ثعلبة الأنصاري الخزرجي البياضي.

خرج إِلَى رَسُول اللهِ ﷺ، وأقام معه بمكة حتى هاجر مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، فكان يقال له: مهاجري أنصاري، شهد العقبة وبدرًا، وأحدًا، والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، واستعمله رسول الله ﷺ على حضرموت[2].

وقد جاء اسمه مقلوبًا كما عند النسائي، وابن حبان، والطحاوي[3]-: "... فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: لَبِيدُ بْنُ زِيَادٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، يُرْفَعُ الْعِلْمُ وَقَدْ أُثْبِتَ وَوَعَتْهُ الْقُلُوبُ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنْ كُنْتُ لَأَحْسِبُكَ أَفْقَهَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ)، ثُمَّ ذَكَرَ ضَلَالَةَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ، قَالَ: فَلَقِيتُ شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ وَحَدَّثْتُهُ بِحَدِيثِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ فَقَالَ: صَدَقَ عَوْفٌ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَوَّلِ ذَلِكَ يُرْفَعُ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: الْخُشُوعُ حتى لا ترى خاشعا).

---

(1) موطأ مالك (2/ 242).

(2) ينظر: أسد الغابة (2/ 121)، الإصابة في تمييز الصحابة (2/ 484).

(3) السنن الكبرى للنسائي (5/ 392)، صحيح ابن حبان (10/ 433)، شرح مشكل الآثار (1/ 277).

قال ابن حجر في ترجمة زياد: "ووقع في رواية النسائيّ: لبيد بن زياد، وهو مقلوب"[1].

وعند ذكر الاسم المقلوب قال ابن حجر: "لبيد بن زياد. استدركه ابن الأمين على «الاستيعاب» ، وعزاه لمسند الجوهري، وأنه روى عن النبي ﷺ حديثًا في رفع العلم. وتبعه ابن بشكوال والذهبي، وهو مقلوب، وإنما هو زياد بن لبيد المقدم ذكره في حرف الزاي، والحديث حديثه. وقد وقع مقلوبًا في رواية النسائي أيضًا في حديث عوف بن مالك"[2].

(1) الإصابة في تمييز الصحابة (2/ 485).

(2) الإصابة في تمييز الصحابة (5/ 514).

الخاتمة

(فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَرْزُقَنَا الْهُدَى وَالسَّدَادَ، وَيُلْهِمَنَا رُشْدَنَا، وَيَقِيَنَا شَرَّ أَنْفُسِنَا، وَأَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَيَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً، إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ).

قوله: (فَنَسْأَلُ اللهَ...) بعد أن انتهى المصنف من هذه الوصية الجامعة؛ ختمها بدعاء عظيم في بعض جمله تناص مع آيات قرآنية، وأحاديث نبوية.

وقوله: (فَنَسْأَلُ) الفاء فاء الفصيحة[1]، **أي:** إذا كان الأمر كذلك بما ذكرنا في هذه الوصية فنسأل الله كذا. **(الْعَظِيمَ) العظيم:** ذو العظمة والجلال في ملكه

---

(1) **الفاءُ الفصيحة:** هي التي يُحذفُ فيها المَعطوفُ عليه مع كَونِه سَبَبًا للمَعطُوف مِنْ غير تَقدير حَرْفِ الشَّرْط.

وقيل: سُمِّيتْ فَصِيحةً لأَنَّها تُفصِحُ عن المَحذُوف، وتُفِيد بَيَانَ سَبَبِيَّته، **وقال بعضهم:** هيَ داخِلةٌ على جملةٍ مُسَبَّبة عن جُملةٍ غير مَذْكورةٍ نحو قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ فَانفَجَرَتْ﴾ [البقرة:60]، أي: ضَرَبَ فانفَجَرتْ، ونحو قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[الصافات:168-170].

التقدير: فجاءَهُم محمد ﷺ بالذكر فكفروا به، ومثله قول الشاعر -وهو أبو تمام-:

قالوا خُراسَانُ أَقصَى ما يُرادُ بنا ... ثُمَّ القُفولُ فقد جِئنا خُراسَانا

معجم القواعد العربية (1/ 453).

وسلطانه عَزَّوَجَلَّ[1]، وهذا" فِي صفة الله تَعَالَى يُفِيد عظم الشَّأْن وَالسُّلْطَان"[2]، **قال تعالى:** ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[البقرة:255] **(أَنْ يَرْزُقَنَا الْهُدَى)** أن يعطينا الرشاد إلى الحق، ويثبتنا عليه، **وقد كان من دعاء النبي** عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى)[3] **(وَالسَّدَادَ) السداد:** الاستقامة والقصد والصواب من القول والفعل[4].

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: (قُلِ: اللهُمَّ اهْدِنِي، وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ، بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ)، ومن طريق عَاصِمِ بْنِ كُلَيْبٍ، بِهَذَا الْإِسْنَادِ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: (قُلِ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالسَّدَادَ)[5] **(وَيُلْهِمَنَا) يقال:** "ألهمه الله خيرًا: ألقاه في روعه، ولقنه إياه"[6] **(رُشْدَنَا) الرشد:** الهدى والتوفيق **(وَيَقِيَنَا شَرَّ أَنْفُسِنَا) يقينا:** يحفظنا ويصوننا، وشر النفس: "ظهور السيئات الباطنية التي جبلت النفس عليها"[7].

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي: (يَا حُصَيْنُ) كَمْ

---

(1) اشتقاق أسماء الله (ص: 111).

(2) تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (ص: 46).

(3) رواه مسلم (2721).

(4) المعجم الوسيط (1/ 422).

(5) رواه مسلم(2725).

(6) المعجم الوسيط(2/ 842).

(7) تحفة الأحوذي (9/ 237).

تَعْبُدُ اليَوْمَ إِلَهًا)؟ قَالَ أَبِي: سَبْعَةً؛ سِتَّةً فِي الأَرْضِ، وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ. قَالَ: (فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ)؟ قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ. قَالَ: (يَا حُصَيْنُ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ). قَالَ: فَلَمَّا أَسْلَمَ حُصَيْنٌ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِيَ الكَلِمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ وَعَدْتَنِي، فَقَالَ: (قُلْ: اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي)[1].

وجاء عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أيضًا، أَنَّ حُصَيْنًا، أَوْ حَصِينًا أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، لَعَبْدُ الْمُطَّلِبِ كَانَ خَيْرًا لِقَوْمِهِ مِنْكَ؛ كَانَ يُطْعِمُهُمُ الْكَبِدَ وَالسَّنَامَ، وَأَنْتَ تَنْحَرُهُمْ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ، فَقَالَ لَهُ: مَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَقُولَ؟ قَالَ: (قُلِ: اللهُمَّ قِنِي شَرَّ نَفْسِي، وَاعْزِمْ لِي عَلَى أَرْشَدِ أَمْرِي). قَالَ: فَانْطَلَقَ فَأَسْلَمَ الرَّجُلُ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: إِنِّي أَتَيْتُكَ فَقُلْتَ لِي: (قُلِ: اللهُمَّ قِنِي شَرَّ نَفْسِي، وَاعْزِمْ لِي عَلَى أَرْشَدِ أَمْرِي). فَمَا أَقُولُ الْآنَ؟ قَالَ: (قُلِ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَخْطَأْتُ وَمَا عَمَدْتُ، وَمَا عَلِمْتُ وَمَا جَهِلْتُ)[2].

---

(1) رواه الترمذي(3483)، والبزار(3580)، والبخاري في خلق أفعال العباد (ص: 43)، والخرائطي في المنتقى(604)، والطبراني في الكبير(396) والأوسط(1985) والدعاء (1393)، والبيهقي في الأسماء والصفات(894)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (2355)، وضعفه الألباني.

(2) رواه أحمد(19992)، والنسائي في الكبرى(10764) وفي عمل اليوم والليلة(993)، وابن حبان(899)، والطبراني في الكبير(599) والدعاء(1394)، والبيهقي في الدعوات الكبير (214)، والحاكم(1880) **وقال:** "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ"، =

(وَأَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَيَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً، إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ)

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[آل عمران:8].

والمعنى: "لا تملها فتصرفها عن هُدَاك بعد إذ هديتنا له، فوفقتنا للإيمان بمحكم كتابك ومتشابهه ﴿وَهَبْ لَنَا﴾ يا ربنا ﴿مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾، يعني: من عندك رحمة، يعني بذلك: هب لنا من عندك توفيقًا وثباتًا للذي نحن عليه من الإقرار بمحكم كتابك ومتشابهه ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾، يعني: إنك أنت المعطي عبادك التوفيقَ والسدادَ للثبات على دينك، وتصديق كتابك ورسلك"(1).

(وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ابتدأ المصنف بالحمد؛ لما تقدم، وختم به أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[يونس:10]، وقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:180-181].

(وَصَلَوَاتُهُ عَلَى أَشْرَفِ) أعلى وأسمى (الْمُرْسَلِينَ) قال القرطبي: "يستحب للداعي أن يقول في آخر دعائه كما قال أهل الجنة: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ

= وقال الهيثمي: "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح"، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (10/ 181).

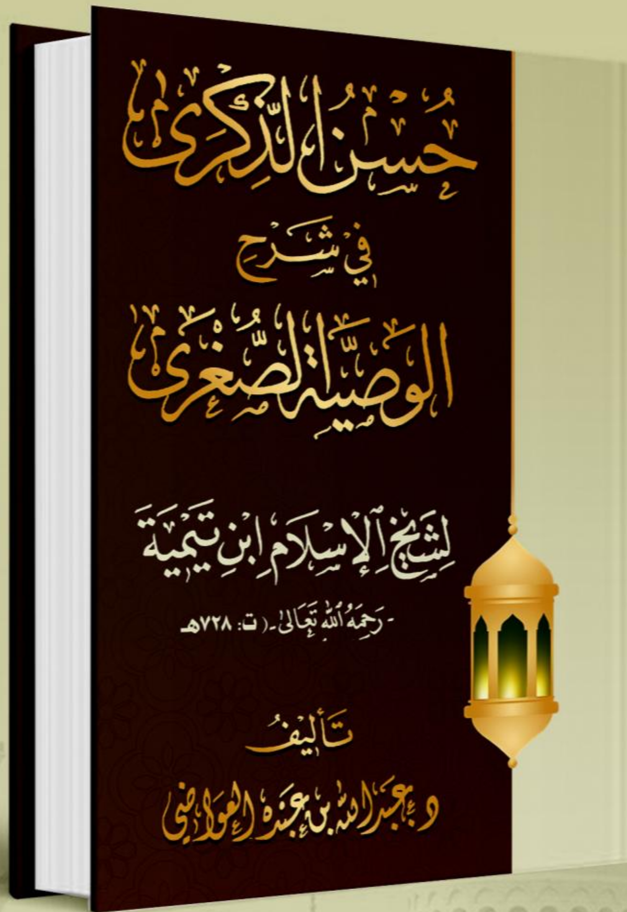
(1) تفسير الطبري (6/ 212).

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وحسن أن يقرأ آخر" والصافات"؛ فإنها جمعت تنزيه الباري تعالى عما نسب إليه، والتسليم على المرسلين، والختم بالحمد لله رب العالمين"(1).

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(1) تفسير القرطبي (8/ 314).

فهرس المحتويات



مكتبة التسهيل
للطباعة والنشر والتوزيع
اليمن - إب - الوازعية - أمام مدرسة أروى للبنات
773851870 - 774232067
AL - Hilali 781799525